قدور الورطاسي الحسني

بين ظلال الأصالة

طبع عام 1409 هـ
الموافق 1989 م

قدور الورطاسي الحسني

بين ظلال الأصالة

طبع عام 1409 هـ
الموافق 1989 م

رقم الايداع القانوني
1989/153

مطبعة ومكتبة الأمنية
IMPRIMERIE LIBRAIRIE OMNIA s.a

الأهـــــداء

الى جميع من تحدثـت عنهم هنـا اهدي هـذا الكتاب المتواضع راجيا من الله سبحانه الرضى لمن في عالم الفناء امين

بسم الله الرحمن الرحيم

عمود نسب المؤلف لأب

قدور بن علي بن البشير بن محمد فتحـا بن البشيـر بن علي بن عمر بن رابح بن محمد بن علي بن محمـد بن البشيـر بن محمد بن علي بن عبد القادر بن سالـم بن أحمد بن عـلال بن جبار بن عمران بن سالم بن أحمد بن محمد بن عباد بن محمـد فتحا بن بلقاسـم بن ادريس بن ادريس الفاتح الأعظم دفين زرهون.

عمود نسبه لأم

فهي « حلومة » بفتح الحاء وشد اللام بنت علـي بن عبد الله بن المختار بن الحاج علي بن محمد بن يعقوب بن محمد فتحا بن الجـلالي بن محمد بن أحمد بن محمد فتحا بن يعقوب بن محمد فتحا بن أبي مدين القطب سيدي الحاج لحسن بن عبد الرحمـن بن عمرو بـن يعقـوب بن محمد بن يعقوب بن رابح بن أحمد بن المختـار بن الحسن بـن محمد بـن علي بن رابح بن عيسـى بن موسى بـن حيـدرة بن هاشـم بن ميمـون بن عبد الله ابن ادريس بن ادريس الفاتح الأعظم دفين زرهون.

عمود نسب زوجته

فاطنة بنت محمد بن علـي بن عبد الله بن المختـار بن ج علي بن محمد ابن يعقوب الى آخر نسب أمي فهي بنت خالي كما ان أمي بنت خال والدي.

فالسيد علي بن عبد الله في نسب أمي هو خال والدي ووالد والد زوجتي : السيد محمد بن علي وهو خالي ايضا.

هذا وراجع ان شئـت كتابي عن محمـد المدور روائع الخالدين في أربع نسخ منه موجودة بالخزانة العامة بالرباط المطبوع عام 1390 الموافق 1971م

أولادي من نفس الزوجة

بلغ عدد أولادي 12

1) خديجة.. بكالوريا مديرة مدرسة ابتدائية

2) راضية.. بروفي معلمة

3) رشيدة.. بروفي معلمة

4) فريد.. مستوى بروفي

5) حفيظة.. ...

6) عبد الحميد.. مهندس معماري

7) ثريا ليسانس في الاقتصاد

8) سعاد ديبلوم في الاقتصاد

9) علي ليسانس في الحقوق

10) محمد في طريق ليسانس في الانجليزية

11) بشرى في الكلية لبيولوجيا

12) خالد في نهاية الدراسة الثانوية وهو بألمانيا للدراسة العليا « الترجمة الفورية ».

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

تـقـديـم :

برغم انني فتحت عيني على هذا الوجود اثـر عامين أو ثلاثة على عقد الحماية الفرنسية مع المغرب بواسطـة المولى عبد الحفيـظ بن المولى الحسن الاول ، وكان لهذا الحدث الخطير والاول مـن نوعه في هـذه الديار البطلة ، الآثار السيئة على الشعب المغـربي الذي مـا أهين بغـزو أجنبي منذ الفتح الاسلامي من قبل ذلك ، فانني أحمـد الله وأشكره على الجوانـب البيضاء الاسلامية التي وجدتها من أول طفولتي تنير أرجاء القلوب والأفكار.

وبعبارة أخرى اني وجـدت الشخصيـة المغربيـة العربية الاسلامية تتمتع بالعافية في معظم عناصرهـا الاساسية فاينمـا وليت وجهي المس ظلال الأصالة الاسلامية وريفة تبعث على الاطمئنان على العقيدة الاسلامية ، وتشع الآمال في القلوب والافكار للتخلص يوما ما ، من عار الغزو الاجنبي المزدوج والمتنوع الالـوان في ذات الوقـت. ففي جميع قـرى بني يزناسن وفي سائر شرق المغرب ، كان القـرآن الكريم ودراسـة المعارف الاسلامية منهل أطفال المسلمين وشبابهم ، علاوة على الرحلات العلمية الـى المراكز القرآنية والعلمية داخل شرق المغـرب وخارجـه ، ويأتي معهد عاصمة شرق المغرب : وجدة ، على رأس قائمة تلك المراكز الاسلامية الرائعة.

الى جانب ذلك ، أخذ الشباب القرآني يشد الرحال الى القرويين برغم ما بذله الاستعمار من أشواك ودعاية سامة للحيلولة بين الطلاب والقرويين.

ولقد كانت الاشعاعـات القرآنيـة والمعارف الاسلاميـة درعا حصينا للعقيدة الاسلامية من كـل التيارات العلمانية الملعونـة فلا أحد أصيب من جراثيمها الفتاكة بالشخصية المغربية العربية الاسلامية. فالعقيدة الاسلامية في اسمى صولتها حتى بين طبقات الأميين وان كانت بعض الأساطير تحاول تقليص السيادة المطلقة لهذه العقيـدة الاسلامية المتاصلة الجذور منذ الفتح الاسلامي.

الى جانب ذلك لمست سخطا مطبقا على الغزو الاستعماري المزدوج لفرنسا واسبانيا وما قامتا به من تمزيق مريع لوحدة البلاد التي تماسكت أجزاؤها من « السعيدية » ومليلية» الى « نهر السينغال »

وبرروا باعلام كتاب الله تلقينا وتدريسا وتربية وسلوكا من الذين أخذت ذلك عنهم ، رأيت أن ألقي على شخصياتهم أضواء لما تزل ذاكرتي مشعة بها ، علاوة على ما ألقيته هنا من أضواء على ذلك المعهد الاسلامي الوجدي الذي أضيف الى المسجد الكبير ولم يبق حتى أثر بعد عين ! الى أضواء على رفقاءي في المعهد باجمعهم مع طرائف متنوعة.

على انه لو كانت تلك الظلال الاسلامية الوريفة لما تزل تتمتع بعافيتها ، ربما ضعفت ارادتي حيال تأليف هذا الكتاب ، وحرمت من بروري بمشيختي ورفاقي بعدم احياء من مات منهم واكرام من هم على قيد الحياة ، أما وقد أخذت « العلمانية الملعونة » تغزو مجتمعنا غزوا «التتار والمغول» فمن العقوق لديني وعروبتي ان اتوانى في تأليف هذا الكتاب ، فلعل شبابنا « وقد فعل بعضهم » يرجعون الى الاهتداء بهدى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويكون لهذا الكتاب دور ما في افادته بما درج عليه سلفهم من الاهتداء الحق وما كان عليه من عقيدة اسلامية عربية صميمة لا تنال منها « العلمانية الصهيونية الملعونة » والتوجيهات الصليبية الخفية المقيتة ويكون لي بذلك أجر عظيم وثواب كريم من المولى الرحيم وما ذلك على الله بعزيز.

الرباط : الخميس 25 رجب عام 1399هـ بتاريخ فاتح يونيه 1979.

« ق.ع.سي »



والـــد المـؤلـف

هو «علي» بن البشير بن علي بن محمد فتحا الى القاسم بن ادريس دفين طنجة قرب المطار الدولي وكانـــت ولادته عام 1300هـ تقريبا الموافق حوالي سنة 1880م

وذلك بمنزل خاله القاضي السيد علي بن بنعبد الله بن المختار بن الحاج علي بن محمد بـــن يعقوب الى المولـــى عبد الله بن ادريـــس ، ومنزل خاله ببني وكلان فرقة أولاد بنيعقـوب من قبيلة بني منقـوش ، ووالدته حليمة شقيقة خاله المذكور المتوفاة بورطاس عام 1352هـ 1932م.

واحتضنته جدته المباشرة «امنة الوسعيدية مدة رضاعه ، وما توفيت حتى تعرف عليهـا كثيرا وسعـدت به كثيرا. ومـن العجيب أن يقول لي مرارا انه احبها أكثر مـن أمه الى حد الهيام بها. وذكـر لي من سماحة أخلاقها ما جعلني أحبها حب الوالدة وان لم أرها.

وحينما حججت به سنة 1974م سالته عما اذا كانت له رغبة في اعتمار عن أحد أقاربه فقال : « عـن جدتي امنة رضـي الله عنها ، ولا استطيع غير هذه العمرة بعد اعتماري عن نفسي لما ترى من ضعف صحتي وضعف بصري.

وبعد مدة الرضاع انتقل به أبوه وأمه الى العدوة الشرقية من عدوتي وادي ورطاس بالمكن المسمـى « تمليلـت » بضم التـاء وسكون الميم وكسر اللام الاول ، وسكون الثاني والتاء ـ ومعناها بالعربية : « البيضاء.

شيـوخـه القـــراء.

1 ـ والده : سيـدي البشير المولود حوالـي 1796 المتوفي حوالي سنة 1906 كان رحمه الله متوسط القامة أبيض اللون الى السمرة ليس في رأسه شعر ، يشق عليه النطـق بالراء ، فصيحـا بالشلحة منه بدارجة العربية ، يعلم كتاب الله العزيز ، منـذ حفظه ايـاه الـى وفاتـه يتلوه أناء الليل

وأطراف النهار ، تواما صوافا ، زاهداً ، وربما ختم القرآن عشرين مرة في الشهر ! وأقام ع‍لى ذلك مدة طويلة ، وكانت له كرامات كثيرة. هذه رواية أبي ، وأكدتها لي جدتي لأب فيما يخص غير ختم القرآن عشرين مرة ، ولكن روت لي انه كان لا يفتر عن تلاوته ، وانــه لا ينام الا قليلا أول الليل ، ثم يستيقظ للتهجد حتى صلاة الصبح ، ويذكر الله اثرها حتى تطلع الشمس. ويصلي سبحة الضحى وينام قليلا.

وروى لي والدي أن والده كــان على سنة والــده : « علي »في التعبد والاخلاق والزهد وعاش 125 عاما تقريبا.

2 ــ الفقيه السيد محمد بن يوسف الورطاسي جد السيد أحمد زوج أختي خضراء وله منها 12 ولدا ذكورا ولــم تنجــب انثي وكــان هذا الفقيه محمد بن يوسف من الصالحين رحمه الله..

3 ــ الفقيه السيد محمــد بن علي بن الحاج الكبداني الداودي وكان من عباد الله الصالحين..

4 ــ الفقيه السيد عبــد الوهاب الخالدي بفرقة بوعمالــة من بني خالد قيادة احفير ، وكان من أهل الخير والصلاح

5 ــ الفقيه السيد الطيب بن الحاج عبد القادر الجزائري الاصل ، بقبيلة « تيزي » من بني خالد المذكورين وكان شهيرا بالتقوى والصلاح وقد تعرفت عليه اذ زارني في بيتي رقم 21 بالمدرسة العنانية ودعا لي بادعية صالحة.

هؤلاء هم شيوخه القــراء بورش ، وكلهم من عبــاد الله الصالحين. أو ممن اشتهروا بالتقوى والصلاح.

زواجــه :

حينما كان عند شيخه الاخير توسط بــه والده في شأن الــزواج. قال أبي والدي فامتنعت لاني كنــت عازما على طلــب العلم الــذي ألهمت حبه الى حد الهيام ، غير إن طاعة شيخــه ووالده حالــت دون تحقيــق رغبته ، فاضمر في نفسه أن يكون ذلك في ذريته ، فتزوج من والدتي حلومة بنت القاضي السيد علي بن بنعبد الله اليعقوبي الذي هو خاله شقيق أمه في نفس الوقت، وذلك باقتراح من والدته المذكورة أي ان زوجته أمي بنت أخيها من زوجه : « الضاوية » الكرارية من عرب اهل انكاد وهم فرقة من الشراردة المنتسبة الى جعفر ابن أبي طالب على روايــة ، أو الى « حمير » اليمانييــن على

الرواية الثانية ، وقد أدركت جدتي هذه حتى بعد زواجي سنة 1939 وتوفيت بعد ذلك بقليل جدا وكانت من ذوات الفضل والخير عليها رضوان الله.
وبعد سنة ونصف على زواجه توفي والده عليه رحمات الله ورضوانه.

فلاحة وتجارة :

واشتغل أولا في فلاحة ارض خلفها له والده ، ولم تكن ذات خصب وانتاج كثيرين ثم اشتغل بالتجارة في الاسواق والفضل فيها عليه للسيد عمرو بن يوسف اليوسفي جزاء الله خيرا ، فهو الذي ساعده عليها الى ان كون رأس ماله .

لطيفة :

روى لي غير ما مرة انه سافر من ورطاس باكر ليلة الى « توفوغالت » وله حمار يحمل عليه سلعته ، فلما وصل الى منحدر غابوي يصل الى وادي زكزل اعترضه لصوص ، فسمع صوته رئيسهم وصاح : أنت ابن سيدي البشير ؟ فأجاب نعم ، أنا ابنه ، فقال الرئيس : خلوه وشأنه ، انه ابن سيدي البشير ، وقال له الرئيس : « انك حينما تقطع وادي زكزل ، ستجد هنالك فرقة أخرى لنا ، فأخبرها أنني اجرتك ، وانني في مكان كذا ، وفعلا صدقوه وتركوه وشأنه ، واسم هذا الرئيس : ميمون بن المقدم التغاسروتي العلاوي.

اللطيفة الثانية

لما توليت خطة العدالة بتافوغالت في 15 مارس 1939 دخل الى المحكمة الشرعية ميمون المذكور وقد بلغ من الكبر عتيا. ويعيش في بؤس قاس ، دخل لأداء شهادة من بين لفيف. فذكرني اسمه ما رواه لي أبي عنه فلما انتهى من أداء الشهادة وخرج ، تبعته وقلت له :

« يا خالي ميمون ، هل تعرف سي علي البشير اعبدي ؟ فأجاب : الله يا سيدي كيف لا أعرف ولي الله سيدي البشير ، وابنه علي ؟ فقلت له انني حفيد سيدي البشير من ابنه « علي » خذ مني هذه الهدية النقدية كاعتراف لما لك من فضل على أبي في القضية الفلانية ، أعني ليلة انقاذه من اللصوص ، اسمع ـ يا خالي ميمون ، أنا مدين لك لما قدمت لوالدي من يد بيضاء ولك علي أن أكرمك ما لقيتك، ويمكنك أن تزورني فى المحكمة كل أربعاء لأكرمك بما أستطيعه ، فذرفت عيناه وقال : « « جزاك الله خيرا وعفا الله عني ، وكان كلما زارني أكرمته.

اللطيفـة الثالثـة :

كان والدي في أول تجـارته يبيـع الزيـت في الأسواق فكني بذلك ، فكان يدعى : « أبو الزيـت » ولتعوده الزيادة علـى « المكيال » كني أيضا بأبي الزيادة ولشدة سمرته لقب سيدي علي ابركان ، وابركان هو الأسود.

نبت عنه مرة في محاسبة اليهودي : « احبيبو » الذي وجدته يتحاسب مع الفقيه الزيـات السيـد محمد بـن محمد فتحا الوكوتي ، يحسب الفقيه فيجد عشرة ريـال ، ويحسِب اليهـودي فيجد تسعة ! وكان اليهودي يعد المبلغ هكذا ، واحـد ، زوج ، اثنيـن ، ولذلـك ينقص ريال واحد من العشرة اذا حسب اليهودي ويكون المبلغ عشرة اذا حسب الفقيه ! وكان اليهودي يفعل ذلك مداعبة فقط ، لانـه كان أيضا فقيهـا متعبدا ابن فقيه متعبد وصهره متعبد ، فكان ـ لذلك ـ مشتهرا بصدق المعاملة.

فقال اليهودي للفقيه : لنؤخر حسابك ، ولنشتغل مع «ولد سي علي» ، وهو يعني أنا ، فلماأخذ في عد المبلغ قلـت له : تعد بالشلحة أم بالعربية ؟ لماذا تكرر : زوج.. اثنين.. ثلاثة ؟! فخـرج اليهودي من متجره وهو يصيح يا عباد الله.. سي علـي في السي علـي ، ولا ولـدو.. يقول ذلك متعجبا بذكائي فصارت سير المثل عند التجار متى زارني أحد منهم قال لي ما قاله اليهودي في شأني وشأن أبي.

اللطيفة الرابعة :

كان والدي يتركني كثيرا في متجـره ، ويرجـع الـى المنزل في وادي ورطاس وعمري دون العاشرة ، أظـل أبيع وأشتـري وأبيت في المتجر منفردا ، وكلما احتجت الى بضاعـة اقتنيتها من اليهودي « احبيبو » فتأكد اليهودي من « مهارتي التجاريـة » فقال لوالدي : سلم الـي ولدك لأفتح له متجرا على حسابي وأبرئك من كل ما عسى أن يقع فيه ولدك من أخطاء وخسارة ، فأجابه : « أريد لأبني العلـم ، وأما التجـارة فهي في متناولي » وبنفس الروح ، شكر والدي رجلا أشيـب من أولاد موسـى وامحمد عرض عليه « أهداء بنتـه لي » فوالدي رضـي الله عنـه كان لا يريـد لي الا أن أطلب العلم. ولا شيء عنده أفضل من العلم وانني متأكد انه لم يكن يتصور ماهية العلم ، ولا أهداف العلم ولا أثـره على نفسية صاحبـه ، الا تصور اجماليا ليس الا ، ولو كان يعلـم ان العلم يحول الانسـان الى حالة كثيرا ما تجعله غريبا حتى بين أهله وذويه ، لربما كان يتريث قليلا في ارسالي الى منابع العلم ، وعلى الاقل كان من الممكن أن يكون متوسط الحماس.

ولقد ظهرت لي أوليات تصوره للعلم في السنة الاولى التي التحقت فيها بمعهد وجدة ، فأول أثر لدراستي على نفسيتي وتجاوزه الى غيري ، ان كان لي والدي أول من اصطدمت معه في نقدي « للشيوخ » عموما. ولشيخه المرحوم سيدي محمد بن سليمان صاحب زاوية للمريدين لمدينة ندرومة بالقطر الجزائري خصوصا ، فغضب مني غضبا أدى به ان قال لي : « اذا كان العلم يعتدي على أولياء الله مثل سيدي محمد بن سليمان ، فخير لك أن لا تواصل طلبه ! » ولكن محبته للعلم من جهة ، ومحبته لي الخاصة من جهة ثانية ، ولطف أسلوبي الجدلي معه من جهة ثالثة ، ساعدني كل ذلك على اقناعه.

على أنني لم أكن اذ ذاك في مستوى علمي ذي أهمية لأنتقد الزوايا ورؤساءها ، ولكن « السلفية » شجعت ما أملكه من معارف بسيطة على « التعدى بانتقاد هذه التربية « الصوفية » الانطوائية الباعثة على حصر حياة الانسان في هذا الوجود في دائرة الاوراد والأناشيد والتواجد ، والرقص والشهقات والصيحات ، والاطراقات المصطنعة مع التمالىء — اجمالا — مع الغازي الغريب عن الدين والوطن ، فالرسالة الاسلامية تابى هذه « الرهبنة اذ هي موجهة الى الانسان لتذكره بما نسيه من الموثق الذي اشهد الله به على نفسه وهو في عالم الذرات ، « الست بربكم » ؟ قالوا بلى وحيث ان الانسان مادة وروح ، فالرسالة الاسلامية موجهة الى شقيه الملدي والروجي لتضعه على خطه الانساني المخلوق له. فلا هو بالمادي الصرف ، ولا هو بالروحاني الصرف ، ولكنه عوان بين ذلك ، وهذا هو الخط الطبيعي للانسان . ولذلك كان رسل الله الى الانسان من ذات عالم الانسان ثم ان «الزاوية» كانت تتناقض مع نفسها ، فبينما نجدها تشيد المنازل الفخمة ، وتستغل الاراضي الواسعة وتتمول مختلف الانعام ، وتغامر للتجارة ، بينما تقصر توجيهاتها للمريدين على الرهبنة ! انها بهذا الاطار المتناقض ، ترتدي مسوح الرهبنة الكنسية ! ثم توجت هذا التناقض بالتمالىء مع الغزاة الغرباء عن ديننا ووطننا .. فرؤساء الزوايا — اجمالا — يتصدرون الحفلات الرسمية للادارة الاجنبيية الغازية ، وتزدان «صدورهم بالاوسمة الصليبية ! ويقيمون المئادب الفاخرة لذوي السلطة من الغزاة !!!

بهذه التصويرات وامثالها ، اقتنع والدي بصائب نقدي للزوايا في عصرنا ، مع الاعتراف للزوايا برعاية شكلية العبادة والعقيدة على ما يلابسهما من طفيليات متنوعة.

الـى الوطنيـة الاستقلاليـة :

لم تكن الوطنية العامة بجديـدة على والدي ، ففـي عهد شبابه وعهد الغزو الفرنسي ، شـارك في النضـال بالنصيب الـذي وفقه الله اليه. ولما اتسعت آفاق الانبعـاث الوطني ، وشاهـد انغماري فيـه انغمارا كليا ، كان من دعاتها في دائرة أسلوبه الشخصي شان كثيرين ممن كانوا في سنه.

ففي حوادث غشت 1953 اعتقل مع شقيقي الحسين وسيقا الى معتقل عسكري بابركان ، بينما كانت شقيقتي الصافية تحت عملية الاستنطاق بمكتب الشرطة بابركان أيضا. وزوجها السيد أحمد بن البشير الروطاسي محكوم عليه بعامين سجنا منفذا ، وكاتبـه ، مبعد الى اقليم اكاديـر منذ 17 غشت 1952. ولم يبق في المنزل الا الوالـدة التي عـزم رئيس مكتب الدائرة على اعتقالها فحال رئيس الدائرة دون ذلك.

مـلازمتـه لمنزلـه :

والدي يبلغ الآن حوالـي 99 عاما وبعد أن توفيـت والدتي رحمها الله صباح الجمعة على الساعة الحاديـة عشرة ونصـف ثاني غشـت 1968م تزوج للمرة الثانية بالسيدة الخامسة الحضرية التي رافقته أواخر عام 1974 لأداء فريضة الحج وسنة العمرة ، ومعنـا جميعا السيد محمـد بن محمد بن أحمد بن علي ابن عمنا وزوج شقيقتي الكبرى آمنة ، وابنتي البكـر : خديجة ، وزوجها السيد عبد الوهاب الفاسي.

واولاد والدي وأحفاده يناهزون التسعين نسمـة ، وقد ضعف بصره جدا وان كان لما يزل يحتفظ بفكر متـزن ، وذاكـرة قوية جـدا. وبعد نظر، وله فيما ادخره الله له من موارد العيـش ما يفوق حاجياتـه ، متمنى الله بطول حياته ، وشمله بكامل العافية آمين. (1)

اولاده

1) فاطنة باكورته توفيت حوالي سنة 1910.
2) آمنة توفيت 19 جمادى الأولى 1406 30 يناير 1986
3) المؤلـف
4) الحسيـن
5) الوزنـة
6) خضـراء
7) رحمـة
8) الصافيـة

(1) راجع الجزء الثاني للمطرب في تاريخ شرق المغرب وفي اواخر صفحاته ، تجده انتقل الى عالم الخلود رحمه الله.

مقرىء الثاني

هو : السيد البكاي الورطاسي الطاهري ، كان « مشارطا » بمسجد ورطاس وكان يبدو ـ كما أتذكره الآن انه على وشك الستين عاما ، أو تجاوزها بقليل ، خالطه شيب ، شفته العليا أقصر من السفلى ، جاحظ العينين متوسط القامة ، في مشيه عرج ، قليل الابتسام.

اذكر ان زوجه : هي فاطمة التجينية ، وأذكر من أولاده : عبد القادر، والمنور وكلثوم « كان والدي يكرمه كثيرا ، كما كان الشيخ يجبني كثيرا ، وكنت لا الجئه الى محاباتي لانني كنت ذا حافظة قوية ، وذاكرة كذلك ، مع حرصي على الحضور للكتاب في الاوقات المطلوبة وقلما اعتذرت عن تأخير ما ، وبالرغم من وضعية والدي المادية المرتفعة فقد كنت دائما في خدمته.

احتطب له الحطب ، واحمله من الغابة على ظهري لمنزله ، وأنوب عنه في دورة رعاية أبقار الجماعة ، مع وضع نفسي رهن اشارته في كل كل خدمة يكلفني بأدائها.

وعلى هذا الشيخ الكريم أتممت حفظ كتاب الله العزيز ، وأقام الوالد لذلك حفلة شاملة استدعى لها سكان عدوتي وادي ورطاس باجمعهم ، والنساء يهزجن ويزجلن ، تماما كانت الحفلة مثل حفلات أعراسنا العمومية، وأهدى للفقيه هدية نقدية قدرها أربعة ريال.. وياما هي أربعة ريال !

لطيفة :

أثناء هذا الاحتفال رأيت في المنام ، ولأول مرة ، النبي صلى الله عليه وسلم في مجموعة قليلة من الناس ، لم أتعرف عليهم وكانت عليه جبة سوداء من ملف ، وفي يده راية ، في قبتها الزجاجية نور يتلألأ ، فسألته عن رقصات « الطائفة الدرقاوية ففهمت منه استنكارها ، وأثناء سؤالي له وقف لي ، وكان يمشي ، والتفت الي وهو يبتسم ، وتكررت هذه الرؤيا احدى وعشرين مرة أخرى الجميع 22 ونحن الان في عام 1398هـ 1978م وفي احداهن عام 1384هـ 1964م وفي ليلة أربعاء رأيته هكذا :

كان واقفا وعن يساره ثلاثة أشخاص فقال لي : أقدم اليك أبا بكر الصديق وهو الشخص الملاصق له من يساره وعبد الرحمان بن عوف الذي يلي أبا بكر ، وعمي الحارث فقلت في نفسي أثناء هذه الرؤيا : انه عبيدة ابن عمه الحرث وليس بعم له وانما قدمه الى عما له لكبر سنه ، وانه الذي توفي بجروحه أثناء مبارزته لعتبة بن ربيعة في غزوة بدر ثم قال

لي بعد التقديم ـ بشـرى ـ بشـرى.. وغـده الاربعاء وأوائل ليلة الخميس ولدت لي ابنة فسميتها بشرى.. وهي الآن في ثانوية عمر الخيام بالرباط. ومرة أخرى بعدها اشتريت كتاب حيـاة الصحابة في أربع مجلـدات لمحمد يوسف الكاندهلوي فلما تناولت طعام الغذاء آويت الى القيلولة.

وأخذت أقرأ في جزئه الاول وأنـا مسرور الـى أن أخذني النوم فرأيته صلى الله عليه وسلم في ثيـاب بيضاء، وبينما هـو واقف الى يميني وأنا أفسر آية القرآن ، او كنـت أتحدث في موضـوع واستدللـت عليه بآية قرآنية فقال لي : لا. انها الآيـة الفلانية وتلاهـا ولكن لم أحتفـظ لا بالآية التي تلوتها. ولا بالتي ردني اليها

لطيفـة ثانيـة :

رأيتفي منامي سيدنـا ابراهيـم عليـه الصلاة والسـلام وجماعة معه في حلقة وهو في الوسط والجميـع يمشون وهم يلبسـون أقمصة كقمصان السعوديين ، أما هو فكان يلبس اللباس الرسمي للملوك اليمانيين تماما.

فلما التقيت بهم قال لي بعضهم : هذا أبوك ابراهيم فبايعه ، ووقفوا ووقف معهم ونظر الي وهو يبتسم فقلت له : يا ابانا ابراهيم.. انى أخاف ان يغرر الشيطان بي فأبايعه فهل تسمح لي باختبار ؟ فأشار الي أن افعل ، فقلت أقرأ معي آية الكـرسـي : فما أخذ في قراءتها وهـو يبتسم حتى قلت له أبسط يدك ابايعك يا ابانا ابراهيم فبسـط يده فبايعته وواصلوا السير فاستيقظت مسرورا بهذه الرؤيا ، والرؤيا تسر ولا تغر كما قال الامام مالك رضي الله عنه.

نعم يظهر لي أن شيخي المذكور توفي أثناء حرب الريف.

الفقيـه السيـد محمـد المقـدم

الفقيه المرحوم بالله السيد محمد بن المقدم القصير ، متوسط القامة ، أبيض اللون. قليل شعر الرأس أزرق العينين كثير الاطراق ، قليل الكلام ، حيي ، يكتفـي بالابتسـام بعيد عـن الفضـول ، وقور ، مهاب ، عابد زاهد ، نظيف الثياب ، مدمن على تلاوة القرآن ، ينتسب لفرقة أولاد الحاج من فرق العذوتين ومن المجموعـة الورطاسية التحتانيـة وكان له ولدان معنا في الكتاب : عمرو وقد صار بعد استقلاليا معتـدلا. ومحمد من الاستقلاليين المتطرفين الهادئين حكم عليه في 16 غشـت 1953 بوجـدة بعشرين عاما من السجن وتحرر اثـر اعلان الاستقـلال ومـات في أوائـل عهده ثم التحق به أبوه وأخوه عليهم رحمات الله ورضوانه.

لازمت هذا الشيخ مقدار سنة كاملة ، وعليه ختمت أول ختمة قرآنية قبل ان آخذ عمن قبله في المرحلة الثانية وكنت ممن يخصهم بمحبته الخاصة لحسن سلوكي معه بين الاطفال ، ولجديتي في الحفظ والاستظهار ، لا سيما ووالدي رضي الله عنه على رأس لائحة من يكرمون القراء ماديا ومعنويا.

ومن رفقائي في الاخذ عنه السيد عبد السلام بن محمد بن الحاج بن محمد بن الطيب العمراوي الورطاسي المتقاعد الان من مهنة التعليم ، وكان لي خير رفيق لما وهبه الله من أخلاق فاضلة ، ودرتها الثمينة : لين كلامه ، وموطأ كنفه ، أحسن الله عاقبته ورحم والده الذي أنجبته بنت لسيدي « علي » جد والدي لأب.

الفقيه السيد التهامي

هو الفقيه السيد التهامي بن الفقيه السيد محمد بن قدور بن علي ، وفي « علي » هذا ، يلتقي مع والدي ، واخوة هذا الشيخ الرابع : « محمد » ضما بن محمد بن قدور « بن علي » وكنيته : « أبو الركب »وكانت تنطق بالشلحة وهذا هو والد محمد المبطاول ، وحماد ، البناء ، وأحمد ، وقدور ، ومن زوجته أم اولاده ، عائشة بنت أحمد بن قدور بن علي .و«محمد» ضما أيضا وكنيته أبو الجديين. وهذا هو والد المجاهد الصادق السيد العربي ابن بنت السيد ادريس اليعقوبي و« قدور » وسياتي انه من شيوخي ، فهم أربعة أخوة.

كان المترجم طويل القامة الى غاية الاحد يدأب ، أفوه ، أعين ، محوجب مهيب النظر ، عابدا زاهدا . أقسم اليمين مرارا انه ما اغتسل من حرام. بلغ النهاية في اتقان « ورش » أخذ عمن اشتهر بالتقوى والصلاح وله المام بضروريات المعرفة الاسلامية لتعبده. حاد الغضب لا يجادل في حالة غضبه ولا « يجادل » مبني للمجهول ، تزوج في أواخر كهولته بحليمة البويعلاوية وهي ثيب.

كنت من تلامذته أثناء الثورة الريفية لمحمد بن عبد الكريم ، وهو أول من بذر في روحي - قبل فكري - تجلة الجهاد والمجاهدين في سبيل الله ، فكان لا يستطيع ان يسمع خبر اي انهزام للمجاهدين الريفيين ، ومتى تعمد أحد اغضابه أخبره بانهزامهم ولو بحادث تافه ، وكان يقول لنا - معشر الاطفال - اذا انتصر الريفيون فالدنيا بخير قرأتم أم لم تقرأوا ، واذا غلبوا ، فلا خير في هذه الدنيا قرأتم أم لم تقرأوا ، وويل للأطفال من قضبانه يوم يقال له : أن الريفيين قد انهزموا ، وكان بعضهم يشفق

علينا فلا يخبره بأي انهزام. وحينما يخبره مخبر بانتصار ما ، يطلقها قهقهة عريضة بعرض شدقيه الواسعين : قهقهة هستيرية : جنونية. ضربني ذات مرة لتعثري في استظهار قوله تعالى : فلما جن عليه الخ سورة الانعام ، فمرضت يومين أو ثلاثة ، وحينما حضرته الوفاة قال لوالدتي رحم الله الجميع ، وكانت معه ساعة وفاته : يا حلومة انك ، وسي علي سامحتموني في ضرب ولدكم فأكدوا لي ذلك وأنا جاهز للسفر الى الله ومتى « بلغ » ولدكم فاستسمحوه لي ، فاني لا أذكر جريمة لي غيرها. ولا أخاف الله الا منها ! . مات قبل نهاية حرب الريف ، فسامحك الله ورحمك ورضي عنك أيها الرجل الصالح والشيخ الكريم ، واظنه عاش أكثر من الستين عاما بقليل أي انه ولد حوالي 1860م ».

الفقيه السيد عبد المومن

هو الفقيه المرحوم بالله السيد عبد المومن الورطاسي الطاسري كان طويل القامة معقوقفا محترما ، مهابا ، كثير الصمت ، كثير التلاوة ، قلما ابتسم. اذكر كانه في الستين ، تنقص أو تزيد قليلا في عهد حرب الريف لابن عبد الكريم.

ذكر من ولديه : «ميمون» ، «ومحمد فتحا» وكنت اذ ذاك مجيدا لحفظ القرآن الكريم وأواصل اجادته. فحدث لي معه أن كتب لي «وجرين بهم بريح طيبة» ، فبت كتبها او اصلحها لي هكذا : وجرينا ! فعارضته ، وغضب ، فاخبرت والدي بذلك ، فسألني عن رأيي فأجبته أريد أن انفصل عنه الى ابن عمنا السيد قدور المشارط في « جماعة ورطاس التحتية » ، فوافق على ذلك ، نعم أظنه مات بعد سنوات قليلة. فعليه رحمات الله ورضوانه وجزاء الله خير الجزاء.

الفقيه السيد قدور

هو الفقيه السيد قدور شقيق شيخي السابق المرحوم سيدي التهامي رحم الله الجميع ، أحسبه في ذلك العهد اجتاز في كهولته عشر سنوات أي انه كان في حدود الخمسين من عمره تقريبا ، وقد انتهت حرب الريف بقليل.ولعله توفي أثناء العقد الرابع من القرن العشرين،طويل القامة،عمه الشيب باكرا،في وجهه جدري أي أثر جدري خفيف ،مشرق الابتسامة اذا غلبه الضحك، طالت واسترسلت قهقهاته ، أنيق اللباس ، بسيطه ، ورع قنوع ، ماهر في تربية النحل بوراثة من أبيه. وكانت له عدة خلايا قبلة منزلة متصلة به، وله عدة أشجار من الخرنوب. وأحسب انه كان يملك ماعزا.

لطيفــة :

كنت جالسا مع شيخي الاتي بعد هذا : سيدي علي بن طالب في المكان المسمى في ورطاس بالمقطع ، تحت ظل شجرة تين ، قرب الماجل السفلي. وارجلنا في مجرى المـاء كما كان يحلـو لسيدي « علــي » المذكور أن نتسلى فاذا بالفقيه المرح الكريم المرحــوم سيدي عبد القــادر بن حمزة يحيينا في ابتسامة النبلاء ويقول : اتجلسان على مقربة من منزلي ولا تستضيفاني ؟ هل تعرفون انني بخيل ؟ حرام عليكما.. فأجابه سيدي « علي » : لا نريد طعاما في منزلك ، اذ كان يعــرف محبتي ومحبة والــدي له وكرم والدتي رضي الله عنها ، مع جودة صناعة الاطعمة وحبها لاهل الخير ،ويا ما أسعدها بي اذا ما أخبرتها بأنني استدعيت قراء الى المنزل ! فقلت لهما : اذا وصلت الى باب منزلنا فالتحقا بي ، وبعدما بشرت أمي بالضيوف الكرام جلست على حافة سطح منــزل جدتــي لأب لالا حليمة رضــي الله عنها ، وكنت اذ ذاك من طلبة معهد وجــدة ، وكان شيخــي هذا رحمه اللــه بين خلايا نحله يشتغل فيها فقلت له : يا عمي سيدي قدور.. هل تهدي لي عسلا وشهدا ؟ فقهقه كعادته قائلا : أن عمتك فاطمة يعني زوجه تكن لك محبة تكاد تشبه محبة امك لك حتــى ولو امتنعت أنــا ـ وذلك مستحيل ـ من اهداء العسل والشهد لك فانها ـ يعنــي زوجه ـ تهديك ذلك ، كنــت اشغله عمدا حتى لا يرى ضيفي : سيدي علــي وسيدي عبد القادر بــن حمزة ـ داخلين الى منزلي ، وحينما مـلأ صحنا عســلا وشهــدا ، قلــت له لا أرضى الا ان تضعه داخل بيتنا ففعل ، فلما رأى الضيفين قال : « الان عرفت سر طلبك مني أن اضع الصحن في البيت ، فانه كان استدعاء لي لتفاجئني بالضيفين.

ولكن يا عم ، ـ يعنيني أنــا ـ أنت فقيه ، وشقيقــك سي الحسين فقيه ، ووالدك فقيه ، فقل للسي عبد القادر بــن حمزة أن يعفينــا من تلاوة القرآن جماعيا الا مرة أو مرتين ، ودعنا نتمتع بصنوف الاطعمة والوان التسلية ، ولكن السيد عبد القادر بن حمــزة ما كان في منزل الا وافتتــح تلاوة القرآن حينا بعد حين ، أنها خلة ما كان ليتخلى عنها ، ولا سيما متى كثر الهذر والجدل في غير فائدة ، ومع ذلك ـ قضينــا ليلة بيضاء في نوادر وفكاهات غسلنا ذنوبها بالتلاوة الجماعية للقــرآن الكريــم مــن حين لآخر فرحمة الله عليهم جميعا ورضوانه ، واظنه مات أوائل الحرب العالمية الثانية أو قبلها بقليل ، والحرب كانت في شتمبر 1939

ـ السيد علي بن طالب ـ

هو السيد علي بن محمد بن طالب الورطاسي الطاهري ، كان ـ ولما يزل ـ يبدو لي كشبه اليقين انه في أوائل الكهولة أي في حدود الأربعين أو ما حولها من قريب ، قصير القامة ، الى التوسط ، غاير العينين ، في حدقتيه وقدة حادة ، لا يراجع متى غضب ، وما اعذبه والطفه والينه جانبا متى كان في حالة هدوئه ، صبورا على نوائب الفاقة وشظف العيش ، كتوما لاسراره وأسرار الناس ، أفصح بالشلحة منه بدارجة العربية ، غير مهتم بهندامه خفيف الحركة ، خفيف الظل ، ذا مغناطيس نفاذ الى القلوب ، يسر الدمع ، تعتريه قهقهة طويلة عريضة ، ثم يعود الى وجوم مطبق ، أخذ القرآن الكريم عن الشهيرين بالتقوى والمروءة ، يعود المرضى بادمان ، يصلح بين ذات البين ، وجيها عند سكان العدوتين ، وذلك من أهم أسرار نجاحه في التأليف بين القلوب المتنافرة ، وما استطاع أحد ممن أخذت عنهم من الفقهاء أن يسخر نفسه لتخفيف حدة التوتر التي تلتهب مرة.. مرة ، بين أهل وادي ورطاس مثله ، فقد وهبه الله مرونة عجيبة ، فاذا ما كان في مهمة اصلاح ذات البين ، فانه يستطيع أن ينتقل الى هنا وهناك ، ويتناول من طعام كل من تنقل اليهم تناولا لا يشك صاحب المنزل في انه مقبل على طعامه في شهية تامة ، في حين انه لا يعدو أن يجول فيه جولات خفيفة.

السيد علي لمجذوب :

هكذا كان يلقب ، وسبب ذلك ، انه كان مصابا في توازن عقله الى حد الخطورة بفقدان وعيه ، وسرى اليه ذلك بدخوله الى « الخلوة » فلقد كان مريدا للشيخ محمد الهبري صاحب زاوية درقاوة عندنا ، ولهذا الشيخ « خلوة » يأذن فيها لمن طلبها منه ، وهي عبارة عن « أوراد » ينفرد المريد بتلاوتها وحده الى « سهرة » فراشه الارض وغطاءه السماء لا يتناول الطعام الا قليلا ،ومن الاطعمة في آخر دركة ماهيتها طعما ولونا ، وان يكثر بترداد اسم الجلالة وذلك « ليفتح الله بصيرته » فيرى الأنوار والأسرار العجيبة ، ولن يمضي أسبوع غالبا حتى يفقد صاحب «الخلوة» توازن عقله ، فيأخذ بكلام أشبه باللغز ، وتبدو عليه اكتشافات غريبة ، ثم يأخذ في تيه يذهب ويروح بدون وجهة.

فكان شيخنا هذا يقطع وادي ورطاس في سرعة عجيبة ، وهو يهذي بكلام معظمه غير مفهوم للعموم ، ولا يتسم بأي تنسيق أو انسجام ،

وحينما يمارس « الحضرة » رقــص خاص معروف يخــرج تارة من « حلقة الحضرة » ويأخذ في شم بعض الناس وتسمعه يقول لمن يشمه : لم تدخل المسجد وأنت جنب ؟ لم لم تصل ؟ ولماذا أنــت تعتدي على حرمات الناس ؟ وقد يصادف الواقع ، ولذلك يهرب الناس منه حين يرونه في هذه الحالة ، مخافة كشف أسرارهم أمام الناس ؛ ومتى رجع الى طبيعته وقيل له : قلت لفلان كذا وكذا ، بكى واستعبر ، وطلب السماح منهم قائلا لا تهتموا بما قلت لكم فاني كنت فاقد الوعي. وحينمــا استرد عقله بالجملة ، كلفته الجماعة بالكتاب القرآني ، وكــان أول فقيه أمر أطفالــه بالصلاة. فهو الذي علمنا ـ في الكتــاب الوضوء والصلاة بصفة عمليــة ، وكان متوسطا في عقابه للمنحرفين مــن أطفال الكتــاب ، أما أنا شخصيــا ـ فقد كنت فرغت من اجادة حفظ القرآن الكريم ، وكان يخصني بتقدير لا يخص به أحدا.

زواجــه :

تزوج حوالي سنة 1931 يوم كنت طالبا بمعهد وجده ، وذلك من الآنسة « رحمة » فيما أذكر ، وهي من كرائــم الفتيــات واحدى بنات المرحوم السيد محمد بن علي بــن يوسف الكبيــر الورطاسي. فهنأته برسالة بعثت اليه بها من وجدة فيها بقولي :

« لقد بلغني أنك استعملــت الحناء فــي يدك وقــت عرسك وهي حرام على الرجال ، وذيلت قولي بهاتين البيتين :

وتحرم الحناء على الرجــال * في اليد والرجل فخــذ مثالي

ذكره يوســف لابــن عمــرا * على الرسالة ، فطالعه ترا

ولما رجعت الى المنزل في رخصة ، قال لي وصلتني رسالتك ، وشكرا ، انظر الى كف يدي ففيه دائرة من الحناء ، أرغمت عليها

تــواضعــه :

كان رحمه الله اذا سئل عــن مسألــة فقهيــة بمحضــري يقول للسائل : اسأل هذا ويشير الى ، اما أنا ، يقــول شيخــي رحمه الله فما عندي الا علم « الكانون » ويقولها بالشلحة ويعنــي بعلم الكانون مــا تعلمه على بعض الفقهاء من مبادىء فقهية بسيطة ،وفي مكان قريب كقرب الكانون من صاحب المنزل ، على عكــس : علمي ، فانني رحلت اليه الى مكــان بعيد وبعد مكان العلم يدل على أهمية علم أهله ، لان الانســان العاقــل لا يشد الرحال الا لذي أهمية.

خفة ظله :.

لقد وجدتني منذ بلغت اشدى استأنس بذوي الظلال الخفيفة والأخلاق المرحة ، وانفر من ذوي « الظلال » الثقيلة ، والاخلاق المنقبضة ، والتصرفات الملتوية ، والمبالغات في التأدب ، مع كراهيتي للفخورين ، ومخالطة البخلاء وقساوة اطعمتهم على معدتي ، وثقلها على قلبي ، سيما حينما حفظت هذا الحديث النبوي الكريم :

(طعام البخيل داء) الى نفوري من العامة الذين لا أخالطهم الا لضرورة قاهرة ، أو حينما اشعر بقسط مهم مما أكرم الله به بعضهم من مشاعر واحساسات فطرية ، الى نفوري المتزايد من الأغنياء وذوي السلطة الذين من شأنهم الاعتزاز بمالهم من مال وجاه أو نفوذ

وشيخي هذا رحمه الله كان خفيف الظل ، سريع الادراك ، له طاقة على استبطان ما وراء ستائر القلوب ، دقيق الملاحظة ، يفهم لادنى اشارة . يعالج أموره اول وهلة بلطف محبوب ، فاذا يئس من وسيلة اللين والملاطفة انقلب أسدا جريحا ، وربما تثور في نفسه أيام « الخلوة » فتراه في ثورة عارمة ، ويعمد الى استعمال منتهى الصراحة مع محاوره وله عضلات تساعده على التوصل بالعنف الى هدفه ان اقتضى الحال.

ولمحبته الخاصة لي كان يقبل استدعائي له الى منزلي لأول ايماءة وفي بعض الاحيان كان يستدعي نفسه الى منزلي لتأكده من محبة أسرتي له عموما ، ومحبتي له خصوصا .

آه لو كنت شابا :.

حينما التحقت بمعهد وجدة وكان منزلنا لما يزل في ورداس كان رحمه الله يبادر الى زيارتي ويقول لي آه لو كنت شابا « لو كنت كذلك ما كان أبوك ليبخل علي بالنفقة لطلب العلم برفقتك » ويكرر ذلك كلما استمع الي وأنا أملي بعض ما درسته من فقهيات على الخصوص ، وتارة يضع يده على يدي ويضغط عليها قائلا : لقد ضاع عمري اذ لم أكن رفيقك في طلب العلم ثم يزيد ، العلم يا سيدي قدور ما احلاه وأكرمه ، نحن نعيش بدونه في ظلام ، ولو أنك كنت في مثل سني ، ومتعارفين ، لما دخلت « الخلوة » فلا شك انك كنت تحول بيني وبينها . ما فائدة هذه الخلوة التي قضت على توازن عقلي ؟ العلم.. العلم.. يا سيدي قدور فاخفف عنه قائلا : ان هذه الزوايا وان كانت بعيدة عن الخط الاسلامي الذي هو عقيدة وعمل ، فان فيها خيرا كثيرا ، المحافظة على الصلاة وكثرة تلاوة الأوراد ، احترام

ذوي العلم ، وآل البيت ، وتوقير ذوي السن ، الى كثير من الأخلاق الفاضلة ، ولكن عيوبها يا الفقيه ، ان بعض المشرفيين عيلها عامة لا علم لهم ! وهم مثل من لهم علم ويتمالئون مع الغزاة باسم الدين ، وعلى حساب المسلمين ، محافظة على مكانتهم بين الناس الغافلين والانتهازيين ، وأواصل معه مثل هذا الاسلوب السلفي الذي كان يملك علينا عقولنا وإحساسنا في عهد فجر السلفية ،كل ذلك وهو ينصت الي في خماس واقتناع ثم يقول ـ ويضغط على يدي العلم.. العلم.. يا سيدي قدور ولا شيء غيره.

الـوفـــاة :

توفي رحمه الله اما في أواخر سنة 1956 أو في أوائل سنة 1957 وكنت قائدا ممتازا بابركان وتنقلت الى ورطاس حيث صليت عليه وحضرت في ورى التراب عليه فرحمة الله عليه ورضوانه ، وأظنه عاش ستين عاما تزيد أو تنقص قليلا.

الفقيـه السيـد أمحمـد

هو السيد محمد فتحا بن أحمد بن قدور بن علي وفي هذا الأخير يجتمع مع والدي شيخي ، هذا لايزال حيا الآن 1398هـ 1978م وهو ما بين الثمانين والتسعين من عمره فيما أخرص ، مد من على تلاوة القرآن الكريم عابد قنوع أبي النفس ، متجمل في الضراء ، صابر في البأساء ، ثابت الجنان ، وبالجملة فقد وهبه الله أخلاقا كريمة.

تلمذتي له مختصرة في استظهار القرآن الكريم عليه في بعض أيام العطلة ، ومراجعة لوحتي في بعض الأحيان ، واحترمه وأحبه وأكرمه جهد المستطاع ويحبني محبة صادقة فجزاه الله خيرا وحفظ له صحته في كامل العافية آمين.



الفـقيـه السيـد البشيـر

هو البشير بن قدور بن محمد فتحا وهـذا أخو « علي » جد والدي لأب ، طويل ، جميل ، أنيق له دراسة علمية ما ، الى اجادته حفظ القرآن الكريم ، كان يلقب بالعروس ـ لاناقته » أظنه في شبه اليقين ، ولد 1300هـ ولما يزل على قيد الحياة يعاني منذ خمس سنوات مما يشبه الشلل ، صبور ، ذكي لاذع النكتة ، وتلمذتي له تنحصر فـي مراجعـة لو حتى القرآنية في بعض الأحيان جعل الله مرضه مغفرة وطهارة وضاعف صبره وتجلده ، آمين.

الفقيه السيد أحمد بن عبد القادر

هو الفقيه العالم السيـد أحمد بـن عبـد القادر الكبداني الزخنيني من « كبدانة » الذين على ضفة ملويـة السفلى مشـرع « قربـاشة » من ملحقة « السعيدية » دائرة ابركان.

بعد ان حفظ وأجاد رسم القرآن الكريم رحل الى فاس لطالب العلم في كلية القرويين وحال فقر والـده دون متابعـة دروسه هالك ، ورجع بشيء ما من المعارف كما أتصـوره الآن وطلـب منـه سكان « البرج » رأس الماء أن يقوم بتعليم أطفالهم القرآن الكريم الى مراجعة ألواح الطلبة المسافرين. كان طويل القامة ، نحيف الجسم ، أبيض اللون وقورا مهابا ، قليل الكلام ، ويكتفي بالابتسام بح الصوت فـي رقة موسيقية ، بعيدا عن الفضول ، متصلا بالله باستمـرار : تلاوة قـرآن ، وذكر وعبادة قنوعـا ، قليل تناول الطعام ، وكانـت رحلتي اليه في شوال عـام 1347 الموافق حوالي سنة 1928م وهي أول رحلـة الى خارج ابركـان وهـو أول شيخ لي أخذت عنه القرآن الكريم بمراجعة لوحتي مع شرحه لبعض أبواب منظومة سيدي عبد الواحد بن عاشر الفاسي الأندلسي وكـان يكتفي لنـا بشرح ظاهر المتن باختصار.

ورفيقي في هذه الرحلة السيد بولنوار بن محمد ضما بن قدور اليتيم الورطاسي الطاهري ، وأثناء سفرنا راجلين بتنا عند السيد محمد بوعنان الكبداني الزخنيني ،وأكرم مثوانا خير اكرام ، وكان يسكن في منزل والده قرب « مشرع قرباشة » من الشقة الموالية من ملوية لابركان ، وصباح الغد واصلنا سيرنا الى «البرج » وقد تكون المسافة التي قطعناها راجلين أربعين كلم. ولم يزد مقامنا هنالك على شهر ونصفه ورجعنا كما ذهبنا بالمبيت عند السيد بوعنان المذكور الشهير بالجرأة والاقدام والمغامرات وكرم المائدة شأن أبيه الذي كان قائدا على هذه الفرقة من كبدانة ، فأسرته منبت البطولة والاقدام واطعام الطعام مع لطافة عجيبة وذكاء وسرعة ادراك ومهارة في المغامرات واكتساب الاصدقاء والأنصار من ذوي الجاه والعلم والبطولة والكرم ، مع الاحتفاظ بالشباب الى الشيخوخة بل الى منتهاها فالسيد محمد بوعنان لايزال الان حيا ، وهو يشارف التسعين ، وتحسبه دون الستين عاما ، تزوج أكثر من مرة وسجن ونفي ثلاث عشرة سنة ، وفي منفاه ، لا يصدق من رآه انه في غربة اجبارية وانه امتحن امتحانا شديدا أثناء الاستنطاقات الشرطية ! انه ساخر بنوائب الدهر صبور على الأذى ، دائم الابتسام مومن بنفسه لا تزحزحه الزعازع ، فصيح الكلام قوي الحجة حاضر البديهة في شخصيته مغناطيس ، مهاب جذاب لا يشك أحد في انه من أبناء الأجواد ، فأصالة الأسرة بادية على ملامحه ، غامض لا تعرف ماذا وراء ستائر نفسه ، لا يومن بالمشاكل ، فالحلول حاضرة في كل مشكلة ، والى ذلك محافظة عجيبة على صلواته ، مع كثرة النوافل والأوراد ، وقلما كان على غير وضوء ، والخلاصة أن السيد محمد بوعنان عبقرية عجيبة وشخصية غريبة الاطوار ، لا يكاد الانسان يتعرف عليه حتى ينجذب مرغما على احترامه وتقديره على الأقل نعم بلغني فيما أذكر ان شيخنا مارس خطة العدالة من بعد وأجهل تاريخ وفاته ولا أظن انه عاش الى أول تاريخ الحرب العالمية الثانية 1939م ما أظنه الا انه توفي دونها بضع سنوات فرحمه الله عليه ورضوانه.

الفقيه السيد عبد السلام البقال

الفقيه السيد عبد السلام المترجم توفي عام 1399 فاتح سنة 1979 وكان يبدو لي في حوالي سنة 1347 هـ الموافق سنة 1928م التي كانت مبدأ الأخذ عنه ، كان يبدو لي ما بين الاربعين والخمسين سنة من عمره ، متوسط القامة في وجهه آثار جدري مائل الى الشقرة ، في نظراته حدة ، حيي زاهد ، وروع ، متواضع ، قليل الكلام ، يكتفي بالابتسام ، يضع أصابعه على فمه اذا ما اتسعت ابتسامته ، لا يعتمد على مكافأة مشارطته ،

حيث يفلح ماله من ارض قليلـة بيده ، حرثا وحصـادا لا يطالب أحدا من الجماعة بما التزم به من شرط ، وانما يكل الناس الى ضمائرهم ، يتصدق على بعض الاطفال من كتابه بما أتوا به من « حق الاربعاء وقد رأيته بعيني، مدمنا على تلاوة القرآن الكريم ، ليـن الكنف مسالما لا يماري ، ومتى نوقش قال سلاما ، والخلاصة انه مـن طبقة الاخيار الذين تـزدان بهم القبائل والشعوب ، وقد أدى فريضـة الحج وسنـة العمـرة منذ سنتين على نفقه السيد عبد القادر بـن أحمد الهفتي الشهيـر , بافرانكو » الذي هو الآن من رجال الصناعة والاقتصـاد في الـدار البيضـاء فهنـيئا له بهذه المبرة وجزاه الله خيرا.

والمترجم كان , مشارطا » في قبيلـة رسـلان ، وجماعته : « حركات » من بني وريمش تافوغالت , ومنزله ملتصق بالمسجد شمالا » للمسجد « جب » منه يشرب ويتوضأ الطلبة .

وبلغ عدد الطلبة في تلك الفترة 23 طالبا أربعة منهم هم الذين يحفظون القرآن الكريم : «كاتبه» وهو أصغرهـم سنا على الاطـلاق ، والسيد المهدي الموساوي ، الطالب الذي كان مضرب المثل في الحياء والسيد محمد الغاسروتي الغرافي ولا يقل مروءة عن صاحبه ، والمرحـوم السيد ادريس بن عبد القادر البرحيلي الذي ترجمـت له في كتابي ذكريـات الدراسـة في فاس ، ورقمه في الخزانة العامـة قسـم المطبوعـات 7771 21 يونيـه سنة 1977م فراجعها هنالك.

وقد لازمت الشيخ سنة ونصفا للاجادة وشرح متن ابن عاشر فقط فجزى الله شيخنا خير الجزاء آمين.

عمي لأب المرحـوم السيد محمد بن البشير

كان هذا الشيخ العم قصير القامة نحيفا غائر العينين منطويا على نفسه الا بمقدار ذ ينشرح صدره للنكتة واذا مـا راقه جو مجلسه يتوسع في انسه البريء ، ويبتسم ، وقد يضحك كثيرا ، تـزوج السيدة خديجة بنت الفقير على الخرخشي وله منها أولاد اسماعيـل ، وعبد القادر ، يحفظـان كتاب الله العزيز وفاطمة وعائشة وسكينة.

وكان رحمه الله يزور والـدي كثيـرا ويكرمه كثيـرا وكانت والدتي بالخصوص تقدره أخلص تقدير فـلا تألو جهدا في ذلـك مهما طالت مدة زيارته ، دائما تلتمس منه دعوات الخير ، حيث انه كان ممن اشتهر بالخير والصلاح وكان يسكن فـي جماعة « حركـات»المذكورة الى ان رحل بنفسه

فقط الى القطر الجزائري للتعليم وهنالك توفي ودفن حوالي سنة 1948م ولعل ذلك وقع في « تموشنت » أو « الرمشي » ونعاه الى أولا ، المرحوم السيد بنعبد الله البكاوي زوج أختي الوازنة. وذلك بين عشائي ذات يوم في التاريخ المذكور مازلت أذكر أنني قلت له : فهلا كتمت النعي الى الغد ، وتريح جفوننا وقلوبنا هذه الليلة ؟ فابتسم رحمه الله قائلا : هذا ما عرفت، ولم أخبر والدي ولا أحدا من أسرتي تلك الليلة الا عندما ارتفعت الشمس ، حيث عزيت والدي فجزاه الله خيرا ورحمه الله ورضي عنه آمين.

الفقيه السيد محمد الأزعر البكاوي

الفقيه السيد محمد الازعر البكاوي ـ نسبه الى جده الأعلى المستوطن بني يزناسن « واسمه (علي البكاء) والعامة تقول البكاي ، يروى بتواتر بأنه كان من البكائين من خشية الله كما كانت جماعة بالعراق يدعون بالبكائين ، وهو من هذه الطبقة على ذمة تواتر روايات العامة.

وسيدي علي البكاء هو صاحب القبة في اجدير من بني وكلان :

قبيلة بني منقوش وهو في سلسلة نسبي لأب : ابن اخي جدي : سيدي رابح ، هاجر به من الساقية الحمراء الى أن استقر به في قبيلة الزكارة من ملحقة العيون باقليم وجدة ويظهر انه بعد وفاة عمه هنالك ، انتقل الى بني وكلان حيث توفي هنالك ، وعلى أي حال فمترجمنا من ذريه سيدي علي البكاء بالتواتر الى الآن.

كان المترجم اشقى ، قصير القامة ، عصبيا حاد الطبع ، يحترم نفسه بالمحافظة على سنة وقار المقرئين وله قيمة ونفوذ بين أسرته الكبرى وبين جماعة بني وكلان « أجدير » هذه الجماعة ذات الكرم الحاتمي واللطافة ومحبة أهل العلم والقرآن والخير والصلاح. والتي صارت في عهد الكفاح الوطني بمرحلتيه السلمية والمسلحة ، انها صارت من النماذيج الطيبة الشهيرة اذ كانت « نشرة الحزب الاسبوعية » تدرس في المسجد بعدقراءةالحزب عقب صلاة المغرب وقد درستها لهم بنفسي وشيخ القبيلة ومقدمها معنا في المسجد ، ولم يحدث مثل هذا في اي جماعة من بني يزناسن واسم الشيخ : الفقيه السيد محمد بن علي الكدان بشد الدال والمقدم من أبناء محمد اعراب وقد صارا الى عفو الله فعليهم رضوان الله ، لازمت الشيخ بقصد الأخذ عنه تبركا ليس الا ، فلقد كنت أجيد القرآن الكريم والمولى يوسف بن الحسن الاول لما يزل على عرشه وانما كانت هنالك سنة تنويع الأخذ عن المقرئين ليس الا.

لازمته قرابة أربعة أشهر حوالي عـام 1349هـ 1930م تقريبا فعليه رحمات الله ورضوانه.

ومن أبنائه الشاب النضالي السيد أحمد زوج زبيدة بنت شقيقتي الوزانة وصديقي المرحوم الفقيه سيدي بنعبد الله البكاوي أي من نفس أسرة المترجم المتوفي على السابعة صباح ثاني يوم عيد النحر واليوم أربعاء تاريخ 1397هـ ودفن بابركان بمقبرة كدية مولاي الطيب في يوم مطير وهو يوم الخميس الموالي لوفاته بعـد مرض مزمـن دام خمسة أعوام فرحمك الله أيها الصهر الصديق في السراء والضراء وبارك في ايمـك شقيقتي وسائر ذريتك. المصطفى عبد الحميد ومحمـد الناصر ونزيهـة ولطيفة آمين. وهذا آخر فقيه قرآني أخذت عنه.

أما السيد علي العروسي رحمه الله فقد أخـذت عنه مبادىء القواعد النحوية والفقه والفرائض في مسجـد سيدي موسـى بني منقوش بالمحل المسمى : « الطرشة » وقدتحدثت عنه في كتابي : « ذكريات الدراسة في فاس » الذي توجد أربع نسخ منه تحت رقم : 7772 تاريـخ 21 يونيه 1977م بالخزانة العامة بالرباط قسم المطبوعات وفي ذلك كفاية.



والـــدة المـؤلـف

قد يتساءل القارىء عن مناسبة ترجمتي لوالدتي مع المقرئين الذين أخذت عنهم كتاب الله العزيز ، يتساءل هـل هي من عـداد المقرئين ؟ اذن فالمناسبة طبيعية. أم أنها ليست كذلك فأي داع لترجمتها هنا ؟!

أم أنها لمجرد انها والدة المؤلف ؟ فمـا كل مؤلف ترجم لوالدته ؟ أم أنها كانت أهم عناصر مساعديه على الدراسة ؟ فكل الوالدات كذلك. فأي والدة لم تساعد أولادها ؟ الحقيقة ان والدتـي رحمها الله كانـت أمية صرفة ، وأنها في الظاهر كشكل كل والدة ، اما في الباطن ، فانها من غرائب الوالدات !

ثم انني من المغرمين بوالدتي الـى حدود الهيـام عاطفيا ، ومن الذين تذوقوا معنى الوالدة شرعا. ومـن المومنين الصادقـي الايمان بحبي لها

وبمعرفتي وايماني يحقها علــي ، وبالرغــم من كل مــا قدمته لها من خدمات وما أعربت لها عنه من حب صميــم صادق وبالرغــم عن أنها شملتني بحبها الخالص الى حد الهيــام وخصتني بما لم يمارنــي فيه أحد من الأخوة من أساليب الرضى عني ـالمتنوعة زمانــا ومكانــا وتعبيرا ، فاني أشعر دائما بالتقصير في حقها ، فلقد كانت لي والــدة كريمة معي كريمة مع ضيوفي ، وأنا لم أبلغ اشدى. اذا أرقــت ، أرقــت لي ، وسرــوري ، سرورها وألمي ألمها ، وفوق ذلك فلقد استفدت ولما أزل من توجيهاتهــا الصائبة ، وحكمها الخالدة ، ونظراتها البعيــدة ، فهي في الحقيقة والــدة وأستاذة حتى في عهد تقدمي في دراساتي وتجارب الحياة ، فلقد كنت أجد عندها الكثير من الحكم والعزاء والسلوى وشد الازر وتقوية الارادة ووسائــل التوعية الصادقة والثبات على المبادىء الطيبة والاستهانــة بكل تضحيــة في سبيلها ، كل ذلك كنت أجده فيها وأكثر منه ، مضافا الى ذلك ما كنت أراه من برورها بوالدي ايما برور ، الى تعبدها المتنوع ، والابتعاد عن كل ما يمس كرامتها ، انك يا أماه كنت روحا طاهرة ، وقلبا واعيا ،وحياء عاليا ، وسموا نموذجيا، ووالدة رؤفة وزوجة طائعة مرضيــة ، وأختا لاخوتــك وأخواتك ، نبيلة ، وجارة محبوبة ، وبساطة كبساطة الطفولة البريئة وذكاء عجيبا ، وشعورا مرهفا ، وبلسما الهيا شافيــا أفلا تستحقيــن مني ان أنشيء لك عمرا ثانيا بترجمتك في هذا الكتاب الذي أترجم فيه لأهل القرآن والشريعة الاسلامية وهم من ذوي الخير والصلاح ؟ والله يــا أمهاه لو استطعت أن أفعل أكثر من : 1) ترجمتك و2) الدعاء لك أثر كل صلاتي غداة وعشيا 4) والتصدق عليك مدى حياتي 5) وختم ختمتيــن من القرآن في سبيلك بمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام 6) وتحبيس مصحفيــن كريمين لــك في نفس المسجد 7) والاعتمار عنك مرتين 8) والحج عنك مرة واحدة ، فاذا تمكنت من أكثر من هذه الاعمال الثمانية ، فسأفعــل كل ما تصــل اليه يدي في سبيلك والله يعلم انني حبست نفسي في غرفة من غرف فندق بباريز في رمضان 1973م حتى ختمت ختمة من القرآن في سبيلك ودموعي عليك تتخلل التلاوة ، وتلك يا أماه من أسعد وأخلــد ذكرياتي في باريز ، بينما الناس يتساقطون كالذباب على عفونات الحياة الدنيا وأنا أشعر بفيوضات الله تغمرني وتملأ قلبي نورا وانسا باللــه خلال تلاوتي لكتابــه داعيــا لك بالرضى والغفران.

« أماه.. مجالسك الطيبة ، وأحاديثك الربانية ، وبسماتك الطاهرة ، ونظراتك المحنونة ، ودعواتك النافذة ، ومحبتك الصادقة كل ذلك يا أماه ، وأكثر من أن يحصى ، قــد ودعته بــوداعك ، وشعــرت بغربة قاسية من بعد وفاتك ، فلله ما أطيبك وأحلاك ! وأعذب أحاديثك في قلبي ! فلك الله ، وعلي عهد الله أن لا أنساك بما يضاعف من رضوان الله عليك ما دمت حيا » .

ولادتها وأسرتها :

ولدت في العقد الاخير من القرن التاسع عشر الميلادي فيما يقرب من الواقع،وهي حلومة بنت المغفور لـه الفقيـه القاضـي سيدي علـي بن بنعبد الله القاضي أيضا الى المولى عبدالله بن ادريس ، وتعرف أسرتها بأولاد بنيعقوب ولاحد جدودها : محمد بن يعقوب ، قبة الى جانب جامـع الخميس بأولاد بنيعقوب ووالدها كان قاضيا ببني يزناسن بظهير شريف من المولى الحسن الأول.

أمـا جدهـا سيـدي : بنـعبـد الله فقـد حدثنـي جـدتـي لأب المرحومة للا حليمة بنـت جد أمـي لأب انه كان قاضيـا لا يأخذ عن قضائه أجرة ولا مكافأة فكان في موسم الحرث يمـارس حرث ارضه « لعراصي » بيده ، حتى اذا ما جاءه متداعيـان فصل بينهمـا وواصل حرث ارضه بيده أعني بواسطة دوابه..وحسبه هذه المبرة لنعرف ماذا وراء ذلك من تواضع ونسك وأخلاق رائعة ، فعليه رحمات الله ورضوانه.

أما والدتها وقد أدركتهـا بالغا اشـدى ـ فانها «الضاويـة » من فرقة ، أولاد بن الكراري ، مـن عرب انكاد وهـذه الفرقـة مـن الشراردة اليمنيين أو الجعفريين حسب الروايتين في الاستقصا ولقد كانت والدتها « الضاوية » ضاوية في منتهى المروءة

زواجهـا بـوالـدي :

كان ذلك حوالي 1905م في حياة جدي لأب سيدي البشير رحمه الله. وعاش جدي لاب بعد زواجها عاما ونصفا كما روى لي والدي رضي الله عنه.

ايثـارهـا :

كان والدي رضي الله عنه ضعيف مورد العيش،يقتصر في ذلك ـ مرغما. على حرث قطعة ارض بورية تسمى (الامحـال) هي الآن من جملـة مدينة ابركان ، ورثها من والده ، وحيث ان الأمـطار نادرة فـي تلك الناحية الى الآن. فقد كان محصولها ضعيفا جدا ،والى جانب ذلك فان قلة المواصلات كانت منشأ أزمـة خانقة فـي أسـواق الأطعمـة ، فكـان المـواطنون هنالك يعانون من البؤس والفاقة مالا يوصف.

أخبرني والدي مرارا ـ بأنه شد الرحال مشيا على رجليه الى الغزوات لاقتناء بضعة مكايـل من الشعيـر المعـروض في اسـواق الغزوات وهي على بعد من ورطاس ما يزيد على المائة كلم ! وفي هذه الحالة المدقعة ،كانت توثره بالطعام عموما ، وبأطيبه خصوصا ، وتطوى يومها وليلها ولا تشعره بذلك ! قلت لها وهي تتحدث لي عن هذه الظروف ـ لم توثربيه الى هذا الحد غير المعقول؟!

فقالت : ان والـدك يا بني قلما تنـاول الطعام في سفره محافظة على نقوده ليقتني لنا طعاما أو ثيابا ! وطبيعته تساعده على طي الايام والليالي جوعا ! فقد حفظه الله من طـبيعة الشره. لا سيمـا وقد ألف طعامي فلا يشتهي أقل منه ! مضافا الى ذلك ، انه تأبـى عليه كرامته أن يأكل في الاسواق ، وهو فقيه شريف النسب وابن جدك سيدي البشير الذي كان يطوى الايام والليالي وهـو صوام قـوام ثم زادت : انني يا بني أعجب لبنات اليوم يأكلن مع أزواجهن يدا بيد ! فكيف يشتهي الزوج زوجته وهي تلتهم الطعام أمامه التهاما ! ثم زادت قائلة : كنت أعتقد يا بني ان الرجل أولى بالطعام وبجيـده لأن الله فضله علـى المرأة ، وللمـرأة أن تتناول ما فضل عنه والا فيكفيها أن تتناول الخبز مع الشاي ان كان أو مع الماء القراح. فأنا ـ يا بني ـ أقابل أيضا ايثار والدك لنا بالايثار ، فقلتلها أنها خلال والدتك الضاوية هكذا حدثـت عنها في حياة زوجهـا وهكذا أراها حينما تزورنا فهي توثرنا على نفسها « فكيس الأم أكيس للبنين ».

قلت ان والدتي كانت صادقة فيمـا نسبته لوالـدي من طي الايام جوعا للأسباب التي ذكرتها أو بعضها وحينمـا يعـود الـى المنزل كان يأكل أكثر من الضروري لما قاساه من الجوع من قبل ، فلقد كنت أساعده أيام الأسواق على تجارته ولا يأكـل طول اليوم ونصـف الليل ! ولا يشكو جوعا ! ولا عطشا ! بل انه في بعـض الأحيـان كان يكتـفي في متجره في المساء بخبز مع قهوة أو شاي ، ويقول لي خذ كذا واذهب الي « الطباخ العمومي » لتأكل اللوبيا والحمص ، كالسوقة ! ويعبر عن السوقة با , الزوافريا »وهو يضحك. اما والده فقد حدثتني جدتي لاب مرارا ـ كل طفولتي معها ، انه كان يسأل هل من طعام ؟ فاذا أجابته بالنفي وأخذت تنوع تعليقاتها اللاذعة ، أدبر عنها وواصل تلاوة القرآن الكريم ، هذا في النهار اما في الليل ، فانه يكبر للنافلة ويتركها تتفصح في تعليقاتها اللاذعة.

وبالمناسبة قلـت لهـا ذات مرة.. أو مـرات يـا جدتي حليمة كيف تنظرين الى جدي ؟ فقالت : لقد تزوجني وأنا صغيرة وهو أشيب وصغر سني كان لا يتذوق قيمة جـدك ، ما كنت أنظر اليـه الا كرجل أشيب رزأ شابة في شبابها ؟ بل انني تقول جدتي ـ كنت غاضبة على أخي القاضي الذي هو والد أمك كنت غـاضبة عليه لأنه زوجنـي من شيخ كبير فقير ، وانطلاقا من « وضعيتي » هذه كنت أسيء اليه كثيرا حتى انه كان يأمرني بأن أقيم معه الليل للتهجد فأقول له بشراسة دعني انم ولك أن تشتغل بما تريد ، فقلت لها : والآن وقد صرت عجوزا صوامة قوامـة تتعيشين من عرق جبينك فهل تشعرين بخطورة تصرفاتـك ازاء جدي : زوجك ؟ فقالت : من حسن حظي أن جدك حليم جدا ، والا فـلا قيمة لصيامي وتهجدي اذا واقفته

أمام الله. فلله الحمد على حسن طالعي وحظي « وتوفيت رحمها الله في صيف عام 1352هـ 1932م وأنا في فاس بالمدرسة العنانية وقد نعاها الي المغفور له السيد محي الدين بن الحاج علي الورطاسي بقوله : أعظم الله أجرك في جدتك المقدمة أو الفقيرة « حليمة » فتألمت ما الله به عليم.

طائفة من تربية والدتي لي :

لا أستطيع أن أذكر كل ما أكرمتني به من وسائل التربية وما كان لها من توجيهات طيبة ، شيء واحد أستطيع تأكيده هنا انني كلما شعرت باستقامة رأيت نفسي دونها بكثير جدا « وليست عاطفة الأمومة أو حبي لها العميق هو الذي يحملني على تسجيل هذاالاعتراف هنا ، بل انني أقسم قسما لا اثم فيه انني كلما استعرضت أخلاقها الا وخجلت من نفسي وقلت : ويحي لقد ضيعت أخلاق والدتي أخلاقا فطرية طاهرة كلها حكم طيبة واستقامة عجيبة !

1) قلت لها وأنا في طور الطفولة العاقلة : ان شيخي سيدي قدور المترجم من قبل ، قال لي وأنا في رفقته الى السوق هل عندك ما تؤدي به ثمن كأسين من القهوة ؟ فأجبت بالنفي ، وانه قهقه كعادته ، وقال يا عم انك صرت طالبا من حفاظ القرآن الكريم ، وأبوك غني ، أفلا تحمل معك ولو ريالا واحدا ؟ قال لي ذلك ونحن على يمين مقبرة (سيدي امبارك) ومنزل المقدم السيد بلحاج العمراوي عن بيسارنا والطريق العمومية بين ذلك ، واليوم يوم الثلاثاء ، والشمس فيما حوالي العاشرة ، فأجابتني ـ بداهة ـ وهل شيخك كان في جيبه ريال واحد وهو متزوج وذاهب الى السوق وأولاده ينتظرون منه اكراما ما على الاقل ؟ يا بني ، لا تتأثر بما يقدح في أبيك واقطع الطريق عن كل من يستنقص والدك فانه كريم لو سألته لا أعطاك ما تريد ، وأنت تعرف محبته لك ، ولكن لا تجادل في هذا الموضوع مثل شيخك وانما نبهتك حتى لا تسيء الظن بوالدك.

ولقد كان لنصيحتها هذه أكثر مما كانت تنتظر مني ، فلقد كنت في «معهد وجدة» ثم في القرويين ، وكلما التقيت بمن يعرفني ويعرف والدي وقال لي : هل لك حاجة الى نقود سلفا يقضيه عنك والدك ، الا واجبته بالرفض ، ولو كنت خاوي الوفاض ، صونا لكرامة والدي بل حدث ان منهم من كان يقول لي : ا ان والدك اوصاني بأن أسلم اليك ما أنت في حاجة اليه فخذ ما شئت فأجيبه ـ وقد أكون خاوي الوفاض ـ ان والدي قد أرسل الى ما يكفيني من النقود وأنا في غنى عن أي سلف ، كل ذلك صونا لكرامة والدي وهو أغنى من أولئك الذين يعرضون على سلفهم ، فكنت اسمو بوالدي عن أن يقولوا له : ان ولدك قد اقترض منا كذا ،

وقد وهبني الله دراسة مهمة لنفسية العامة انني ان قبلت منهم السلف قد يقولون لوالدي يا سي علي تعهد ولـدك ولا تفرط فيه فقد وجدناه جائعا عريانا.. وجدناه.. ووجدناه ، ولذلك كنـت أقف من عروضهم موقفا صارما لا هوادة فيه

2) ذلك من فضلك يا أماه ، فرحمة الله عليك ورضوانه :

من ذكائها العجيب ، ان والـدي رضي الله عنـه كان يتعهدني وأنا في فاس مرة في الشهر تقريبا ، ومن عادته انه يأتي الي في مساء الاربعاء ، ولا يرجع الـى المنزل الا فـي ليلة الاثنيـن ، حيـث كان ينتهـز هذه الفرصة فيقتني ما هو في حاجة اليه في تجارته ، وكثيرا ما أرافقه الى الأسواق في مدينة فاس وخصوصا يومي الخميـس والجمعة ، وفي مساء الاحـد ، أودعه في الملاح حيث يقل حافلة « كاطوطة » التي هبط ثمنها من فاس الى وجدة ، الى سبع فرنكات ، وكانت رحمة الله عليها تستغنسره عن حالي ، وتستعيده، فأخبرها يوما انه وجدني قد « هيأت لعشائي » حريرة «وطاجينا» من الدجاج مع الزبيب والبصل ، وصحنا كبيـرا من العنـب ، وان الـطعام فضل عنه وعني وعن رفيقه الحاج الحسـن الحمداوي الذي كـان يسكن في أولاد علي بن ياسين الشهير بمولاي الحسن الطـويل ، فقالت له ان الطعام الذي تذكر كثرته بهذه الصفة ، هيـأه بعد وصولكـم ، ولم يكـن مهيئا من قبل فهذه الأوان لا يتحملها القدر الـذي ترسله اليه شهريـا ؟ فغضب والدي لتعليقها وتحليلاتها محتجا بقولـه : ان ولدي لـم يتحرك من مكانه معنا منذ ان دخلنا الى البيت ، فكيف هيأه من بعد وصولنا ؟ فقالت له ان ولدي كثيرا ما يفعل أشياء مهمـة بدون لفت الانظـار ، ولكن والـدي أصر على رأيه ، وأصرت علـى رأيها ، فتراهنا ..

ولأول ليلة وصلت الى منزلنا سألني والدي بعد تناول العشاء ، ولدي شرب الشاي ، لقد تراهنـت مع والدتـك في شـيء فاخبرنا بالحقيقة ، فقلت له قبل أن أسمع منـك حكاية المراهنـة : ان والدتي قد غلبتك.. انك بدون شك تسألني عن قصة العشاء الذي فاجأك ، فقال : هو كذلك ، فقلت الحق ما قالته والدتي ، وتعليلهـا هو الواقـع الذي ينبغـي أن تتفطن لـه ، فهل الاربعون فرنكا التي ترسلها الي شهريـا ، تتحمل مثل ذلك العشاء ؟ ! فسألني كيف استطعـت أن تقدم لنا ذلـك الطعـام وأنت جالس معنا ؟ فقلت الفضل يرجع لأهل فاس وحدهم أعني أولا لله ، ثم لهم ، فقال وكيف ذلك ؟ فقلت أنهم ـ يا أبي ـ يمارسون أشياء مهمة ذات خطورة دون ان يلفتوا الانظار ، وتلك هي نتيجـة الحضارة الناضجـة الضاربة في أعماق التاريخ ، والمفارقة بينهم وبين مواطني البادية ، فالحضوريون يمارسون

الاشياء الخطيرة في يسر ، وحيطة لطيفــة ، بحيث لا يلفتون الأنظار اليهم وأهل البادية يملئون الدنيا ضجيجــا وحركة لاتفه الاشياء ، فأهل الحضارة ينقصون من الكلام والحركــة للعمل المفيــد ، حتــى تبدو أعمالهم طبيعية لا تلفت الأنظار ، ومهما تــحرج الموقف الا وانسحبــوا وهم يبتسمون ، أو ينسحبون في صمت مطبق ، ثم يفعلون ما يريدون ويستطيعون.

فحينما كنت أناولكم الشاي ، كنــت أفكر فــي وسيلة اطعامكم دون الفات نظركم ، وليس ذلك احتياطا منك ولكــن احتياطا من الضيف فاذا رآك ناولتني النقود لشــراء طعام العشاء ربمــا يقول في نفسه ان هذا الولد كان فارغ الجيــب ، وان والده قد ضيعه وعرضه للبــؤس والشقاء في غربته العلمية ، وأنا يا ولدي أغار على كرامتي وكرامتك من أن تتعرض لخواطر السوء وقالته ، ولذلك انتهــزت فرصة اعطاء كليتك في الحديث مع الحاج مولاي الحسن وقلت لمحمــد الصحــراوي خادم المدرسة وقد أتى الله به في ذلك الوقت ، قلت له أدخل الى حجرتي وخذ مني عشر فرنكات بالضبط ، وبدون الفات نظر ، وقد أريته اياها في يسراي ، واشتر كذا وكذا كما رأيت. ووزع علينا الطعام كما لو كان مهيئا مــن قبل ، كل ذلك قلته له في بضع ثوان ، لانه وان كان صحراويا ، فقد تحضــر في فاس،واقل اشارة تكفيه لفهم كل شيء، وبهذه « التقنية » الحضارية ، تحول الطعام والا طعام طبيعيين كأنما هيىء الطعام من قبــل ! وكأنمــا «محمد» الصحــراوي خادم خاص ! وكأننا في منزل طبيعي ! فلقد حولت كــل مصطنع الــى طبيعي فانخدعت به ! فما رأيك ؟ ألم تكن مســرورا حينما رأيــت الطعام أكثر مما يجب دون أن أتحرك من مكاني ؟! ألم تكن مسرورا أن يرى الضيف حالة ولدك تلك ؟ قال : بلى. قلت ذلك ما قصدت اليــه أن تراني في أفضل حالة وعلى حين بغتة فتسر بي وبنفســك وبضيفك ، الفضــل يرجــع لاخلاق أهل فاس التي شغفت بها ايما شغف ، ولو كنت ماأزال بدويا لسألتكم ماذا تأكلون ؟ نحن الآن في آخر النهار لا يمكن لي أن أهيىء لكم طعاما فهل تكتفون بكذا.. ؟

ولا ازال أمطركم بمثل هــذه الاسئلة الفارغة الدالة علــى عجز صاحبها وفشله في الحياة ان لم تدل على خلة البخل ، ولها في اسئلتي الثقيلة غير مبرر واحد ، ولكن تفقهي بأهل فاس ، جعلني أنتهز فرصة حضور محمد الصحراوي وانشغالكما بالحديث ، مع اعتقــادي الجازم بضعف احساسكم وانتباهكم ، فقلت لــه خذ عشر فــرنكات فــي خفيــة ، واذهب الى الطباخ « خربوش » وايت بجبانة من حريرة وطجيــن فيه دجاجــة كبيرة مع زبيب وبصل وحمص واشتــر العنب والخبــز ، واخف الجميع حتى أسألك تقديم ذلك الينــا ، كل ذلــك في لحظــات خاطفة ! وأنتمــا لا تأبهان ! كنت أحلــل لوالدتي ووالــدي قصة العشــاء وهمــا في أشد العجب ،

ولا سيمـا والـدي ، أما والدتـي فقد انتبهـت الي الواقع بـدون ما أحكي لها القصة ، لانها كانـت من الذكاء بمكـان عـال ، فرحمة الله عليك يـا أماه ورضوانه.

3) أخبرها والدي ذات مـرة قبل أن يغـادر المنزل لرؤيتي في فاس ، انه يهيئ أقمصة : عباءة وقمجة ، وعمامة « ليقدم ذلك هدية الي ، فقالت له : (لا تفعل : انك ستكلف اليهودية ، زالو » بخياطة ذلك ، ولن توافق الاقمصة ولدي ، لا سيما وانه فـي فاس ، وفيـه كُل خير ، فاعطه النقود ، واتركه يفعل ما يريـد ، ولكن أبـي ركبه « العنـاد » ففعل. فلما قدم الي « الهدية » وأمرني بلباسها تحولـت الى « بابـا نويـل » فسألني عن رأيي فيها ؟ فأبديت له مجاملة غاية اعجابـي وسروري بها ، وحينذاك ، أخبرني بمعارضة والدتي له واشعرنـي بانتصاره ! فقلـت له بلساني فقط ، سامح الله أمي فهل بعد هذا « الخيـر من خيـر ؟ وقلت فـي نفسي سامحك الله يا والدي الذي يهزم أمـام والدتي ؟ أفلا نظرة خاطفة منـك الى نوع ثيابي وانا أمامك ؟ كنت أفعل كل ذلك حتى لا اثقل على والدي بالنقد والرفض ، فأتنكر لدروسي اللطيفة التـي أخذتها مـن أهل فـاس جزاهم الله خيرا ، وبمجرد ما ودعني والـدي قلت للخادم : محمـد الصحراوي خذ هذه الثياب وبعها بما يمكن فباعها فحولت ثمنها الى ما كنت في حاجة اليه من ثياب

ولما رجعت الى منزلنا في العطلة من بعـد ، وكنت مع والدي في احدى الجلسات سالني أحدهما ولا أذكر مـن هـو : هل راقتـك الأقمصة ؟ فقلت في لطف وابتسام ان الاقمصة وقعت فيها أخطاء في الخياطة والمقاييس فاضطررت لبيعها فانفجرت والدتي بالضحك ، وانفجر والدي كذلك قائلا : ولماذا أظهرت لي كـل سرور بهـا ؟ قلـت أولا حتـى لا اثقل عليك بالنقد ، وثانيا أنها كانت ربحا عظيما ، فقد بعتها وعوضتها بما يلائمني فقال : من الآن ففوق ، سأسلم اليك النقود فقط ، أو ان تختـار ما تشاء هنالك وادفع الثمن ، فقلت له : ستفعل خيرا كثيرا ، فمثل تلك الثياب ، لا تلائم الطلبة وفي فاس الخير الكثير...

4) وبعد أن غادرت مدينة فـاس وجدتني أمي ذات يوم أضحك كثيرا وبيدي ، العقد الفريد » فسألتني مع من تضحك ؟ وأنت وحدك في البيت ؟ فقلت ـ بداهة ـ كنت يا أمي أتحدث مـع أموات في هذا الكتاب ، فراقني الحديث معهم ، لانهم عقلاء ، وأثـارت في نفسيتي نكتهم العجيبة ، حاسة الاعجاب بالنكـت والفكاهـات ، وحبـي لهـا ، مع كون الأموات يفيدون ويؤنسون بدون أية اساءة مـا ، على عكـس الاحياء ! لا تخلو أحاديثهم من اساءة ما فأولئك يثيرون في نفسـي المرح ، وهـؤلاء يثُيرون في نفسي

الانقباض والألم ، فحديث الاموات في الكتب بريء مؤنس ، وحديث الأحياء عكس ذلك ! فلذلك ضحكت كما رأيت ، أتريدين أن أوضح لك ما حملني على الضحك ؟ فقالت بلى ، فصرت أبين لها وهي تضحك ضحكات هستيرية ثم قالت الله يبارك في العلم يا ولدي ، كلام أهل العلم حلو مؤنس ، اننا نعيش في الجهل في شقاء : اقرأ يا ولدي واستفد فهنيئا لك، ولكن لا تحرمنا مرة فمرة ، من هذه الأحاديث الطيبة الحلوة.

5) ومن ثبات جأشها ، ولعله كان ذلك في سنة 1941م يوم كانت لجان المراقبة « المحورية » تخنق أنفاس الادارة الفرنسية عقب انهزام فرنسا ازاء « دول المحور » في الحرب الكونية الثانية ، فأخذت الادارة الفرنسية في المغرب ترتاب في كل مواطن مغربي ، متهمة اياه اما بالتعاون مع «لجان المحور » ضدها ، واما باعداد العدة للثورة لاسترجاع السيادة المغربية ، انتهازا لفرصة ضعف فرنسا بانهزامها المشار اليه.

وانطلاقا من هذه العقدة ، أجرت في ابركان عدة تفتيشات لعدة منازل ، واعتقلت عدة مواطنين ، وفي أحد أيام الثلاثاء ، ونحن في شهر الصيام ، وأنا عدل في محكمة ابركان ، أخبرني المرحوم السيد محمد بن عبد المومن التايه الورطاسي الحاجي بأن تفتيشا قريبا ، يومه أو ليلته ، ستقوم به الشرطة لمنزلي، ومنزل والدي ، وفي المساء جمعت كل ما كان عندي من محظورات والكتب والصحف في «القفة» : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » لأمير البيان وترجمان القرآن ، شكيب ارسلان ، وستنان عقوبة منفذة لمن وجد عنده بقرار من الصدر الاعظم الحاج محمد المقري الذي هو بين يدي الله يفعل به ما يشاء ، ثم ، جريدة الوحدة المغربية » للشيخ العلامة الجامعي السيد المكي الناصري ثمانه كان لوالدي مسدس طلبت منه اخفاءه ، فأخفاه بين « سدرة » جنوب الباب الغربي للمنزل وقريبا من الباب ؟

وغده الاربعاء حوالي الحادية عشرة صباحا أحاطت الشرطة بمنزلنا ، ومن حسن الحظ أنها ابتدأت عملية التفتيش بحجرتي التي فيها خزانة كتبي ودام تفتيش كتبي حوالي الساعتين وكان يباشره الترجمان السيد « عالم » الجزائري الندرومي وله بوالدي علاقة عاطفية ، ولم تعثر على شيىء محظور ، الا ان رئيس الشرطة بابركان نبه الترجمان الى ، حاضر العالم الاسلامي »فأجاب انه مجرد تاريخ لا غير ، وكان بين حجرتي وحجرتي والدي حائط ، فلما انتقلنا الى حجرتي والدي ، لاحظت رمادا ما ، تحت طاجين لطهي الخبز فتنفست الصعداء ، وحمدت الله وشكرته على ما وهب الله لأمي من رباطة الجأش ، حيث أحرقت ما في القفة ومع ذلك ، فقد كنت أخشى أن تكون عملية الاحراق لم تتم ، وأثبت الواقع أنها تمت كاملة.

ومن العجيب ، انه كانت في القفه رصاصة ، ولكن المفتش هزها ولم يدخل يده فيها لطفا من الله ، وكان العثور عليها كافيا للزج بالأسرة كلها الى السجن ، حيث مكاتب الاستنطاقات العسكرية ستذيقنا كلنا الوانا من التعذيب ، وقد حال ستر الله بيننا وبين ذلك ، واختتمت عملية التفتيش بتوقيعنا أنا ووالدي على ملف « المحضر » واستسماحنا من رئيس الشرطة بابركان ، والفضل في ذلك = أولا وأخيرا = لله الرحمن الرحيم ، ثم للمرحوم السيد محمد بن عبد المومن التايه المذكور ، ثم لرباطة جأش والدتي ونفاذ حزمها جزاها الله خيرا ، والا فان تلك الرصاصة كانت تكفي لتنقلنا الاقدار الى عالم الخلود تحت ألوان الاستنطاق العسكري الفرنسي.

قلت لوالدتي : يا اماه ــ كيف كان شعورك والشرطة تحيط بمنزلنا ؟ فقالت لي : تذكرت أنك قلت لي : أن حد تفتيش فستكون حجرتك نقطة البداية فتوقفت حتى تأكدت من تحقيق تنبئك وقلت : أن تفتيش خزانة والدي تقتضي زمانا أكثر من الضروري لاحراق ما في القفة ، وخوفا من أن يتصاعد الدخان فيلفت نظر الشرطة عمدت الى طهي خبز لم يختمر عجينه ! وهكذا تمت العملية بسلام ، وشعرت بكامل الهدوء والسرور ، لاني كنت متأكدة بأنه لا يوجد عندك غير ما في القفة ، لما أعرف من قوة حزمك ، ولما أخبرتها بالرصاصة ونتائجها وسلامتنا من ذلك أخذت تحمد الله وتشكره كثيرا ، ومن صميم هذه الحادثة انه حينما تمت عملية التفتيش ساقتنا الشرطة أنا ووالدي ، ولما وصلنا الى أقرب مكتبها تركنا جميعا مستندين الى بناية قبالة مكتبها ، فانتهزت هذه الفرصة وقلت لوالدي بكل سرعة، لقد أخطأت الشرطة في تركنا خارج مكتبها أولا وفي تركنا مجتمعين ثانيا. وأوصيك ان سئلت عني ان تنفي ـ كل ما يتعلق بمعلومات حولي ، أعني أن تدعي أنك لا تعرف عني شيئا ، ولا معرفة لك لا بأفكاري ولا بتصرفاتي، وان تقول : ان ولدي ليس لي معه الا انه يساكنني ، وهو متزوج ، وله بنت واحدة اسمها خديجة ويمارس العدالة ، وأنا أمارس التجارة ، ولا يجالسني الا قليلا ، فهل وعيت ؟ فقال : نعم ، وفور ذلك ، خرج رئيس الشرطة من مكتبه فاندهش لتركنا مجتمعين قائلا بصوت مرتفع : فرقوهما حالا. ولكن اجراءه جاء بعد فوات الاوان.. نعم فعلت ذلك مع والدي لاجد نفسي حرا في التعبير عن أفكاري التحريرية بما يناسب الظروف وكنت أشعر بكفاءة للدخول مع رئيس الشرطة في حوار حول أحداث الساعة ولكن اي شيء من ذلك لم يكن وما ندمت على ما أوصيت به والدي.

نعم مرة ثانية انه على الرغم من ان الشرطة لم تعثر على ما يستوجب اعتقال الأسرة كلها فقد كنا ننتظر الاعتقال لان الشرطة اعتقلت السيد محمد بن الطيب الورطاسي بعد ان فتشت منزله ولم تـ عثر على شيء ، وبعد

الاستنطاقات رمت به الى الصحراء « بوذنيب » الى ان احتل الحلفاء المغرب في نوفمبر 1942م واعتقلت السادة : الحسن شاطر والتهامي الوكوتين وعبد السلام بن الحاج مولاي محمد بن بنسعيد شهيدنا الورطاسي وعبد المومن البدري وأخاه أحمد الورطاسيين وصديقنا الحاج محمد الحافي رئيس الدائرة المتقاعد الآن ، وغيرهم بمجرد تهمة وجهت اليهم ولم يعثروا على أي شيء عندهم ، وذاقوا من العذاب ألوانا ، ومثلوا أمام المحكمة العسكرية بمكناس ، وعقب الحكم على السيد الحسن شاطر بأربعة أشهر وعشرة آلاف فرنك غرامة سيق الى الصحراء حيث مكث فيها قرابة خمس سنوات وقد حطم له المستنطق العسكري أي الضابط « باشلو » الشاب المتخنث اربعة أضراس وسلط الكهرباء على عورته ، فلماذا لا تعتقل أسرتنا كلها وان لم يعثر على شيء يستوجبه عندنا ؟ فترقبنا للاعتقال كان له غير مبرر واحد.

نعم مرة ثالثة ، لقد بدأت هذه القصة حوالي الحادية عشرة صباحا ولم تنته الا بعد العصر بقليل وكان القاضي المغفور له السيد عبد المجيد الفاسي الفهري يقوم بدرس « الشمائل » عقب صلاة العصر وكنت « سارده » وكان يعرف سلفيتي وحزبيتي العميقتين ، ولذلك كان يعيش على أعصابه ، وعملية التفتيش جارية في منزلنا ، ولم يكن يحبني فقط ، بل انه كان يحب أسرتي كلها. فبمجرد ما رآني داخلا الى المسجد أوقف الدرس واتجه الي بكامل بصره وبصيرته وحينما جلست سألني « لا بأس ؟ فقلت له وأنا أبتسم كل شيء مر بخير فمتعنا بدرسك ، وكدت أن المس آيات سروره في وجهه وشعرت شعورا صادقا بانه استرجع كامل اطمئنانه على اسرتي كلها وانه لم يبق له الا أن يطلع على تفاصيل الحادث الخطير وترقبت أن يدعوني الى منزله لتناول طعام الفطور معه ليستمع الى الحادث من أوله الى آخره وان كان من عادته ان يستدعيني مرة مرة ، وكذلك كان فما انتهينا من أداء صلاة المغرب ، حتى أخذني معه ، ولما انفصلنا قليلا عن المسجد قال لي : بمجرد ما وصلني الخبر أخذت أعيش على أعصاب ملتهبة ، انني أعرف جراتك في أفكارك، وأعرف استعدادك للمغامرة وكنت أعتقد انه لزاما أن تجد الشرطة عندك محظورات سياسية، ونتيجة لذلك ، كنت أعتقد أن الأسرة كلها ستختفي ، فالظروف خطيرة في منتهى الخطورة ، فالاعتقالات متوالية ، والمراقبة تحمل أحقادا عميقة لبني يزناسن علي الخصوص ، فكيف سلمت العائلة من هذا الحدث الخطير ؟ فقصصت عليه القصة من أولها الى آخرها باستثناء عنصرين اثنين : 1) المخبر لي للاستعداد لعملية التفتيش 2) وعملية الاحراق التي باشرتها والدتي بكل احكام ورباطة جأش ، وليس ذلك خوفا منه ، حاشا لله ولكن ما ينبغي للانسان أن يبوح بأخطر الأسرار حتى ولوالي من في مستوى صداقته لي. والظروف في

منتهى الخطورة ، ثم قال لي : « الله يا ولدي » للا حلومة » والدتك الكريمة لا تألو جهدا في تقديم فنون طعامها اللذيذ لي ولأسرتي كلها مرة مرة ، وسيدي علي ، يعني والدي يقـدم لنا السفنج والشاي فـي كل فجر أربعاء عندما نكون في انتظار حافلة « الحـاج الغـازي » للتوجـه الى سوق تافوغالت للفصل والتوثيق وانت صرت لي أخـا وصديقا ومؤنسا وحيدا في ابركان ، لدراستك في فاس وخبرتك بتقاليدها واعرافهـا ، فكأنك منها ، حتى انني ـ كما تعلم ـ قلت لولدي عبـد الرحمن وخديجة انـك بدرجة عمهما وان لا يدعواك الا « عمي » وسيدعوك كذلك ولدي الصغير الذي فطم قريبا : سيدي العباس أصلحه الله ، فلولا ان الله سلم ، لصـرت وحيدا في ابركان ! من ذا الذي أتحدث معه هنا فقها وأدبا غيرك ؟ ان (عدولي) ليس لهم الا اللحم والعظم.

قلت : لو كان السيد عبد المجيد الفاسي لما يزل حيا ، وقرأ هذه القصة مع حواري معه لقال لي صدقت في كل شـيء ولله من ذكارة ضابطة تحتفظ بها ! ولقلت له : تلك نعمة يمنها علي الله ، فلله الحمد ، وله الشكر.

6) هذه النقطة كان ينبغي أن تكون في البداية ليكون ترتيب مبراتها مسلسلات تاريخيا ، ولكن لم أتذكرها الا بعـد أن شرعت في تحرير النقطة «5» قبلها.

كان ذلك في ربيـع سنة 1921م بالضبـط اثر المجاعـة القاسية التي كانت في سنة 1920م فلقد من الله علينا بنعمـة الغيث الغزير في فصوله ، فهبطنا من منزلنا بورطاس ، ومعنا المرحوم ابن عمنا السيد محمد بن رابح وأسرته الى قبيلة الاعثامنة ، بيـن ابركان والسعيديـة ، في جوار المرحوم محمد بن سلميان الذي عقب أولادا أربعة :

1) سليمان 2) رمضـان 3) والطيب و4) بوجمعـة وكلهم من خيرة المجاهدين الاستقلاليين ورحم الله (رمضان) وبارك في سائر اخوته ، وكنا تحت ظل خيمة من حلفاء ، ولابـن عمنا : رفيقنـا المرحوم السيد محمد بن رابح مثلها وهو وأبي يتجران في الزيـت في سوق ابركان ، وقليلا في سوق السعيدية ، ولأبي عـدة بقرات ، والمقصود من هـذا الانتقال الى «الاعثامنة» التمتع بالحليب والزبدة ، وكان أبي يملـي علي ما أكتبه في لوحتي من القرآن الكريم ، مع الاستماع الـي عند الاستظهار وكـذلك كان ابن عمنا السيد محمد (بن رابح) يفعـل مع ولديه محمـد وأحمـد. وعندما يذهب والدي ورفيقه الى ابركان تأمرني والدتي برعي البقرات وحفظ اللوحة ، وكان ولدا ابن عمنا المذكوران يذهبان معي حيث نجلس الى سدرة نحفظ ألواحنا.

أذكر جيدا أن لوحتي في ذات صباح يوم الثلاثاء كان فيها ثمن : قال رب اشرح لي صدري الى آخـره فلاحظت والدتـي رحمها الله أننا تركنا الالواح

الى العبث والتمتع بأزهار الربيع ، فقالت لنـــا : ما هذا اللعب وقد تركتم ألواحكم ؟ فأجابها محمد : لقـد حفظنا ألواحنا ، فقالـت : اعرضوا علي ألواحكم فقال لها يا عمتي أنت لا تحفظين القرآن فكيف تعرفين احفظنا أم لم نحفظ ! : فقال ـ بحزم وشدة ان الكذاب يتلعثم ولا يستطيع أن يحتفظ بهدوء عينيه ، ولا أن يواجه بنظراته محدثه ، فالكذاب ترجف عيناه ، ذليل النظرات ، يؤثر الاطراق مرغمـا على اقامة رأســه « اعرضوا » علي ، بارك من الكذب ؛ فضعفت قواه أمـام هذا الموقـف الصارم فأخذ يستظهر لوحته في حالة تشهد عليه بعدم حفظها وكما كـاد يقرأ قليلا حتى قالت له : يقينا أنك لم تحفظ لوحتك فآيات الكـذب بادية عليك ثم التفتت الي قائلة : اقرأ فاستظهرت اللوحة كلها فقالـت أنت صـادق ولكن في حـاجة الى مزيد من اجادة الحفظ ، وقسما بالله أنها كانت صادقة ، ثم أمرتنا بالحفظ والاجادة ورجعت من حيث أتـت أذكر جيدا كأننـي أراهـا الآن أنها كانت واقفة « والسعيدية » وراءها ، ونحـن واقفون فـي اتجاه « السعيدية » أي أنها كانت تواجه الجنوب ونحن نواجه الشمال ومن حكمها السابقة ، صرت منذ تلك الساعة أصدق في الناس ملامحهم قبل أن أصدق ألسنتهم ، لا سيما وقد درست من بعد كثيرا من آيات الكذابين ، فقلما أخطأت في معرفة الكذاب عليه لعنات الله ، الا أن يتوب الى ربه ، « فالتائب من الذنب كمن لاذنب له » .

7) موقفها من مغامرتي سنة 1944م :

عندما تأكدت والدتي مـن عزمي على السفر الـى وجدة لاقامة مظاهرة احتجاج على الاعتقالات التـي مارستها السلطـة الاستعمارية في أوساط الاستقلاليين ، وما أراقـت من دماء عقـب تقديم وثيقة الاستقلال في تاريخ 11 يناير 1944م رافقتني الى خارج المنزل قائلة : « روح يا ولدي لقد وهبتك لله وزودتني بادعية صالحة. فكانت كلماتها تشد من أزرى وتؤنسني في كل ما رأيت من أهوال ، وما لقيتـه من مشـاق وصعاب ، أثناء اعتقالي ، والحكم علي بسنتين سجنا حيث تلقفتني سجون : وجدة ، والدار البيضاء ، وعين علي مومن « وسجن لعلو بالرباط ».

وقد تكونت والدتـي وطنيـا من عهـد السلفية حيث كنت أقضي معها الساعات الطوال ، وأقـوم لها بمقارنـات بيـن الثورات الوطنية والبعثـات الالهية ، حتى أخذت تومـن بأن الوطنيـة الاستقلالية قبس من نور عهد النبوة الختامية الكريمة فحبب اليها الجهاد للتحرر من «الكفار» أو الاستشهاد في سبيل الله. فلذلك لم تفاجئها مغامرتي في سبيل الله.

ومن عجيب ايمانها وثباتهـا ، انه كلمـا أخبرها والدي بما تلقاه من المرجفين في المدينة حول وضعيتي في السجـون الا وأجابته بقولها : لا تثق

بالكذابين ، ان ولدي ان عـذب ، ففي سبيـل الله ، وان عاش ، وهذا هو اعتقادي فسنراه في أكمل عافية ان شـاء الله ، فلله ما أطيبك يا أماه ، وما أعمق ايمانـك بالله ورسوله والانتصار على « الكفـار » كما كنت تعبرين عن المستعمرين.

8) تجملها في كل ظروف اعتقالاتي :

اعتقلت في 6 فبزاير 1944م وفي 10 جوان 1948م وفي 11 جوان 1950م وفي 17 غشت 1952م أثناء كل هذه الاعتقـالات ، كانت تظهر فن التجمل ، والجلد والصبر ما استحق الاعجاب ولفت الأنظار، وكانت تقول لي يا ولدي: لا أنكر ما يثقلني من آلام لفراقك ومـا تقاسيه من أهوال وتنكيل ، ولكنني أذكر رسالتك النبيلة فأشعـر بسعادة غير متناهيـة. وحينما يشتد بي لهب الشوق اليك وأنت في غيابـات السجون والمنافي السحيقة ، أدخل الى حجرتي فأبكي ما شاء الله ، ثم أمسح دموعي مفوضا أمري الى الله ومحتسبة عملك لله. وكانت في بعض اعتقالاتـي تطلقها زغـردة مدوية وهي تضحك ضحكا هستيريا ، ولم يكن لها مـن عدو في الدنيـا غير « الكفار » وحينما يأتي النساء بعد اعتقالي ـ ليصبروها تقول لهن : لا تقلن لي اصبري ـ بل قلن لي هنيئا لك بأن ولدت ولدا يجاهد الكفار.

وفي حوادث 1953 بينما كنت في زنزانة بسجن «دار العشور بتارودانت» اعتقل والدي ، وشقيقي الحسين وشقيقتي الصافية ، وزوجها السيد أحمد الطاهري والسيد بنعبد الله الوكوتـي زوج شقيقتـي رحمة والسيد بنعبد الله البكاوي زوج شقيقتـي الوزانة ، فلـم يبق في منزلنا الا هي وحدها ! وتقرر اعتقالها ، ولكن رئيس دائـرة أبركان قـال دعوها فانها وحدها في المنزل ! فكل الأسرة في اعتقال ، فأجابه خليفته بأنها لا تفتر عن الدعاية وسب الكفار ، فقال له رئيس الدائرة دعوهـا وان فعلت ذلك ، فهي وحدها في المنزل ، حدث ان دخل عليها أخوها والد زوجتي قائلا : ان ولدك لا نعرف متى يطلق سراحه ؟ فهل تبقى ابنتي على هذه الحال ؟ فأجابته بحزم وقوة أن ولدي كتـب الينا يجعـل الطلاق في يدهـا ، وها هي تسمع لنا ، فان شئت فخذها وان شـاءت فلترافقك الآن فـان توفي ولدي في الصحراء فقد وهبته لله وهنيئا له بالشهادة وان بقي حيا فالنساء كثير ، ولا تصارح بهذا السؤال سيدك «علـي» تعنـي والدي فانـك سترى منه ما لا يسرك ، كانت تقول له هذا وهو واقف ولم تستدعه للجلوس ، فخرج من المنزل بعد ان أدبرت عنه غاضبـة. وقالت لي أكثـر من هذا واكتفى هنا بما يمكن أن يقال ، فانها رحمها الله ، كانت كما يقول الشاعر :

وان لساني شهدة يشتفي بها   وهو علـى من صبه الله علقم



شقيقي الأستاذ الحسين

محبتها لوالدي

أما محبتها لوالدي واحترامها له فقد كانت في المستوى المثالي ، وكمثال لذلك ، استدعيتها مع والدي والأخوات في شهر يوليوز سنة 1968م للحضور في حفلة زواج ابنتي رشيدة بالأستاذ السيد أحمد بن سليمان وقد كانت حضرت مع والدي حفلة الخطبة ، فاعتذرت بمرض والدي ، فقال لها من قال لها : انك تحبين أولاد ولدك قدور وتتخلفين عن الحضور في زفاف بنته رشيدة ؟ فما يضر زوجك لو تغيبت عليه بضعة أيام ؟ فأجابت ــ بكل حزم وحماس ــ : انني كما ذكرت من حبي لأولاد سيدي قدور ، ولكن لا أستطيع = أبدا = أن أترك والده مريضا منفردا ، مما يحمله على الغضب والسخط علي ! وأنا أخاف أن يعاقبني الله على ذلك.

آخر جملة سمعتها منها :

كانت عندي شهرا أو أكثر قليلا ، وحينما خرجت لأودعها غلبتني الدموع لاول مرة في توديعها وقد جاءت عندي أكثر من مرة الى الرباط. فتأخرت في الرباط مع والدي فاستعجل أمره ورجع الى ابركان ، اما هي فمكثت عندي أكثر فتأخرت وهي خارجة من المنزل مع أولادي وصرت أنظر اليها من النافذة وأنا أبكي ، فلما أتمت دركتي المنزل بساحة أبي بكر الصديق أكْدال ــ الرباط التفتت الى المنزل وقالت بالحرف : « ايه يا هذا الخير فأين نمشي ونخليك) وحينذاك لا أقول انفجرت عيناي، بل انفجر صدري لهذه الجملة ثم مسحت دموعي وخرجت لأودعها وهي في سيارة أخي السيد الحسين.

وفي يوم الجمعة ثاني غشت 1968م نعيت الي بواسطة ابنتي فريدة ، فجمدت في مكاني مكررا قوله تعالى : « انا لله وانا اليه راجعون »رحمك الله يا أماه ، وانهارت أعصابي دفعة واحدة ثم استرجعت قوتي بعض الشيء وصرت أمشي في المنزل وأنا أرجع وأترحم عليها قسما بالله ما عانيت من كارثة مرت بي مثل ما عنيت من كارثة موتها ، وهكذا توجهت الى

ابركان لتشييعها ، وبلغني من أخواتي أنها قالت عند احتضارها لا تدفنونني حتى يأتي ولداي الاثنين ، وقالت لشقيقتي الكبرى آمنة (1) : „لا تشتغلي بالبكاء فهيىء للمعزين 1) الطاجيـن 2) والطعام أي الكسكـس». كما كانت في لحظات ما قبل وفاتها تهييء طعام الغداء وهي مسرورة بحضور ولدي عبد الحميد عندها في تلك اللحظات. وسقطت الى الارض قائلة : الله ورسول الله ، وكانت الساعة الحادية عشرة ونصفا صباحا ، ودفنت يوم السبت حوالي نفس ساعة وفاتها في مقبرة كدية مولاي الطيب الشهيرة هنالك وقد مني والدي لأصلي عليها فقلت له أريد أن تصلي عليها لتكـون صلاتك عليها عفوا تاما عن كل ما عسى أن يكون لـك عليها من مؤاخذة اما أنـا فليس بيني وبينها الا الخير ولكن توليت تلقينها عند القبر بعد أن رجع الناس عنها.

ورأيتها في نومي وجرى بيني وبينها الحوار الآتي :

س ـ كيف كنت تشعرين وروحك تغادر الجسم ؟

ج ـ لم أشعر بأي تعب ، لقد كنت أسأل الله أن أموت فجأة ، وفي يوم الجمعة ، فاستجاب الله دعائي

س ـ وبعد الموت وقبل اخراجك الى القبر ؟

ج ـ لقد تألمت بالغسل حيـث ان من غسلني لـم يرفق بي لجهله بغسل الأموات.

س ـ وحينما حملت من المنزل للتوجه بك الى القبر ؟

ج ـ لقد تألمت حينما أخـذ النساء في البكـاء ولكنني سررت جدا حينما امرتهن يا ولدي بالكف عن البكاء

س ـ أنت لا تعرفين العربية بماذا أجبت ملكـي السؤال وهما يتحدثان بالعربية ؟

ج ـ لقد مرا بي واحتك احدهما بجسمـي ، فقلت له يا سيدي أنا ما قرأت.. ولكني أعرف الله ورسولـه فابتسما قائليـن : لقد عرفناك أنك كنت مومنة في الدنيا

س ـ ثم ماذا وقع لك ؟

ج ـ لقد تركت جسمي في القبر ، وانشقت القبر أمام عيني فرأيت

---

(1) اختي آمـنـة من مواليد سنة 1912م وتوفيت سنة 1985م بابركان.

جسمها ملفوفا في شبه « ميكا » ثم أعطوني هذا الجسد الذي ترى ! ، وهو جسد شفاف على تياس صورتها من دون أن تبــدو لي محارمها ، فهي كما كانت في ثيابها العاديــة ، واسكنوني هــذا المنزل الذي تراه ، وهو عبارة عن فيلة ذات بهو خارجي وسواريه مغطاة في الجملة با « للواية » مع بعض الازهار ، ثم رأيتني واياها في منزل والدي . بالامحال » وهي قطعة أرض كانت لوالدي ، وكنا نسكن فيها بعد ان نزلنا من « وادي ورطاس » فقلت لها لم تقيمين هنا بعيدة عن والدي في منزله بابركان ؟ فلو اجتمعت معه ، لكنت أسلم اليك ما أشتريه من الكســوة لزوجتــه ، فقالت أن ثيابكم لا تصلح لي وأنا لا أصلح لأبيــك ، فاعط ما كنت تهــدي لي من الثياب لزوجة أبيك ، والله يا ولدي ما استرحت في قبــري حتى تزوج أبوك ، انه كبير السن، في حاجة الى من يتعهده ويخدمه ، فلما توفيــت صرت قلقة عليه ، والآن ، فاني مرتاحة جــدا ، فالحمد للــه ، واستيقظت من نومي بعد هذا الحــوار معها.

وحينما حججت عنها عــام 1974م رأتها ابنتي خديجة في منامها حيث طرقت باب منزلها في المحمدية وخرجت اليها فرأتها حاملة رزمة من الثياب فهابتها ولكن قالت لها ادخلــي يــا لــلا ، فأجابتهــا : لا تخافي مني فأنا سأذهب مع ولدي الى البقاع المقدســة. وحينما كنت في باريز سنة 1973 وغي شهر رمضان لالقاء دروس بين العمــال هنالك بأمر من وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ، ختمت ختمة وربعا من القرآن الكريم لأجلها.

فلما رجعت وكنت عنــد شقيقتي رحمــة أخبرتني أنها رأتها في منامها وقالت لها يا بنيتي رحمة ، لقد كنت مع نساء نتحــدث ، فنودي علي وقيل لي هذا جنان أرسله اليك ولدك من فرنسا ؛ وانه لجنان كبير جميل يا بنيتي رحمة وان أخاك لم ينسني أبدا منذ وفاتي ، ويصلني منه خير كثير ،

طائفة من ادعيتها :

1) الله يعمر قلبك بخوف الله 2) الله يعطيك القناعة في القلب 3) اللــه يفتح لك أبواب الخير 4) الله يجعل الناس يخدمو وأنت تأكل

أما دعوات الرضا، فلا تدخل تحت العد والحصر.

فرحمة الله عليك يا أمــاه ورضوانه وأجــدد لك العهد أنني سأواصل الدعاء لك أثر صلاتي الغداة والعشي واتصدق وادعو لك ما دمت حيا ، وان أنا رجعت الــى البقاع المقدسة للمــرة الثالثة أو أكثــر ان شاء الله فسأعتمر عنك على الاقل ، بعد أن حججت واعتمرت لك في المرة الثانية ، وأدعو لك في كل مكان مقدس ان شاء الله

ومن حكمها :

1) قلت لها ذات مرة : كم يحيرني – يا أمي – اني أكرم بعض الناس فيسيؤون الـي !

فقالت : – بداهة انك تشبعهم من كلامك فيتجاسرون عليك !

2) وكنت كلما استبطنت بعض المظاهر من التصرفات ، قالت :

« يا ولدي.. انك قوي الاحساس ، ذو طاقة لاستبطان مظاهر تصرفات الناس ، فتصعب معاشرتك فالناس يا ولدي منهم من يفهم كما تفهم أنت.. ولكن يكتم فهمه

ومنهم.. وهم كثيـرون – بعيدون عـن فهم أسرار التصرفات.. فان الصراحة تسيء الـى العلاقـة بينك.. وبينهم فمـا كـل الناس يقبلون استبطان تصرفاتهم !

قلت : ان من بـواعث « صراحتي » ان بـعض الناس يتوهمون انهم : « مغلفون » فيتقمصون غير شخصيتهـم الحقيقية فـاذا لم يكشف الستار عن حقيقتهم ، امتطوا صهوة التيه والدلال

فلا سبيل الى التفاهم معهم الا بازاحة الستار عن حقيقتهم ، لكي يقفوا عند حدودهم ، والا فاني أومن بأن العاقل : هو الفطن المتغافل.

ولكن ما ذنب (صراحتي) وأن أكثر الناس لمزيفون ؟ !

3) قالت لي ذات مرة.. وربما مرات : كيـف تكتشف بعض الحقائق من خلال كلام الناس ، أو تصرفاتهم ؟؟ !! فقلت لها : ان لكل شيء عناصر تتكون منها ماهيته ودقة الملاحظة تفرز الطفيليات التي يضيفها « المزيف » للماهية. ومهما يكن الانسان ماهرا فـي التزييف ، فان دقة الملاحظة تكشف الحقيقة ولو الى حين. ومهما تكن عند امرىء من خليقة « وان خالها تخفى على الناس تعلم »

طريفة : كانت تقول لولدي عبد الحميد : ادرس العلم الذي يكون له « اسم » وتعني الطب والصيدلـة والهندسة ، ومعنى ذلـك أيضا ان يدعى صاحبه بـ : الطبيـب ، والصيدلـي ، والمهندس قـال لي ولدي عبد الحميد : لم أكن قد فهمت ذلـك حتى تخرجت مهندسـا معماريا مستقلا عن القطاع العام.. ورأيت غير ما ذكر من الدراسات قد تزوجت البطالة وما في مستواها فيرحم الله جدتي.

الحالة الاجتماعية بعدوتي وادي ورطاس

في ظلال القرآن :

ينشأ أطفالنا بين أسرهم الخاصة في أجـواء دينية ، وتقاليد يجهلون هم أسرار : « مشروعيتها » وتاريخ تشريعها ، فمعظم الأسر يستيقظون مع أضواء الفجر أو دونه بقليـل لأداء صـلاة الغداة ، فتتنـاول طعام الفطور فالانطلاق الى استدار موارد عيشهم ، وطائفة قليلـة منهم يحضرون صلاة الغداة جماعة في المسجد ، وفي غيرها يرتفع عدد حاضريها. فجوار المسجد ، هم الذين تتيسر لهم الصلاة جماعة.

فأطفالهم يسمعون الأذان منذ فجـر وعيهم ويشهـدون صلوات أسرهم ويسمعونهم يقومون ويتعدون بالله ورسوله أو يقومون ويقعدون بشيوخهم ! أو بمن عدفوا بالولاية والصلاح وذلك أحد الجوانب الدخيلة على الاسلام،والتي لا ريب انها من «تشريعات» العامة والتي هي من «الوثيقة» الخفية ، وان كانت تلهم التقدير لذوي الولاية والصلاح. وتكون في الاطفال شعور وأخلاق التقدير « لأهل التقوى »

والى جانب ذلك ، يتكونون على ايمانهـم وأقسامهم بعدد من الأولياء والصالحين ، لانهم سمعوا أسرهم يقسمون ايمانهم بهم والطفل نقلة لدنية ، تثمر بما لقحت به من ألوان الأخلاق.

وسمعت ـ ولما ازل طفلا ـ انهم : أي الكبار يعللون قسمهم بغير الله تحريا لدينهم لان الله شأنه عظيم فلا ينبغي القسم به الا حين يتأكد المقسم من صدق ما أقسم به ، ودون ذلـك يقسم بالأوليـاء والصالحين وشأنهم سهل ! ومنهم من جرى على لسانه اليمين بغير الله لتأكيد قوله فقط

ومع هذه التعليلات العنكبوتية كلها. فهـي مخالفة للحديث الصحيح : « الا ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حانفا ، فليحلف بالله أو ليصمت » فلا يجوز الحلف حتـى برسول الله صلـى الله عليه وسلم ، ويالما أكثر من يحلفون به جهلا بأخلاق الاسلام.

نعم.. حتى اذا بلغ الطفل سن فهم مـا يقال له ، ألحقه وليه بالكتاب القرآني ، والكتاب القرآني يكون دائما ملتصقـا ببناية المسجد ، ومفروشا بنفس فراش المسجد : الحصر ليس الا.

وبدون شعور ، يلقـن الطفل بساطة الاســلام ووضوحه وخلوه من كل تعقيد. وبنيابة أي مسلم عن الامام في الصلاة ، يتكون في الطفل شعور غير مقصود بأن الاسلام لا يشترط في العبادة والاتصال بالله أي شخص معين ، وانما يشترط في الامام أن يعـرف أحكام الصلاة والأمامـة بحيث يستطيع أن يأتي بهيئة الصلاة الاسلاميـة ويصلح مـا عسى أن يعتريـه في صلاته دن أخطاء ، وبذلك ، فكل مسلـم له الحق فـي الأمامة بصفة عامة لما تقرر من احقية أحدهم على الآخر بعوامل معروفة فـي كتب الفقه الاسلامي ككون هذا اعلم من الآخر وأتقن الـخ...

وهكذا ينشأ الطفل في شبه ظلال تعاليم القرآن الكريم ،وعبرت بكلمة « شبه » ، لما يدنس هذه الظلال القرآنية من رعونات التقاليد الجاهلية.

ومن الأطفال من يقدر لهـم اجادة القـرآن الكريم ، وهم قلة قليلة ، ومنهم من يكون دون ذلك ، وهـم طبقات ، غير ان معظمهـم يكتبون ويقرأون ، وفيهم من يحفظ السور القصار ، وقليـل منهم عندنا بالعدوتين أميون ، فيما أتذكر الآن. اما الاناث فقد حرمن اذ ذاك من تفيىء هذه الظلال ، لذلك كان بعضهن من ذوات الوعي يفضلن الصلاة مع أزواجهن فيضربن عصفورين بحجر (1) يحملـن مسؤولية الصـلاة أزواجهن (2) ويكتسبن محبتهم واحترامهم وثقتهـم في دينهـم وعفتهن وطهارتهـن ، فيقبلن على طعامهن في كل ثقة بطهارته ، فتاركة الصلاة وان تشكلت في صورة النظافة، فهي أبعد عن النظافة الاسلاميـة ، وأدنى عفونة تـاركات الصلاة ما في آباطهن واقبالهن ، علاوة على اهمال الغسل مـن الجنابة ، أي عدم الاعتناء الضروري بالغسل اثر كل موجباته ، مع ملاحظة ان الغسل من الجنابة ، أي عدم الاعتناء الضروري بالغسل اثر كل موجباته، دون قصد ازالتها لا يرفعها فقصد ازالة الجنابة فرض أساسي في حيـن أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول أو كما يقول : ان تحت كل شعرة جنابة ، فالمعروف ان النطفة لا تخرج من القبل فقط ، ولكن من جميع مسام الجسد. ولذلك يتعين شرعا غسله جميعه.

وبعيش الاطفال في ظـلال القرآن في الكتــاب ، أو فيما يشبه ظلال القرآن خارج الكتاب ، لن يستطيع أحد أن ينتزع من قلوبهم الايمان بالله ورسوله ، برغم اجماليته وطفيلياته.

في هذه الظلال بكامل اطارهـا الحق والباطـل ، عشت الى ان حفظت القرآن الكريم كله.

الــولائــم :

آل ورطاس يتزوجون من نساء العدوتين، والغريبات قليلات جدا، بل أنهم يتزوجون من خصوص بطونهم وقليلا « منهم يتزوجون من غير بطونهم » فالطاهري يتزوج من الطاهرية ، واليوسفي ، والحاجي ، والعمراوي ، والعبدي كذلك ، وحتى حينما يتزوجون من الغريبات , فاما من ذوات الخؤولة ، واما من بطن من غير آل البيت ، وبذلك لا يكون الصداق عقبة في وجه الزواج ، مضافا اليه أن الآباء حريصون على تزويــج بناتهم حتــى قبل البلوغ تلافيا لمرحلة المراهقة التي تتعلل بها فتيات هذا العهد المشؤوم.

والى جانب ذلك ، فان العروس اذا ما تبين أنها غير عذراء ، فانها تخرج «مبني للمفعول » ليلا مــن المنزل فــي حالة شنيعة وقد تلبــس بالرغم عنها قطعة من «الحصير» هذه العاقبــة هي التي يخشاها الآبــاء فيعجلون بتزويج بناتهم غير آبهين بمستوى الصداق ، وتشدد بعضهم ، يستهدف اشعار الزوج بأن ولي الزوجة من ورائها ، فلا يغرنـه من التشدد انه بمجرد ما يتوصل بالصداق المرغوب فيه ، انه نفض يده من ابنتــه يفعل بها ما يشاء ، ويؤكد له ذلك « بالشــوار » الذي يكون اكثر من الصداق.

وعاقبة « البكارة » تحرس صاحبتها من الانزلاق في مهاوي الرذيلة.

وبمجموع هذه الاعراف ، وبتكــوين البنت العروس علــى سنة والدتها باحترام الزوج ، وبما يحدث للزوج من صعاب اذا طلق وأراد استبدال زوج مكان زوج ، تصير الرابطة الزوجية في منتهى التلاحم ، وتقل اصابات الطلاق جدا. عشت خمسة عشر عاما بين عدوتي ورطاس ، وقريبا من اليقين اني حضرت اصابتين من اصابات الطــلاق ، احداهما كانت نتيجة ,وجه الشغار » وثانيتهما تبين ان العــروس غير عذراء ، أما الأولى فكان الانفصال نهائيا وأما الثانية فبعد حين وجدوا لها « مخرجاً » ؛ ربما قيل أنها ولدت في «عاشوراء » ؟ ؛ لا عذرة لها والعذرة بفتح وسكون وفتح : , البكارة » بفتح الباء لان صاحبتها هــذه ، كانت ابنة عــم الزوج المنكوب ، وللعم مكانة اجتماعية ، ترتفع الى الاعتقاد بولايته ، فأشفقوا على « قيمته » وبحثوا عن , مخرج » فاسترد الزوج زوجته وأنا أعرف وأذكر جيدا أسرتي الاصابتين ولا مبرر أصلا للكشف عنهما هنــا على أنني سمعــت بأنها طلقت نهائيا

الخطــوبــة

تبدأ الخطوبة بارسال امرأتيــن مثلا الــى والدة المرأة لاسترضائها ، وتطييب خاطرها بأعذب الحوار وما يلائمها من الهدايا ، وأثناء ذلك ترى الخطيبة تتحرك ما بين السمــاء والارض لترى ذوي الخطيب أنها قادرة على

اختراق الآفاق ، وما خاتم سليمان بأكثر منها سرعة في ادارة حياة المنزل وما وراء آفاق المنزل ، الى اناقة أفرغت فيها كل ما تعرفه من ألوانها ، وكلها اذان لالتقاط كل شاذة وفاذة ، لتخبر خطيبها بكل شيء ، لانه يعايشها بين المجموعة السكنية المشتركة أو خارجها بالعدوتين ، وتختم الوالدة حوارها مع زوارها باحلة القضية على والد البنت.

وفي هذه المرحلة يأتي دور والد الخطيب الذي يرسل أحد أقاربه أو أصدقائه الى ولي البنت لاستيذانه في زيارة لطلب يده ، وطبعي أن يكون الولي على علم من الامر من قبل ، حيث أن زوجته أخبرته بكل شيء وأوحت اليه بالقبول ، فيذهب ولي الخطيب مع رفقة له الى ولي الخطيبة ومعه ما يلائم من الهدايا ، وتقل الهدايا وتكثر كما وكيفا حسب سعة الأسرتين وضيقهما ، وتمر ساعات سعيدة في منزل الولي.

ومن تاريخ قبول الولي ، تنقطع الصلة بين الخطيب وأسرة خطيبته ، فلا يسلك أحدهما فجا الا سلك الآخر فجا آخر ، صيانة للوقار وخوف التبذل والابتذال ، وذلك من شأنه — محققا — أن يسهم في تمتين العلاقة الزوجية ، لان والد الزوجة ، يعتبر أبا ثانيا ، فيعامله زوج ابنته معاملة الوالد تقريبا ، بل أكثر من معاملته لوالده ، ونفس ذلك بالنسبة لوالدة الزوجة ، فلا مراء ولا حديث خارج منطقة التقدير الأبوي من طرف الصهر ومن طرف والد الزوجة أيضا.. وقبل يومين أو ثلاثة لحفلات الزواج يقع العقد باذن القاضي واشهاد العدلين وفي ليلة زف الزوجة الى زوجها يقصد ولي الزوج مع رفقة له — ليس من بينهم الزوج. منزل الزوجة حاملا معه ثيابها « وصاغتها » وما بقي من صداق وهدايا من الملح الى الخرفان أو الثور ، وتقام حفلة رائعة بمنزل الولي وخصوصا حينما يكون من ذوي المرح وسعة الصدر ، بينما الحفلة رائعة في دار الزوج ، وحينما تتعدد الحفلات في العدوتين ، تبلغ الروعة أوج صورها.. لا سيما وان الولائم لا تقام الا أثناء الصيف أو الخريف وحينما تكتمل دائرة البدر ، حيث يرسل أشعته الفضية على العدوتين ، وهما يمرحان ويحبران بين ظلال أشجار التين واللوز والخرنوب والبرتقال ، وسواقي «العين» تنساب مياهها في دلال ، وتتكسر بين الملتويات والصخور ، ونقيق الضفادع يكون سمفونية في أوج تموجاتها وانسجامها ونغماتها فتستخف المشاعر والوجدان ، بينما تسمع الزغاريد منطلقة في ألحان « عذبة » تردد أصداءها واجهتا العدوتين ،وأسراب الأطفال والشباب ينتقلون من حفلة الى أخرى وهم يرتدون أحسن ما عندهم من الثياب ، والكل في غفلة مطبقة عن نوائب الزمان ومصير الحياة ، فكأنهم أخذوا عهدهم على الله أن يخلدهم في الحياة ، ويشملهم من الولادة بكامل العافية وأنواع النعيم.

اللقـاء الرائـع :

عادة ان العروسين لا يلتقيان ليلة العرس ونهاره وانما يكون أول لقاء في ضحوة اليوم الثاني ، وفي بـاب منزل العروسيـن تسلم الى الزوج « بيضة » ليضرب بهـا الحائط الخارجي بعنـف ، وتتلوها زغاريد ، ثم يجد على العتبة آنية فخارية مليئة بالماء يقذفها برجله قذفة عنيفة فتتكسر نهائيا.

ولماذا ؟ ج : ـ قد يكـون أحد «الفقهـاء او احدى الساحرات ، قد كتب أو كتبت أو « نفثت فـي العقد » ما يحـول بين الزوج وملابسته زوجته ، لسبب أو أسباب ، وتحطيم ، البيضـة » و« الغـراف » بعنف ، رد فعل لابطال مفعول التميمة « للنقيه » ، وحـل عقدة النفاثة في العقد ثم يدخل الزوج الى « حجبته » حيث تكـون الزوجة بيـن اندادها من الابكار فقط ، ويهدي اليها هدية رمزية ، كثيرا ما تكون نقودا.

ليلـة الدخـول :

وليلة ثالث يوم العـرس يدخل العروس بعـروسه وقد يكون الدخول ليلة الثاني

وحينما يحين الدخـول الذي يكـون غالبا في الثلث الثاني من الليل ، يكون سكان العدوتين كلهم في انتظار سمـاع النشيد التقليدي الذي ينغم بأنغام خاشعة رائعة ، تحمـل الثيبات علـى البكا تذكرا ليلتهن الخالدة ، والأبكار للتشـوق اليها على أحر من الجمـر ، مع ما يشتمل عليه من الأدعية والاقرار بالوحدانية والنبوة ونهاية حياة الانسان ، والدعاء للآباء والاجداد، تذكيرا للسامعين بأن هـذه الحياة الدنيا بروائعهـا واروع منها ليلة لقاء العروسين ، ما هـي الأمتاع قليل ، وظل زائـل ، ووديعة مستردة ، فلا ينبغي الاغترار بما يصادف الانسان فيها من ليال رائعة كليالي الأعراس.

ومن الابكار وأوليائهـن ما يحملهن هذا النشيـد على استعجال ليلة الدخول ، لينعموا بهـا على الاقل في هذه الحياة ، قبـل أن تحول المنون بينهم وبينها.

نعم يجتمع أقارب وأصدقـاء العروس الـزوج ، ويضعونه في وسطهم ويتشطرون الى شطرين : شطـر ينشيء وشطر يرجع ، الى ان يصلوا الى باب منزل العروسين وهم يمشون الهوينـا ، والنساء يزغردن باستمرار ؛ وفي باب المنزل يودعونـه فتستأنـف الحفـلات بالأهازيج الشعبية والنقر على الدفوف

وما هي الا لحظات ، حتى يقذفه العروس « بالخرقة » الملوثة بدم العذرة. وحينذاك يجن جنون الاغاني والدفوف والزغاريد واطلاق البارود ، وتسرع مرافقة العروس الأنثى لايصال « الخرقة » الى والدتها التي تكون قد هيأت الهدية لبنتها التي « حمرت وجهها » بصيانة عفافها الى اليوم الموعود ، فترسلها حالا الى والدتها بما ذكر ، ثم تؤوب الى الفراش مع زوجها ، وكلاهما يشكر الله ويحمده على هذه النعمة ، نعمة عفاف بنتهما لان من شأن العذراء ان يخلد حبها لمن أزال عذرتها ، وفي ذلك ضمانة أساسية للحياة الزوجية في السراء والضراء.

والى القارئ ما علق بذاكرتي من النشيد أيام الطفولة :

كلام الله حق علينا	**مولاي محمد هو نبينا**
كلام الله حقا يقول	**مولاي محمد هو الرسول**
ارحمنا يا الله ، وارحم شبابي	**الساكن الليلة تحت التراب**
ارحمنا يا الله وارحم جدودي	**الساكنين الليلة تحت اللحود**

ويعاد كل بيت مرتين ، والجماعة تسير في اتجاه المنزل في تؤدة وهوينا ، ولا يغني هذا النشيد ، الا من أعطى حنجرة موسيقية آسرة ثم تقام حفلة اليوم الثالث الذي تتمنطق فيه العروس الأنثى ، حيث أنها تزف الى عروسها غير متمنطقة ، ومنهن من تكون بارعة في الغناء ومحاورة الدفوف ، فتغني في يومها الثالث بما يهز النفوس ، ويطرب القلوب ويرهف المشاعر ، وتكاد أغانيها تستهدف عروسها مباشرة، أو بصفة غير مباشرة وتسمع أصدقاءه يقولون له : هنيئا لك يا مولاي السلطان، هنيئا ، ولا تكاد العروس الانثى تسمع هذه التهاني ، حتى يجن جنونها ، فتسمو في تغزلها بزوجها ايما سمو ، في رقة صوت ، ولطافة ترجيع ، فتجن جنون العروس الرجل ، ولا يشعر الا وهو حامل بندقيته بين صفوف الرجال الراقصين ازاء صفوف النساء المغنيات ، وتكاد الابكار ان يمزقن أثوابهن بهذا المنظر الرائع ، امرأة في منتهى الأنوثة وطهارتها ،والرجل في منتهى الذكورة والمرح ، وكلاهما في حب متقارض ، ورقص رائع ، أو حب هيامي عبق بالصفاء والحيوية ! ثم تقام حفلة اليوم السابع مثل روعة الحفلات السابقة وتكون مسك الختام.

يــوم حــب الــرؤوس :

اشرت فيما سبق من صدر هـذا الباب الى انــه بمجرد ما يقبل الولي الخطوبة الا تنقطع الصلة بين الخطيب وبين ولي الخطيبة ، فالى م هذا الانــفصال ؟

لا يجعل له حد ما ، الا بعد أن تمر أيام شهر ، أو شهور ، على حفلات العرس ، وقد يصل الى سنة !

وعندما يتقرر الاتصال بين العروسين ووليهما تقام حفلة في ليلة شيقة، ينفق فيها الزوج الشيء الكثير ، حيث يصطحب معه الى منزل ولي زوجته أكثر ما يجب من ألوان الطـعام والهدايا المتنوعـة ، يرافقه بعض أقاربه وأصدقائه ويستدعــي الولي بعـض أقاربه وأصدقائـه ، وقد تتحول الحفلة العائلية الى حفلات أهازيـج.. ولكن نـادرا ما يقع ذلـك ولا يتجاوز مقام العروسين عند الولي أكثر من 24 ساعة.

فالعادة أن يأتوا في وقت الأصيل ويرجعـون الى منزلهم غده في نفس وقت الاصيل ، حتى لا تتدخل شيطنة النساء في حياة الزوجين الجديدة ، والعروس العاقلة، تكون أكتم لما رأت وسمعت في منزل زوجها من « الشرطي الحـــر ».

وتكون الأم في كامل اليقظـة لمراقبة كل فتاة أو امـرأة تريد ان تسر الى العروس بشيء مـا كنصيحة أو ان تستطلـع أسـرار حياتها الجديدة ، ومع ذلـك فلا يزيـد العروسان علـى 24 ساعـة فـي منـزل الولي وبطبيعة الحال ، فان الصهر يقبل رأس ولي الزوجة ورأس والدتها ويهدي لهذه فقط ، ويقدم الولي هديـة لابنته بقـرة أو عجلة ، أو ماعزا مثلا. وهذه العملية تسمى : حـب الرؤوس وبالشلحـة « تيمـذولت » بكسر التاء وفتح الميم وسكون الذال وفتح الواو وسكون اللام والتاء ، وبها يجعل حد للانفصال التقليدي ، ثم تستأنف الزيارات بمقدار غير ممل ولا مبتذل ، وفي كل زيارة يصحب الزوج معه هدايا متنوعة ولا يزور أبدا زيارة العمود للماء ويصبح ولي الزوجة محترما عند الزوج ، فلا مراء ولا جدال ، ولا نقاش ، ولا محاسبة، وانما هو كلام لين طيب فـي جلسات قصيـرة ، كأنها جلسات الخطيب ، ومثل ذلك مع اخوة الزوجـة واخواتهـن وعماتهن وخالاتهـن ، وله متسع أنواع الأحاديث مع أصدقائه ، هذا هو المستوى المحترم ، ودونه طبقات في التبذل مع الاصهار ان كانوا ضعفاء الشخصية وياما أسعد الزوج ان كان لزوجتـه أخ ذو شخصيـة ، فانـه يكتفي بـه عن ولـي الزوجة في كل علاقاته بأصهاره.

1) درقاوة) ومؤسس الزاويـة الحاج محمـد الهبري الكبير العزاوي ومقرها بـ « الضريوة » قـرب السعيديـة : أوراد وسبحات في العنق ، كل حبة كحبة العناب ورقص بالطبل ، وشهقات ، وصيحات ، وخلوة بالتحنث، باسم الجلالة حتى ينحـرف العقل عن طبيعتـه ، ويأخذ صاحبه في الهذيان والبهتان ، وهذا المذهب هو أكثـر الأنصار والمريديـن بالعدوتين ، وما ابتلـى أحدهم بالخلوة ، والا وعافـاه الله مـن شرهـا في الجملة ، وقليل هم الداخلون الى الخلوة والناجحون من مصائبها عقب الفراغ من ملازمتها سبعة أيام ، وكنت استثقل هذا المذهب في طفولتي بشعور فطري وذات ليلة رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، يرتدي جلابة ملف أسود ، ربع القامة وفي يده « لواء » تلمع قبة حديدية أو عصاه نورا ، فسألته عن هذا الرقص بالطبل ، فابتسم مستنكرا فيما فهمت منـه ، ورأيته بعد هذه المرة احدى وعشرين مرة الى الآن ، وكلمني في ثنتيـن منها 1) قال لي : أقدم اليك أبا بكر الصديق ، وكان عن يساره ، وهذا عبد الرحمن بن عوف ، وهذا عمي عبيدة بن الحارث ، وقلت في نفسي في النوم ، انه ابن عمه شهيد بدر ولكبر سنه دعاه بعمي ، وقبل أن يقدم الي من ذكر ، قال بشرى مرتين ،ثم مرت علينا زوجتي حاملا ، فأعاد قوله بشرى مرتين وكان ذلك ليلة الاربعاء تاريخ 1984هـ 1964م وليلة الخميس ولدت لـي بنت سميتها « بشرى » ملأ الله قلبها بالتقوى والصـلاح ، ثم رأيت أبانا ابراهيـم عليه الصلاة والسلام مرة واحدة ، الى الآن ، قال لي رفقاؤه بايع ابـاك ابراهيم ، ووقف ووقفوا معه للمبايعة وهو ينظر الي في ابتسام ، وقلت له : أخاف أن يغرر بي ابليس فاقرأ معي آية الكرسي ، فقرأها وقلت له : ابسـط يدك أبايعك ، فبسطها فبايعته , وانصرفوا ».

2) **الطيبيـــون :**

مذهبهم ومقرهم الرئيسي بمدينـة وزان ، والقـائمون به من آل البيت الادريسي ، والطيبيـون نسبة الى الطيـب ولعله هـو جد صديقنا العلامة الأديب الشيخ الخطيـب السيد الحاج عبـد السلام بن محمد بن « الطيب » وليس لهذا المذهب عندنا « شعار » خاص كالدرقاويين الذين لهم «شعارات» كالضرب على الطبل أثناء , الحضـرة » الرقص ، والشهيق والصيحات أثناءه وعدم شرب « البن » القهوة وعـدم طرح الكأس علـى الارض الى غير ذلك من الشعارات مثل « الخلوة ».

وكل ما في الامر « أوراد » خاصـة ، واجتمـاع في يـوم الجمعة للأوراد والذكر جماعيا.

ورئاسة فرع هذا المذهب في « أولاد سيدي رمضان » عندنا ، ومقدم « الطيبيين » الورطاسيين هو المرحوم المقدم السيد بلحاج محمد بن الطيب العمراوي و«مقدمة النساء» جدتي لأب المرحومة بالله حليمة ابنت القاضي المرحوم بالله السيد بنعبد الله بن المختار بن الحاج علي بن محمد بن يعقوب الى عبد الله بن ادريس رضي الله عن الجميع.

3) الموساويون :

3) الموساويون نسبة الى سيدي أحمد بن موسى في أقصى صحراء فكيك.

وشعاراتهم التجمع في فصل الربيع مساء كل خميس دوريا عند المريدين أو بالمسجدو«اخفاء» السبحة في ثيابهم فلا يضعونها لا في أيديهم ولا في أعناقهم ، وأورادهم من نظم شيخهم تشتمل على أمداح للنبي صلى الله عليه وسلم وهي منظومات ذات فقرات وبالدارجة ، تتخلل بترديد اسم الجلالة بضعة دقائق ويسهرون من أول الليل الى ما شاء الله ، ومقدمهم » السيد عبد المومن بن الحاج محمد بن عبد المومن الورطاسي العمراوي رحمه الله.

وهذه بعض النموذج من النظم المشار اليه ، بقي عالقا بذاكرتي منذ الطفولة :

لكان مانبي مانكونش الدنيا ما يكون لا ارض لا أسماء لا بحور ولا ودان

وهذه الفقرة يعبر عنها البصري بقوله : لولاه لم تخرج الدنيا من العدم والضمير يعود على النبي صلى الله عليه وسلم :

أجي انقولك يا تابع الدنيا النوم الحلو ماكانش منوا

والترجمة : تعال أقل لك يا متلهفا على متاع الحياة الدنيا ،فالنوم الحلو ، لا يرجى منه خير أي ان متاع الدنيا حلو كالنوم ، ولكن لا خير فيه، فالعمل للتزود بالتقوى لعالم الخلود هو الذي يستحق الاهتمام والتلهف.

وكل الفقرات تتمدح بعظمة الرسول صلى الله عليه وسلم الى التمدح بعظمة الله وانفراده بالوحدانية والصمدية والابداع والتصرف الاساسي في الوجود ، وتذكر بيوم المعاد، حاثة على التعلق بالله، ومضاعفة الجهود في العبادة وعدم الاهتمام بمتاع الدنيا وزخرفها.

وتمتاز أصواتهم الجماعية بموسيقى مؤثرة ذات رنات تأسر المشاعر، ودارجية فقراتها، تقرب معانيها الرائعة الى العامة حتى النساء.

فاذا ما حضرهم انسان ذو محبـة في الله، لا يستطيـع مفارقتهم حتى ينتهوا لا سيما وهم يرتلون فقراتهـم بين طيات الظـلام، فهم يطفؤون الشموع أثناء هذه الأمـداح ولا يوقدونها الا في فترات الاستراحة، الحق أقول أنني كنت مأخوذا بفقراتهـم أيام طفولتـي ، ومازلـت اتلذذ وأخشع لفقراتهم الى الآن، انها ـ وايـم الله ـ لتسابيـح رائعة تحمل السامع على اجنحتها الى عالم الهي لا نهائي..!

4 ـ السليمانيـون

نسبة الى محمد بن اسليمان صاحب زاوية «ندرومة» بالقطر الجزائري ولهذا الشيخ علم لا بأس به ، وشعر عمودي ممتع في الأمداح النبوية ،ويقال عنه انه كان يعطي « أورادا » علـى أربعة مذاهـب ، لم يبق لها من هو أحق بها ، هكذا روى لي والـدي رضي الله عنـه عن الشيـخ المذكور وسماعا منه غير مرة ، وليس لهذا المذهـب أي « شعار » وانمـا هي أوراد وأمداح في التجمعات. ومقدمـه في بني يزناسـن كلهم ، هـو المرحـوم مولاي أحمد ابن التهامي الحمداوي بوادي زكُزل رحمه الله ولعله توفي أثناء الحرب الكونية الثانية ، وياما أروعها من قامة ، واضوأه من وجه ! وارحبه من صدر ! والينه من حديث ! الى سماحة وكرم ووقار وهدوء.

وكان شيخه اذن له في « رقية » لعلاج اللدغ، ومن عجائب هذه الرقية : انه يكفي أن يشرب أي قريـب للملدوغ ـمن ماء الرقيـة ويضع بعضه على المكان الذي لدغ فيه الملـدوغ ، فيشافي الله الكريم الحليم ، الملدوغ اينما كان ، وأشهد بهذا امام الله.

والشرط الوحيد لشفاء الملدوغ ، ان لا يكون قد استعمل أي علاج أو رقية قبل ذلك.

ومما اذن له فيه شيخه : الدعوة على الظالم اثر صلاة ركعتين، وما سمعت عنه انه فعل ذلك ، فقد كان حلمه يحول دون الحاق أي ضرر بأي مسلم ، بالرغم ما قاساه من ظلم الولاة.

وكان شقيقاه المرحومان : مولاي الصديق ومولاي بنسعيد لهما نفس الاذن من الشيخ في الرقيـة والدعاء وعلمـت ان مولاي الصديق رحمه الله دعا على انسان فاستجاب الله دعـاءه في نفس اليوم ، فلقد سقط للمدعو عليه ولد صغير في البيـر ، وتوفي حينا ، ولكـن مولاي الصديق أصيب برزية أقرب الى رزية صاحبه ذلك انني أعرف صاحبه المرحوم بالله انه كان من أهل الخير والصلاح وهـو مولاي محمد بـن بوشتة رحمه الله وانه لم يظلم مولاي الصديق وانما اشتبه على مولا يالصديق ان مولاي محمد بن بوشتة

صاحبه كان له ضلع فيما كـان يقع من سوء تفاهـم بين مولاي الصديق وزوجه الهاشمية ، بنت مولاي محمد بن بوشته المذكور.

والحقيقة التي أعرفها جيـد ا: ان « الهاشميـة » وان لم أرها قط في حياتي ، كانت في ريعان شبابها وتتمتع كما يقال عنها حقا ـ بجمال فتان، وحيوية ، وأنوثة صارخـة ، ومـولاي الصديـق كان أكبر منها سنا ، فاستصعبت معه الحياة لتقدمـه في السن فقـط ، وان كان يتمتع برجولته التي قد تكون أقـرب الى حيوية الشبـاب ، ومـع ذلـك فقد استجاب الله دعاءه ولا أتخيـل ان مولاي محمـد بـن بوشته رحمه الله قد دعا على مولاي الصديق فحلمه وتقواه يحولان دون ذلك ولـم يكن مولاي الصديق دونه تقوى بكثير ، ولكنه كان عصبيا يأبى اي رائحة ظلم.

نعم ، لم يكـن في العدوتين مريـدون لهذا المذهب الا والدي ووالدتي المرحومة ، وعائشة بنت السيد أحمد بن قدور بن علي.

« وعلي » هذا ، هو الجد المباشـر لأبي عمومـة. ثم الحاج مولاي محمد بن بنسعيد الورطاسي والد المجاهد أحمد السرجان : « لقبا ».....

هذه هي أهم المذهـب التي كانـت بالعدوتين فـي وادينا نحن زاوية آل ورطاس

القسيـم المشترك :

والقسيم المشتـرك بين هـذه المذاهب ، المحافظـة على الصلاة وكثرة الاستغفار ، والأوراد المتنوعة ، وكانـوا اذا اعتنـق أحد مذهبا من مثل هذه المذاهب يقال : ان فلانا تاب الى الله ، فهو يصلـي ويذكر الله ، وأي شيء أكرم من هذه التوبـة التي ما « كسرهـا » أحد منهـم الا وناب واستغفر ، وهذا القسيم خير ما في هذا المذاهب،والا فأهلها عامة في معظمهم «وزيادة»..!

طابـع آل ورطـاس :

بالتواتر ينتسب سكان عدوتي وادي ورطاس الى « سيدي عبد المومن » صاحب الضريح بدوار تيزي يخلف فوق بحيرة ولوت جنوب ابركان بقرابة خمس كلم.. والمنتسب اليـه ينتسـب بالتواتر لآل البيـت الادريسي وبالتواتر أيضا انه قال : لا ربـح من فتـش في نسب آل ورطاس ، فكلهم أولادي ، والمنقول عنه حرفيـا : اللهلة يتربـح ال فتش في هذه الدربلة ، والدربلة : البرنوص ، وهي رمز عبـر به عن كون آل ورطـاس كلهم تحت جناحي برنوصه ، ولا بارك اللـه فيمن يميز بينهم أو يخدش في بنوتهم له أو نسبهم !

وقد اشتهر آل ورطاس بالتواضع والصلاح والبركة والقناعة بضروريات الحياة ، وقلة الفضول اجمالا ، والعيش من عرق جبينهم ، والابتعاد عن ذوي السلطة واستجابة الدعوة فيمن آذاهم.

وما مر أحد بواديهم الا ماشيا على رجليه ، يسوق دابته وهو يطلب التسليم الى نهاية مساكنهم !

وفي عهد طفولتي الى أوائل شبابي لم يعمل أي أحد مع الادارة الاستعمارية الا المرحوم السيد محمد بن عبد المومن التايه الحاجي الورطاسي في سلك « المخزن الاداري » من فرقة الخيالة وكان يتقاضى 1200 فرنكا شهريا ، وهو راتب من الأهمية بمكان في ذلك العهد ، وكان بعض المحافظين لا يأكلون طعامه بدعوى انه في ركاب الكفار ، ولم يكن آل ورطاس محترمين في واديهم فحسب ، ولكن اينما حلوا وارتحلوا وعرفوا انهم من آل ورطاس، وكنت أثناء عهد الطفولة اسمع : ان في هذا الوادي سبعة من أولياء الله وامرأة ، وانه لا يخلو عهد من هذا العدد.

وحينما استعرض في مخيلتي سكان الوادي في عهد طفولتي وأوائل شبابي أتصور كثيرا منهم أنهم كانوا من أهل الخير والصلاح 1 ـ الفقيه السيد البشير المسعودي الذي يتلو القرآن باستمرار حلا وترحالا. 2) الفقيه السيد التهامي بن محمد بن قدور بن «علي» وهذا جد أبي الذي عرف كذلك بتلاوة القرآن باستمرار وقيام الليل.

3 ـ والسيد أحمد بن قدور الطاهري الذي بلغ عمره ما يقرب من مائة وعشرين سنة حتى غاب عن الوجود في اخريات حياته ، فبالرغم من أميته ـ كان عابدا من ملازمي المسجد لأداء الصلاة جماعة مع اشتغاله بالتجارة بعيدا عن الفضول قليل الكلام ، الا لضرورة وفيه من خصال الخير الشيء الكثير وليس ذكر هؤلاء على سبيل الحصر. وانما نفسي حدثتني بأن هؤلاء بالخصوص كانوا من أهل الخير والصلاح.

أما النساء ، فأتصور الصلاح في ثلاثة منهن 1) رابحة التجينية زوجة السيد عمرو بن يوسف ذات الحياء العجيب ، والتواضع التام.والمحافظة على الصلاة ، واللسان الذي لا تسخره الا لطيب القول، وكأني أرى وجهها الآن وهو يتلألأ نورا.

2) يامنة ابنة السيد أحمد بن قدور بن « علي » من بنات العمومة وتوفيت دون زواج ، وقد استجاب الله دعاءها فحضرت أنا وشقيقي الحسين وفاتها ، ومازالت رنات آخر كلامها تدوي بين جوانحي ، قلت لها : يا عمة، ها أنا ذا حضرت وفاتك وأنت في حشرجة الموت. فقالت : سي قدور ؟ قلت : نعم ، فقالت الحمد لله ، وابتسمت وصدرها يهتز بعنف في صعود

وهبوط ، والمرحوم السيد محمد بن قدور بواليقشة من بني العمومة يلقنها الشهادتين ثم قلت لها : هـا هو سي الحسيـن أخـي ، فابتسمت وقالت : الحمد لله فعرجت روحها الى الله اثـر شهقة قصيرة ، وصلينا عليها غداة وفاتها ، فرحمة الله عليها ورضوانه ، فلقد كانت في مستوى عال من الخلق، تتأثر بالقرآن الكريم الى حد أنها اذا سمعتني وأخي نتلوه ونحن في العدوة الغربية وهي فـي العدوة الشرقيـة ، اذا سمعتنـا تنهض من فراش نومها وتجلس على عتبـة منزلها ولا نشعر بهـا الا وقد دخلت منزلنا مجذوبـة بعذوبة القرآن الكريم ، ولا تنام الا متى انتهينا من الاستظهار والتلاوة.

3) السيدة فاطمة بنـت الفقيـه المرحوم باللـه السيد الحاج علي الورطاسي الحاجي ، والدة صهرنا زوج الشقيقة رحمة السيد بنعبد الله بن محمد الوكتي ، هذه السيدة عرفتها امرأة كهلة في طفولتي ، ولما تزل على قيد الحياة ، وقد حج بها ولدها ، انها وايم الله ذات خلق ملائكي ، تزوج ولدها بشقيقتي منذ قرابة 33 عاما وجلست اليهـا مرارا ، فما سمعت منها شكوى ضد شقيقتي ، وياما أكثر ما تتشكى العجائز والنساء عموما من زوجات أبنائهن ، فان لم تكن لهـا الا هذه الخصلة بعد ايمانهـا بالله برسوله ، ومحافظتها على صلاتها ، وكثرة أورادها ، لكفاني أن أصفها بأنها ذات خلق ملائكي ، فمنذ عرفتها في طفولتي الى الآن ما سمعت منها ولا عنها الا طيب الخلق ، ولعلها اجتازت القرن بقليل ، واحدى يديها مشلولة منذ أوائل عمرها، وأجريت لها عملية في احدى عينيهـا ، وتعطلت نهائيا ، فما سمعت منها ولا عنها شكاية وتألما ، فلا تسمع منها الا الحمد والشكر لله واستنزال ادعية الخير لها والدعاء للمسلمين ولولدها وشقيقتي ولي ولأسرتي خصوصا.
فلله ما أكرمها وأنبلهـا ، أحسـن الله عاقبتها ، وبـارك في ذريتها وتقبل منها أدعيتها العامـة والخاصة ، ولا أحـرمنـي الله من استجابة ادعيتها لي آمين ولا أقصد بهذا العد حصرا ولا جرأة على الله الذي يختص بفضله من يشاء وهو أعلم بمن اتقى. (1).

صورة المرحـوم السيد ج
مولاي محمد بن بنسعيـد الورطاسي
شريك الوالد في المذهـب السليماني
بزاوية ندرومة.

(1) شحت رحالها الى عالم الخلود أوائل العقد الاول من القرن 15 الهجري وأوائل العقد الاول من القرن العشرين الميلادي.

كيف تكونت رحلاتي العلمية

لا أحد من آل ورطاس كان قد شد رحاله لطلب العلم في ذلك العهد ، ويبدو أن هنالك زمنا طويلا منذ انتهت الرحلات العلمية بين آل ورطاس ، فلم أجد الا فقهاء ذوي مبادىء اسلاميــة بسيطــة لا تعدو معارف الطهارة والصلاة ، وكنتيجة ، لذلك فان كثيرا من الخرافات والاساطير والطفيليات كانت تشغل حيزا مهما من أفكارهم 1) هذه روضة مولاي عبد القادر الجيلالي 2) هذه روضة سيدي أمحمد بن بوزيان 3) الشموع ازاء الاضرحة في الليل 4) الخرق تعلق ازاء الاضرحــة كالرايات 5) النقود تطرح في حفرة ازاء الأضرحة 6) استعمال العروس الرجــل للحناء في يــده 7) «الخيال» يسكن في المكان الفلاني وقد رآه فــلان وفلان 8) الذبائــح للأضرحة الى غير ذلك مما يتنافى مع التعاليم الاسلامية.

والى جانب ذلك فان العلم في ذلك العهد ، كان يقصد به طلابه عادة ، وفي الجملة ، الوصول الى خطة العدالــة أو خطة القضاء ، وما كان آل ورطاس لهم ميل الى الخطتيــن ، لانهما محفوفتان بالأخطار على تدينهم ؟ وكان بنو يزناس ـ عموما ـ قد ألفــوا أن خطة القضاء على الخصوص قــد استأثر بها : اخوالي أولاد بنيعقوب ، وأولاد سيدي رمضــان ، واولاد مولاي أحمد ، وآل الحافي ، وأولاد بن صالــح ، وأولاد بن العالــم ، أما خطة العدالة فلم تكن تخرج عن هذه البيوتات الا قليلا واستئناسهم بهذه البيوتات ، صار في مستوى القضاء الالهي بذلك.. اذن.. فــأي دافع دفــع والدي الى التفكير في ارسالي لطلب العلم ؟ لهذا أجبــت في ترجمته عن هذا السؤال بأنه الهم حب العلم ، فلم يتمكن من طلبه ، وانــذر أن يكون ذلك في ذريته ، ومنذ طفولتي وهو يعرب لي عن رغبته في وصول ذلك اليوم الذي أتمكن فيه من الجلوس الى العلماء ، ولم يكن يذكر لي الا ان يرسلني الى فاس.

وياما كان أسعدني حينما يؤكد لي رغبته هذه ، وكنت أصدقه على طول، كما يقول الشرقيون ، ومن كان يخطر بباله في ذلك العهد أن والده يكذب ، أو يعد ولا يفي ؟ فللآباء قداسة وأي قداسة في قلوب أبنائهم.

كنت أسعد جدا بما كان يعدني به مــن طلب العلم في فاس ، بالرغم عن عدم تصوري لتناصيل الرحلة ولا لما هو العلم ، ولا ما هو فاس ، ولا الى أين يقع في الوجود ، فــلا شيء يحملني علــى تصور أي شيء من ذلك ، ما دام لا توجد عندنا مدرسة علم ، ولا أن أحــدا من العدوتين رحل الى طلب العلــم.

انها سعادة عارمة غامضة ، ملكت على مشاعري ، كل ما كنت أتصور انه في استطاعتي أن أنال مــن العلم شيئا مهمــا مما كنت أحسه من قوة حافظتي وذاكرتي وتطلعي غيــر المحدود الــى الآفاق لكل ما ينمي مواهبي

التي كنت أعتقد أن الله أكرمنـــي بها ، على أن جدتـــي لأب ، والمقدم السيد بلحاج العمراوي كانا يقـولان لي ان لك لشانـــا في المستقبل ، وكنت أسعد بما يقولان لي، وأتفاؤل به خيرا،وسمعت ذات مرة خالي شقيق والدتي السيد الحسن رحمه الله يقول لوالدتي رحمـــة الله عليها : يا حلومة ان ولدك قدور « فائق بـــزاف » أي فطن كثيرا وسمعت كثيرا من مثل هـذا الثناء مما ملأ نفسي غرورا ورغبة في طلب العلم ، فالأطفال كالغواني : يغرهن الثناء.

كيف التحقت بمعهد وجدة ؟

حينما استنفذت ما كان يجب علي ان أعرفه من مبادىء عربية وعقائدية وفقهية على المرحوم سيدي علي العروسي ببادية بني منقوش ، أخذ والدي يفكر في الوسيلة التي تساعد على ارسالـــي الى معهـد وجدة أولا ، ثم الى فاس من بعد ، ولسلامة فطرته ، وحسن ظنه ، عرض أمنيته على بعض ذوي الرحم الذي كان قد التحق بالمعهد ، غير انه فوجيء بجواب جاف شرس لا صلة له بالأخلاق الانسانية ، فأخبرني والدي اذ ذاك بهـذا الموقف الذي وقفه منه ذلك « البعض » وكان يحدثنـــي وهو يلتهـب غضبا وألما ، ويقول « ما كنت أحسب ان «فلانـــا» يقف مني هـذا الموقف الذي لم يراع فيه حتى مالي عليه من فضل السن ، فضلا عما قابلته به مرارا من احترام واكرام ، ثم قال : ولكن.. ولكن.. والله لا فعلن كل شيء في سبيل ارسالك الى معهد وجدة ولوادي الى انفاق مالي كله في سبيل ذلك. لست أدري أمرت أيام أو اسابيع حتى جاءني والدي ووجهه يتلألأ بشرا وسرورا ويقول لي : سيدي قدور تهيأ للسفر الى وجـدة للالتحاق بمعهدها ، لقـد يسر الله كل شيء ، اسمع ـ يا ولدي ـ لقد اتصلت بالعدل الفقيـه السيد البشير بن عمرو بن قدور الوشكرادي وافضيت لـه بأملي فرحـب بالوساطة أيما ترحيب ، وقال لـي : أخي عبد الله من طلبـة المعهد ، وسيكون ولدك معه في غرفته ، اما انهاء عملية الالتحاق مع مدير المعهـد وناظر الاوقاف العلامة السيد أبي بكر ابن زكري فهي على ضمانتـي : اي ضمانة السيـد البشير المذكور ، فكن مطمئنا على ان ولدك سيلتحق بالمعهـد ولا يعترضـه أي مشكل أبدا ، وغدا الاربعاء ، أبحث عني صباحـا حوالي الساعـة العاشرة في مقهى «سيمو» بسوق الخميس بوجدة وستجد كل شيء قد انتهى ، كاد وجه والدي أن يكون ناصع البياض وهو شديد السمرة حتى تقترب جدا من السواد لما استولى على نفسه من سرور من جهة انهاء قضية ارسالي الى المعهد ، ومن جهة شعوره الملتهب بالانتصار على من خاب ظنه فيه .

نحن الان في شهر ربيع الاول ، او ربيع الثاني ، حوالي عام 1349هـ وسنة 1930م واليوم يوم الثلاثاء ، وغدا الاربعاء السفر مع والدي الى وجدة ولأول مرة في حياتي.

وفي مقهى «سيمو» المذكور ، كان السيد البشير ينتظرنا : أعني أنا ووالدي ، ثم التحق بنا هنالك السيد عبد الله الذي أمره أخوه السيد البشير رحمه الله بأن يرافقني الى منزل مدير المعهد بزنقة « المازوزي العفضية الى سوق الخميس الذي وجد فيه مقهى «سيمو» عليها النزل الكبير في ذلك العهد.

وفعلا اجتمعنا بالمدير وقدمت له هدية تقليدية مبلغها خمسون فرنكا ، وياما كان لها من قيمة ! فقد تساوي الآن في بعض الأشياء مائة الف فرنك فدعا لي المدير بخير ، وقال لي من أين أنت ؟ قلت من آل ورطاس فقال : أنت مومني ؟ فلم أفهم مراده ، فقال جدك سيدي عبد المومن ؟ فقلت نعم ، ومن تلك اللحظة لا يناديني الا (بالمومني) ، ثم توجهت مع السيد عبد الله الى غرفته التي كان يرافقه فيها المرحوم السيد الحبيب المعسكري وكان بينهما نزاع مستمر ، أما من جهة السيد الحبيب فقد كان جادا في نزاعه وخصامه ، واما من جهة السيد عبد الله ، فقد كان ذا دعابة ونقد لاذع ، ويستغل خللا واضحا في فكر السيد الحبيب فيادعبه في صورة الجد ، فيغضب السيد الحبيب ويشكوه الى المدير ، ولكن المدير يعرف الواقع من جهة وقيمة السيد البشير العدل أخي السيد عبد الله أعمق نفوذا لدى المدير، من جهة ثانية ، بما كان اشتهر به السيد البشير من كرم وخصوصا ازاء شيوخه ، وعلى كل حال فقد صرنا ثلاثة في غرفة. وهي الرابعة يمينا

العشاء الطلابي التقليدي

● من التقاليد الطيبة الجاري بها العمل بين طلاب هذا المعهد : ان على كل طالب التحق به ، أن يقدم عشر ريالات للطلبة ، بقصد تهيئة طعام عشاء التعارف ، وللطلبة « مقدم » ومساعد ، يقومان بتهيئة ذلك العشاء ، ومقدم ذلك العهد هو الطالب الأخلاقي الفاضل : السيد الحسين بن عبد القادر من شرفاء بني وكيل النكاديين ، ومساعده في ذلك العهد ايضا ، هو الطالب الأخلاقي السيد الحبيب الجزائرى المعسكري رحمه الله. والذي أرافقه في غرفته مع السيد عبد الله المذكور ذاك يقوم بمهمة الانفاق ، وهذا يقوم بمهمة الطهي ، وكلاهما من الخبرة بمكان في مهمته. ويقضي الطلبة في تلك الليلة سهرة نبيلة ممتعة تتخللها الأحاديث الطيبة وتتجدد فيها عهود الاخوة والصداقة ، بينما مرتل حسن الصوت ، يتلو القرآن الكريم من حين الى حين ، مع استدعاء الطلبة بعض ذوي الفكاهات البريئة للتسلية والترفيه عن النفوس ، ومن الطابع الرائع لطلبة هذا المعهد ، ما كان يسود بينهم من الاحترام المتبادل عموما، والصداقة الصادقة بين كل مجموعة بصفة خاصة.

لقد أقمت بهذا المعهد سنتين ونصفا ، فما أذكر أن طالبا أساء الى أخيه الطالب أو نشبت بينهما خصومة أدت الى التقاطع، فقد أكرمهم الله سبحانه وتعالى بحسن السلوك فيما بينهم ، واشتهروا باحترام أنفسهم حتى خارج المعهد ، فلا أحد يشير الى واحد منهم بالأصابع ، كما اشتهروا بالأناقة والاعتزاز بشخصياتهم بصفتهم طلاب علم ، ومن أجل ذلك ، كانت العامة والخاصة تتسابق لاكرامهم معنويا وماديا.

فحينما يستدعيهم أحد المحسنين المحبين للعلم وأهله ، ولذوي الاخلاق المحترمة ، يبالغ في اكرامهم وتقديرهم بالقدر الذي يعطي الأدلة القاطعة على صدق محبته وتقديره واحترامه لهم. وليس في ذلك من عجب، فما احترم الخاصة من أهل العلم ، بالخصوص أنفسهم ، الا وفتحت لهم العامة صدورها للمحبة والتقدير والاحترام ، وما أهان الخاصة أنفسهم وابتذلوها الا أغلقت العامة صدورها في وجوههم فتضطرب الحياة الاجتماعية وتتفكك الاوصال ، وتهن المواثيق وتضعف الروابط ، ويحل محل ذلك ، الاستهتار بالأخلاق الفاضلة ، وما استشرى داء الاستهتار واللامبالاة ، الا وكان ذلك ارهاصا لاختفاء هيبة المجتمع ، ثم استعداده في كل حين لتسلط التيارات الفكرية والاخلاقية الخارجية عليه ثم تسلط الغزو المادي السالب كرامة وعزة ذلك المجتمع وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله « وفي كل أقواله » دب اليكم داء الامم من قبلكم : العداوة والبغضاء هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر ، فوالذي نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تومنوا ، ولا تومنوا حتى تحابوا ، الا أخبركم بشيء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم » أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وبالمناسبة أقول : ان الناس لا يعرفون قيمة هذه التحية الاسلامية ، التي هي تحية أهل الجنة ، يوم يقول الملائكة لأهلها : ادخلوها بسلام آمنين ، والله يقول « ونزعنا ما في صدورهم من غل ، اخوانا على سرر متقابلين « أرأيتم كيف ارتبطت آية ونزعنا ما في صدورهم من غل بقوله تعالى ادخلوها بسلام آمنين ؟ فالتحية الاسلامية علاج الهي لداء الغل والعداوة والبغضاء ولكن الناس لا يعلمون.

مع مشيخة معهد وجدة

تمهيد :

يبدو من آيات الحداثة البينة على غرف الطلبة الارضية فقط ولا غرف علوية ، وقاعة الدروس ، ومكاتب النظارة ، يبدو من ذلك أن تاريخ هذا المعهد الاسلامي يرجع الى أوائل سني الاحتلال الفرنسي للمغرب ، أي عقب احتلال وجدة سنة : 1907 بالضبط

وكان في امكاني أن أتأكد بتاريخ انشائه بالضبط ، وما منعني من ذلك الا احتمال قضاء وقت غير يسير للحصول على الوثائق لا سيما وقد لاحظت أثناء بحوثي التاريخية ، أنني ألتمس مساعدة من بعض الناس لتزويدي بمالهم من معلومات ، قلت حينما ألتمس منهم ذلك ، أشعر بأن أوهاما تجتاح عقولهم حيالي ، حتى كأني أحاول أن أسرق منهم نفائس لاستغلالها لخصوص مطامع تتملكني ، وأفدح من ذلك ، اني طلبت من بعض الناس صورهم الفوتغرافية لأخلل بها كتبي عند التحدث عن تاريخهم الوطني، فلا يزالون يتلكئون ، ويراوغون ، ويسوفون حتى يتملكني اليأس منهم في حين أنني أسابق الزمان والاحداث لاتخلص من كل مالي من معلومات تاريخية ووطنية وثقافية ، بتسجيلها ، وطبعها لأقدم للأجيال صورا متنوعة عن العهود التي عشتها حسب امكاناتي المتواضعة ، وعن اعتقاد جازم، أعد ان ما أقوم به بهذا الصدد ، أمانة في عنقي ، فلا أبرأ منها الا متى سلمتها للتاريخ ، وخصوصا اذا ما تصورنا واقعيا ـ أن فراغا مروعا في مجالات متنوعة من حياتنا يجتاح مكتباتنا ، وفي سبيل محاربة هذا الفراغ القاتل ، أكتفي بتسجيل ما أقترب مأخذه ، ودنا قطافه ، وتيسر تناوله ، مساعدة لمن يكتب من بعدي على تمهيد السبيل أمامه، غير مكترث أصلا بما تعودته من الملاحظات المجانية الرخيصة ، والتي أعتبرها مجرد فضول تأباه أخلاق الاسلام.

هذه هي العوامل التي جعلتني أسارع الى تحرير ما يمكن تحريره من معلومات قدمتها الى ذاكرتي فقط لتأليف هذا الكتاب ، وشيء خير من لا شيء كما هو معلوم.

نعم اذا كان هذا المعهد الوجدي حديث العهد في بنايته ، وأساليب ادارته ، وهو أمر لا ريب فيه ، فمن المحقق ان الدراسات الاسلامية بوجدة ، لا يقترن تاريخها بتاريخ هذا المعهد ، بل ان هذه العاصمة الشرقية كانت قبل المعهد ، مركز اشعاعات علمية اسلامية ، منذ الفتح الاسلامي ، شأنها شأن سائر أقاليم البلاد ، وان الدراسات هنا كانت اما في المساجد واما في الزوايا ، وذلك هو الغالب في تقديري المبني على التقاليد التي عشت زمنا منها ، واما في حجرات خاصة ، من منازل العلماء ، الم يكن الامام مالك بن انس رضي الله عنه يلقي دروسه الحديثية والفقهية ما بين منزله وبين المسجد النبوي الكريم ؟ وطبيعيا أو بدها أن تسود هذه العادة في جميع الشعوب الاسلامية.

فالرواة الثقاة ، يحدثوننا بأن «وجدة» كانت تتوفر على عدة علماء ، يأخذ الطلبة عنهم مختلف العلوم الاسلامية ومن الذين كانوا يحملون مشعل العلوم الاسلامية قبل عهد الاحتلال بزمن قليل المحدث الشهير الفقيه

الحباني اليزناسني. رحمه الله ورضي عنه ، والفقيه المرحوم السيد محمد بن الحسين القاضي الذي أكاد أجزم أنه يزناسني وعدة علماء من أسرة آل البيت الحسيني الذين منهم السادة الحبيب بن المصطفى بن التهامي ومحمد الكفيف الضرير وغيرهم من العلماء الذين أدركتهم وأخذت عنهم وسأترجم لهم بما أملكه من معلومات ان شاء الله في هذا الكتاب تقريبا ، وان أمكنة الأخذ عنهم لا تعدو الامكنة التي أشرت اليها من قبل قريبا.

مع شيخنا العلامة المرحوم بالله سيدي أبي بكر بن زكري (1)

سبب استيطانه وجدة :

عندما التحقت بمعهد وجدة ، قيل لي عنه : انه كان مرشدا عاما في جيش الدولة فلما اقتضت الاوامر الملكية ارسال طائفة من الجيش الى وجدة ولست أدري متى كان ذلك ؟ صدر له الامر بمرافقة الجيش الى وجدة ولأسباب لم أعرفها ، استوطن وجدة ، وكلف بادارة نظارة الاوقاف هناك ، ثم رئيس المعهد المذكور ، وهذا كل مالي من معلومات عنه في هذه النقطة ، اما كونه فاسيا ومن علماء فاس فهذا أمر محقق لا ريب فيه.

صفته : قصير القامة ذو بطانة « بفتح الباء ، أبيض اللون ، ولعله كان يميل الى الشقرة ، وذو عينين ضيقتين بعض الشيء ، حاد النظرات مهابها ، أنيق الهندام ، في لباس وطني أبيض غالبا ، على هيأة علماء القرويين ، كان يبدو في عام 1349هـ 1930م انه ما بين الخمسين والستين من عمره المبارك ، ولم يعش عقب هذا التاريخ الا سنوات قلائل ولقي الله سبحانه وتعالى ، جعل الله قبره روضة من رياض الجنة آمين.

أخلاقه : كان بالرغم من هيبته ووقاره ، وتفتحاته ، واسع الصدر ، حلو الحديث ، مغرما بالنكتة ، يطلقها عفوا ، ويلتذ جدا بسماعها من أي أحد ما ، حازما متسامحا الى حد ، مع العلماء والطلبة ، وله شغف كبير باقتناء الكتب ، ولو تعددت النسخ اذا ما جد شيء في الطبعات المتكررة ، لذلك كانت له مكتبة عامرة دؤوب المطالعة والمراجعة ، لا يعتريه ملل ، تنقلاته لا تتجاوز بين منزله وقاعة الدرس ، وبين توجهه الى رئاسة الناحية لمقتضيات ادارية ، ولعله كان مستشارا في المحكمة الصلحية الفرنسية الابتدائية ونظرا لجسامته كان يستريح أثناء تنقلاته مرارا قبل أن يصل الى المكان المقصود ، وأثناء سيره البطيء تتنحى العامة والطلبة أمامه ، وبحيونه في اكبار وتقدير ، ويعتمد في مشيه على عصى جميلة ، ومع ذلك فهو يسير متمايلا ذات اليمين وذات الشمال ، والعرق يتصبب منه وحالما يبلغ منه التعب مبلغه ، ترى عينيه شبه جاحظتين ، ومن حين

لآخر ، يخرج لسانه ليبل به شفتيه الملتهبتين بالاجهاد ، وكان العلامة المرحوم سيدي الحاج العربي أحب العلماء اليه ، وكلما كان عالم ضيفا على أحدهما الا وكانا مجمتعين معه معا ، ومما أذكر من فكاهاته ، ورويت لنا - نحن الطلبة - فقط ، انه كان جالسا في بهو المسجد الأعظم القريب من الباب الشمالي للمسجد مع المرحوم السيد الحاج العربي ، والوزير الحجوي والجميع يتحدثون في موضوعات ثقافية متنوعة حتى أفضت الاحاديث الى مجال ما يستحسن من طبائع الزوجة ، قال السيد الحاج العربي : انه ينبغي أن تكون متفتحة مقدار مائة اكرام ، فعقب المترجم على قوله : بأنه يجب أن تتوفر على 150 لا مائة ، فقال الوزير الحجوجي بل يجب أن تتوفر على 250 غرام وفي سرعة خاطفة ، قال مترجمنا أن هذه الزوجة « قحبة كبيرة » فضحك الجميع ، وكان اذا رأى طالبا أنيقا من الذين لا يهتمون بالدراسة قدر الواجب ، « يعوجه » وينكت عليه ولا تنوته النكتة ضد أي طالب وما ذلك الا لما طبع عليه من المرح والدعابة ومع مرحه ودعابته فلا يجرؤ أحد على مبادلته الدعابات والنكت الا السيد الحاج العربي ، لانه كان يجله لعلمه ولشرف بيته ، وأصالة العلم في أسرته ، وكان يقول فيه : هذا عالم وجدة المفرد ولا نظير له ،

مادة درسه :

لقد كانت « الفية بن مالك » في النحو مادته التي يدرسها للطلبة بشرح المكودي في الساعة الحادية عشرة كل يوم باستثناء يومي الخميس والجمعة اللذين هما يوما عطلة أسبوعية كشأن المعاهد والكليات اذ ذاك.

ومن عادته أن يأتي الى المدرسة قبل ربع أو ثلث ساعة ، ويكون الطالب السيد محمد الورسوسي ينتظره ليفرش له لبدة يجلس عليها دون قاعة الدراسة ، ريثما تحل الساعة المعينة لالقاء درسه.

كيفية الالقاء :

قبل بضعة دقائق للساعة المعينة للالقاء، يتحلق الطلبة داخل القاعة على حصيرها كالعادة في كل الدروس التقليدية ، ولم يكن الطلبة في ذلك العهد يفترشون اللبد سوى «السارد » السيد عبد القارد البوتشيشي القادري الذي ألفها منذ رحلته الى القرويين ، فلما رجع الى المعهد صارت عادة له : أما سائر الطلبة فالحصير فقط ، أو مع الجلود الغنمية الصوفية «الهيدورة » ثم يدخل المترجم ملقيا نظرة سريعة على الطلبة ، الذين لا ينسى صورهم أن نسى أسماءهم ، يلقي هذه النظرة السريعة بكيفية عادية لا يشعر به الا من كان يعرف ان المترجم يستعرض بها كل طلبة المعهد لمراقبتهم حتى يتأكد ممن حضر ممن غاب ، ولمن غاب الزواجر التوبيخية القاسية ، ولكن

ما علمت انه طرد طالبا لتخلفه عن الدرس اكتفاء بالتنبيهات والزواجر الأبوية.

وبعد تلك النظرة يأخذ في القاء درسه كلمة فكلمة ، وفقرة ففقرة ، محللا « البيت » من الألفية بما في ذلك من اعراب وتقديم وتأخير ثم يحوله الى نثر واضح المعاني ، مستعرضا ما قاله المكودي مع حواشي « ابن حمدون » على المكودي ، ومن هنا يأخذ في اختراق الآفاق النحوية مستشهدا بالشعر العربي الجاهلي ونثره ناصا على المراجع والمثابت ، ذاكرا كل مرجع ومثبت باسمه.

واذا ما كان في البيت من تعقيد ، نشاهده واضعا سبابته على شفته السفلى وعيناه ترنوان الى الأفق ، وهو يحل التعقيدات والتضاريس، وما الى ذلك من غموض وابهام ، مخللا ذلك بقوله « آه.. آه.. رد بالك ،، شوف .. شوف .. وهو يتحرك في مكانه كتحرك البطل من على متن فرسه يحاول الوثوب والهجوم وهكذا يمضي في القاء درسه.

والطلبة كأنما على رؤوسهم الطير ولا يجرؤ على السؤال والاستفسار الا « السارد » السيد عبد القادر البوتشيشي ، حيث انه كان قد تمرن على ذلك بين حلقات الدرس في القرويين. وحينما يأمر «السارد» بالتلاوة ، نتأكد من انه لم يبق للساعة المحددة لدرسه الا مقدار ما يتلو «السارد» حصة الدرس وعند تمام التلاوة ، تسمع دقات الساعة الثانية عشرة الا نادرا ، وبسبب أسئلة واستفسارات «السارد» ، ودرسه لا يتجاوز شرح البيتين والثلاثة من الألفية الا نادرا، يكون وقت درسه قد انتهى مضبوطا بساعة واحدة ومما احفظه عنه أثناء درسه، هذان البيتان ، ولا أذكر لماذا كان ينشدهما لنا من حين لآخر :

خذ الشوك واغرسه على النهر يافتى
واسقه ماء الورد مع عسل النحل
فوالله ما تجني الا الشوك خالصا
فان رديء الأصل يرجع للأصل

وروي الطلبة لي ان « سارده» قبل الحالي المذكور كان السيد حمادي ابن الحاج حمو الريفي التمسماني الذي كان يدرس بوجدة ، ثم استوطنها ، وتولى خطة العدالة ، وتزوج هناك ، قلت ان هذا «السارد» كان المترجم يداعبه بهذا البيت :

« رأيت كل كية تكوي الكبود »
« فما رأيت كية مثل الشهود »

ثم ينظر الى السيد حمادي رحمه الله ويشير اليه بسبابته اليمنى ويقول : أي العدول تفسير للشهود ، وآخر لقاء لي مع المترجم شيخنا رحمه الله يوم الأربعاء ثالث عشر شوال عام 1351 الموافق 22 فبراير سنة 1932م حيث زرته في منزله لتوديعه الى فاس فدعا لي بخير.

فجزى الله شيخنا خير الجزاء ومتعه بكرمه وعفوه ورضى عنه وبارك في كامل أسرته ورحم الله من مات منها وأطال عمر ولده السيد محمد آمين.

مع شيخنا المرحوم سيدي الحاج محمد المازوني

(2)

أتصوره الآن وكأني أنظر اليه نظرة شاملة ضابطة لصورته ضبطا دقيقا : طويل القامة ، أبيض اللون ، نحيفا ، كلل الشيب رأسه ولحيته وعارضيه ، أسيل الانف، متوسط سعة الفم ، رقيق الشفتين ، لم تبق في فمه الا بعض الأسنان ، غائر العينين ، بارز الجبهة ، بارز تجاعيد الوجه ، بارز عروق اليدين ،أنيق الملبس الذي كان عبارة عن قميصين بسيطين ، رابطا منديلا أبيض بسيطا بخيط قميصه العلوية ، مع حائك وسلهام، متلثما بسائر عماته الى الشفة السفلى ، تعلو وجهه صفره نقية خالصة أشبه ما تكون بصفرة الاصيل الرائق الساحر ، تتجلى عليه آيات بينات من الوقار والهيبة والخشية والتقوى. أتصور انه كان قد تمتع بثمانين ربيعا من حياته أو تزيد قليلا ، فيكون اذن من مواليد حوالي 1270هـ 1850م، يمشي في الشارع مشيا وئيدا ،لا ينظر الا الى الامام ، والناس يحيونه وينحنون عليه للسلام وتقبيل يده وأطرافه ، وهو يدعو لهم بخير ، وقلما أشعر أحدا منه بأنه يعرفه ، كنا نحسبه وهو يمشي بين الأزقة والشوارع ويحرك شفتيه بما لا نعمله ، مادا بصره الى الآفاق ، برغم ضعف الرؤية كنا نحسبه يعيش في الدنيا بجسده ويعيش بروحه في العالم الواسع الاغاق ، لا يشعر بما وبمن حوله ، يقطع المسافة بين المدرسة وبين منزله غدوا ورواحا في مرحلتين ، حيث يجلس في المرحلة الاولى في دكان أحد تجار زنقة حمام الصابوني ويرد التحية ويسأل عن الأحوال في جمل يقتضبها اقتضابا ، ولا يتوسع في الحديث الا حالما يتعرف على انسان ما ، ويحدث أن يسلم عليه أحد صغار أبنائه أو بناته ، ويسأله شيئا ما ، فيسأله شيخنا رحمه الله : من أنت يا ولدي : فيجيبه : أنا ابنك فلان : أو بنتك فلانة ! فيبتسم رحمه الله ويلبي الرغبة أو يعد بها أن ذكروه بها ، ومن حين لآخر ، يسلم عليه شخص ما ، ويضع في يده دريهمات فيدعو له بقوله: الله يفتح عليك ، وهذا هو دعاؤه الدائم لكل من أكرمه ، ولا يسأل الناس شيئا ، كعادة جميع شيوخي رضي الله عنهم بالرغم ما كانوا يعيشون فيه

من عسر وشدة في بعض الاحيان ، باستثناء القلة منهم ، فما كانوا يتقاضونه من مكافأة حبسية لا يصل الى الخمسين ريالا ، وعلى أهميتها ، فموجبات النفقة كان أكثر منها .

وأصله الاصيل من قرية «مازونة» الشهيرة بالقطر الجزائرى الشقيق، ولست أدري ما اذ اكان هو نفسه الذي انتقل الى وجدة للاستيطان بها وهو الراجح عندي ، أم والده ؟

أما دراسته ، فقد تلقاها ، في قريته وعلى شيوخ عرفوا «بأولاد بوراس» من نفس القرية ، وقد اشتهروا بنشر الفقه الاسلامي ودراسة مختصر الشيخ خليل بالخصوص ، اما دراسة القواعد العربية ، فقد كانت قليلة جدا ولم تظهر الا في الثلاثينات من القرن الحالي فيما أذكر ، ومع ذلك فالمجازون من هؤلاء الشيوخ ، لم يكونوا يعرفون القواعد النحوية والصرفية الا من تعاطاها منهم في غير هذه القرية وهم قليلون جدا فيما أعرف ، على ان شيخنا المترجم رحمه الله ورضي عنه كانت له معرفة بالقواعد العربية ولم يكن يقوم بتدريسها في المعهد ، وروى لي انه افتتح درسا في «الألفية» للطلبة ، فأوقفه الرئيس المترجم السيد أبو بكر بن زكري بدعوى ان مترجمنا هذا لا يتقن القواعد العربية ! وشيخنا ابن زكري له كامل الحق في تصرفه هذا ، لانه كان يعد موسوعة فريدة في علم القواعد العربية.

ولا يعترف بها الا لشيخنا الحافظ سيدي الحاج العربي رحمه الله.

فما كان من مترجمنا سيدي الحاج محمد المازوني الا أن امتثل لاوامر الرئيس احتراما وطاعة للرئاسة من جهة ، وهو أبعد المومنين ، من مواطن الجدل والاحتجاج ، لطبعه الهادىء ولزهده الواضح في الحياة الدنيا من جهة ثانية فما كان يهتم الا بالانتصار على نفسه ، وقد لقنها دروسا قاسية ، وألحق بها هزائم شنيعة ! « أتفهم ما أقول أيها القارىء »

حتى كان يغيب في سبحاته الروحانية عن رغائبها وأمانيها فلا يشعر بها أصلا.

يا الهي ما أكرم هذا السلف الصالح فلا تحرمنا من أمثالهم ونحن في أشد الحاجة اليهم في وقت تختنق فيه المروءة اختناقا ، ورحم الله من قال :

« **مررت على المروءة وهي تبكي** »
« **فقلت لها : على م تنتحب الفتاة** » ؟ !
« **فقالت : كيف لا أبكي وأهلي** »
« **جميعا دون خلق الله ماتوا** » ؟ !

توفي رحمه الله ورضي عنه وأنا في القرويين ، وقد أرجح انه مات في أوائل عام 1352هـ وسنة 1932م وأبرز ذريته العلامة المرحوم السيد محمد، وقد تأثر بموت والده تأثرا ألحقه بـه عقـب شهور من وفاته ، وبكل تأكيد فانه عاش ما عاش بعد وفـاة والده حزينـا ، باكيا ، متألمـا ، ساخطا على الدنيا ، لا يكاد يسمع كلمـة عن والده الا وتنفجـر عيناه دموعـا ، وتتابع شهقه ، كأنه طفل صغير ، في حين انه كان متزوجا وله أولاد ، وقد شاهدته على هذه الحال بعيني ، وكنا ـ معشر الطلبـة ـ نبكي لبكائه ، علاوة على ما كنا نعانيه من آلام وحزن لفراق شيخنـا رضي الله عنه وعن ولده وسائر من مات من شيوخنا.

أما يوم جنازته فقد كان من مشاهد الأيام الحزينة الباكية ، وهي ثالثة أيام الحزن والألم والبكاء في ظروف وفاة شيوخنا ، والثاني يوم وفاة العلامة المربي سيدي الحاج عبد الرحمن والثالث يوم وفاة شيخنا الحافظ سيدي الحاج العربي الذي دخلت الى لحده، ورأيت جثته الى جانب جثث من أسرته، وهذه هي الجنائز المؤلمة التي شهـدت منهـا الثانية والثالثـة ومازلت في معهد وجدة ، وان كانت جنازة ابن مترجمنا لا تقـل عن هذه المشاهد الما وحزنا وبكاء وتأثرا ، ولم أشهدها.

وكيف لا يطبق علينـا الحزن بفكيـه ، ومنـذ نقدنا هؤلاء الاعلام من علمائنا في وجدة ، ما تمتعنا حتى بمن يتشبـه بهم ، فضلا عن أن يكون في مستواهم.

فالعلماء الاعلام ، زينـة الحياة الدنيـا والآخرة ، ومشاعـل من نور الله تملأ الآفاق أضواء ، وتغمر القلـوب ارتياحا والنفوس سعادة واطمئنانا ، وليت مصيبتنا فيهم وقفت عند حد انعدام الخلف لهم ، ولكن المصيبة العظمى هي أين ذلك المعهد الاسلامي بوجدة الـذي كان ركيـزة جبارة من ركائز الاسلام ؟ وأين أي معهد ؟ أو كلية ؟ لتخريج مثل أولئك الاعلام الخالدين.

يا الهي.. انظر الينا بعين رحمتك وعفوك وكرمك ، وهيىء لنا أمثالهم، فأنت أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ومنجد المستغيثين..

أسلوب الالقاء :

مترجمنا رحمه الله ورضي عنـه ، أخذ الفقه الأسلامي بمختصر الشيخ خليل بن اسحاق رحمه الله ورضـي عنـه ، عـن شيوخه المغفور لهم بقرية « مازونة » وسنتهم ـ رضي الله عنهم ـ فـي دروسهم الفقهية هي الاكتفاء بشرح «الحمـرة» ومعنى « الحمـرة » في اصطلاحهم ، الاقتصار على افهام الطلبة معاني « المتن » أي النـص من المختصر مـن غير اهتمام بالشروح ،

والحواشي ، والتعاليــق ، والتقارير ، لمســاعدة الطلبة على التركيز العقلي على خصوص «منطوقات» المختصر ومفهوماتها.

وبتركيز العقل فيها ، يستطيع الطالب أن يكون له ملكة عامة لفهم ظواهر النصوص ومفهوماتهــا أي مــا تفيده النصوص الفقهية بالدلالة غير المباشرة ، وهو ما يطلقون عليه «دلالة المفهوم» أي المستفاد الفقهي بصفة غير مباشرة كقول خليل مثلا : في بيع الوكيل والموكل «فان بعت ، وباع فالأول » فمنطوق هذا النص الفقهي من المختصر ، اذا باع الموكل ما وكله عليه غيره ، وباعه الوكيل أيضا ، فالمعتبــر فقهيا : من أمضى البيع أولا ، فان كان تاريخ البيع من الموكل هو السابق ، فهذا البيع هو المعتبر فقهيا، ويلغى بيع الوكيل لتاخر تاريخ بيعه عن تاريخ بيع موكله ، لذلك لا عبرة بما عقده من بيع بعد بيع موكله ، حيــث انه يجوز للموكــل بالرغم عن توكيله غيره أن يمضي البيع في غيبة وكيله والعكــس بالعكس ، هذا معنى منطوق النص الفقهي ، ومفهومــه أنه اذا بــاع أحدهما فقط فلا أشكال ولكن هذا الحكم لا يدل عليه النص الفقهي دلالة مباشرة ، فهو مفهوم الشرط ومفهوم الشرط غير منطوقه دلالة ، والى جانب الاكتفاء بـ : « الحمرة » يحث الشيوخ طلبتهم على حفظ « المختصر » ليكـون فقههـم معهم أينما حلوا وارتحلوا ، غير ان هذا الأسلوب خاص بالطلبة المبتدئين أما «المحصلون» فان الشيخ يهتم بشروح المختصر وقليلا ما يتجاوز الدردير وحاشية الدسوقي..

انطلاقا من هذا الاسلــوب الذي تكون عليه متــرجمنا ، كان يلقي علينا دروسه « المختصرية » بمعهد وجـدة وكانت الساعة العاشرة بالضبط ، هي ساعة القاء درسه ، وعليــه أن لا يزيد عليها ولــو دقيقة واحدة ، فرئيس المعهد المترجم قبله ، دقيــق الضبط لساعة درســه النحوي ، وهي الحادية عشرة ، لا يقبل أي تساهل في ذلك.

يدخل الشيخ الى القاعة : الســلام عليكم « ويرد الطلبــة التحية ، وهم قعود ، يسند ظهره الى جــدار القاعة شمالا أي في اتجاه البحر الابيض ، ويتعوذ ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلــم ثم يقول : قال سدنا رحمه الله بالدارجة ، أعني لا ينطق بقوله : سيدنا بالياء المشددة وهو يعني الشيخ خليل رحمه الله ، وفورا يتلو السارد المتن الخليلي الــذي كان قد انتهى اليه الدرس السابق ، ويأخذ في شرح «الحمرة» وقليلا ما يشير الى شرح الدردير وحاشية الدسوقي فضلا عن غيرهما.

وفي بداية الــدرس يكون دتنثما الــى شفته السفلى ، ويشير باحدى يديه تارة ، وبهما معــا أخرى ، حتــى اذا شعر بصعوبة فهم مسئلة من المسائل الفقهية ، نراه يتحــرك في مكانه ، ويتحــدث في بطئ وحماس ،

لكي يوقظ شعور الطلبة ويحملهم على التركيز العقلي ، فيسهل عليهم فهم ما صعب ، وحل ما انعقد.

وبالرغم من وقاره وما يجلله من الهيبة فانه من حين لآخر تنفرج شفتاه عن ابتسامة أو شبه ابتسامة على الأصح حتى اذا فرغ من تقرير قضية قال : قال سيدنا رحمه الله ، فيتلو عليه « السارد » النص اللاحق ، وهكذا الى ان يشعر بقرب الحادية عشرة ، فيأمر «السارد» بالتلاوة ، فاذا لم يكفها ما بقي من الدقائق أوقف «السارد» لان رئيس المعهد لا يقبل أي تساهل في وقته المحدد كما سلف.

فرحم الله شيخنا ورضي عنه وجازاه بما يجازي به العلماء المتقين المخلصين آمين.

ودعته رحمه الله مع هدية ريال واحد فدعا لي بخير وذلك في يوم الاربعاء 13 شوال 1351/22 فبراير 1932 وتلك آخر نظرة ألقيتها عليه.

مع شيخنا المرحوم سيدي الحاج أحمد بن الحبيب الحسيني

(3)

● هو الحاج أحمد بن الحبيب بن مصطفى بن التهامي بن عبد الله بن الهاشمي بن سحنون بن محمد بن أحمد بن علي « دفين » مدينة معسكر بالجزائر بن عيسى دفين مدينة تاسلا الى سيد شباب أهل الجنة وسيد الشهداء سيدنا الحسين : شهيد كربلاء الى النبي صلى الله عليه وسلم « راجع كتاب المرحوم الهاشمي بن بكار : « مجموعة الحسب والنسب والفضائل والتريخ والادب » المطبوع بمطبعة ابن خلدون بتلمسان عام 1381 وسنة 1961م.

ومن مراجعة هذا الكتاب المذكور ، يتأكد القارئ، بأن بيت مترجمنا ، بيت علم ، وفضل ، وتقوى ، بعنعنة طويلة الاسناد ضاربة في أعماق التاريخ الاسلامي ، علاوة على ما اشتهر به بعض أجداده من الجمع بين نور المعارف الاسلامية والتربية الاسلامية بالاسوة والتلقين.

ويروى لنا السيد بلهاشمي المذكور في كتابه المشار اليه طائفة من الكرامات لبعض جدود مترجمنا ، وما ذلك بغريب عمن اتصلوا بالله اخلاصا لدينهم عقيدة وعملا وعلما وتعليما ، فليس بين المسلم وبين هذه الكرامات الا أن يهتدي بهدي الاسلام ايجابا وسلبا ، فيكشف الله سبحانه وتعالى الحجب عن فكره وبصره ، فيرى مالا يراه عمي البصائر أو ضعفاؤها.

فكما أن علماء الدنيا بتعمقهم في دراسة الكون ، ينكشف لهم من أسراره مالا ينكشف لمن دونهم معرفة وشغفا باسرار الكون ، فنفس واقع الحال بالنسبة للمتعمقين في دراسة عظمة الله ، وآيات وجوده ، وانفراده ، بالوحدانية والصمدية والابداع الحق.

ومثال آخر ، ان العاشق الولهان يكتشف في محبوبه من الاسرار مالا يحسه غيره ولا يراه ، فما هي الا مقدمات سليمة وأحكام منطقية وجدانيه سليمة لا يماري فيها الا من طبع الله على قلوبهم، وحجر مشاعرهم واحاسيسهم ، فهم في تيههم ضائعون.

والى جانب نسب والد المترجم ، فنسبه لأمه السيدة «حليمة» من ذرية سيدي علي وسعيد «وسيدي علي» له قبة بين ذريته قريبة من «تافوغالت» ووالده سيدي «اسعيد» له قبة بين ذريته بقبيلة بني وريمش الجنوبيين ، وتدعى الذرية أولاد سيدي اسعيد العرعار «والعرعار شجر معروف كثير حول المجموعة السكنية للذرية المذكورة ، وتعد هذه المجموعة ، آخر نقطة لدائرة أبركان الادارية الجنوبية ومنها الى ملحقة « العيون ».

وبالمناسبة فان المرحومة للا آمنة جدة والدي لأم ، وجدة والدتي لأب، من ذرية سيدي « اسعيد» المذكور فوالد مترجمنا السيد الحبيب كانت له زوجتان احداهما من بنات العمومة ، والثانية هي المرحومة والدة المترجم وأشقائه : شيخنا السيد الحاج العربي رحمه الله ، والآتية ترجمته ، وفاطمة وآمنة.

شيوخه :

كان والده سيدي الحبيب بن المصطفى بن التهامي عمدة دراسته وتربيته الدينية فالسيد الحبيب ولد في «تغاسروت» فرقة المرحوم السيد البكاي بن القائد الحاج مبارك الهبيل الذي تلقى علمه وتربيته عن والده المرحوم السيد المصطفى، ولما توفي هذا انتقل السيد الحبيب الى « وجدة » حيث اشتغل بالتربية والتعليم هنالك بصفة عامة ، وبأولاده بصفة خاصة .

وثاني من أخذ عنهم العلم والتربية الاسلامية اسوة وتلقينا ،العلامة المحدث سيدي محمد الكفيف رحمه الله ، وهو من عمومته ، ولا يبعد أن يكون تتلمذ للعالمين الجليلين الفقيه الجباني اليزناسي ، والفقيه القاضي محمد بن الحسين اليزناسني أيضا فيما روي لي.

فقد كانت لهذين العالمين شهرة علمية في شرق المغرب على الخصوص، وقد عاصرهما مترجمنا رحم الله الجميع.

تاريخ ولادته :

للتأكد من تاريخ ولادته تواجهني عدة عوامل وأعمها ان ابنه الفقيه السيد سعيد يعيش في أزمة نفسانية ألزمته منزله ، ولا يوجد في حالة طبيعية حتى يتيسر لي الاطلاع على تاريخ الولادة وكثير من تفاصيل حياة المترجم العلمية والعملية ، وما كان يتحلى به من أخلاق فاضلة ، ولا سيما أنني حينما أعبر وجدة الى أبركان من الرباط لزيارة والدي واخواتي وغيرهم من الأحبة رفقاء الجهاد الوطني المقدس ، لا أجد وقتا متسعا للبحث عن التفاصيل الخاصة بترجمته وغيره من شيوخنا رحم الله الجميع ورضي عنهم.

ث مانني بصفة عامة أجد مثبطات لأحد لها كلما حاولت جمع بعض المعلومات وخصوصا العائلية عن جانب ، أو جوانب من تاريخ هذا الاقليم الشرقي البطل بدون منازع.

في صيف سنة 1975م كنت ذات لحظة أتحدث مع الأخ المجاهد السيد رمضان الكرض الصغيري العبد الرحماني في موضوع طبع كتابي « بنو يزناسن عبر الكفاح الوطني» أثناء حديثي معه في هذا الموضوع قال لي ما خلاصته : عجبا لك لاهتمامك بموضوع لا يشغل بال أحد هنا في ابركان على الخصوص ، بينما الناس يهتمون بتجديد منازلهم البدائية ويبنون العمارات ، ويقتنون الضيعات ، ويتباهون بالسيارات وبمالهم من مدخرات نقدية في المصارف؟ ، ثم قال لي هنيئا لك بهذا المجال الغريب ! وأعانك الله ولك مني هدية نقدية قدرها ألف درهم خذها وأعانك الله ، فجزاك الله خيرا يا أخي رمضان ، واصلح ذريتك وجزى الله خيرا كثيرا الأخ السيد بوشتة بن صالح القراطي على مساعدته الكبرى واصلح الله ذريته.

ذلك بعض ما دعاني الى الاكتفاء بتقدير تاريخ ولادة شيوخي رضي الله عن الجميع.

وانطلاقا من هذا الاساس افترض أن مترجمنا كان من موالد سنة 1280هـ حيث انني كنت أتلقى عنه في حدود عام 1349 وكان ولما يزل يبدو لي يناهز السبعين عاما من عمره الحافل بالفضائل المتنوعة.

صفتـــه :

كان قصير القامة أبيض اللون ، في ميل الى السمرة ، خفيف اللحية والعارضين ، نحيفا في بصره ضعف، مع ضيق في عينيه متوسط الفصاحة، تتداعى صحته باستمرار يبدو ان عللا قاسية كانت تقرب من أجله ، وتقتسر صحته في عنف ، يمشي على الارض هونا ، قريب الخطوات ،

مطرقـا لا يلتفت الى ما حولـه ، لا يـرى غالبـا أثنـاء وجهتـه الى قاعـة الدرس ورجوعه ، يتسابق الناس على السلام عليه ، بعيدا جدا عن مجالات الجدل الدنيوي ، معرضا عمـالا فائدة فيـه من ضروب الكلام ، حييا ، قليل الابتسامة ، فضلا عن الضحك متواضعا ، يقـف لكـل مستوقف ، يجيب سائلبه في لين ومروءة ، وهـو مطرق غالبا ، متعففـا زاهدا ، يتقبل الهدايا بشكر مقتضب ، في غير سؤال أحد ، نظيف الثياب ، بسيطه وغالبه لباس جلباب أسود من الملف فوق عباء تين متواضعتين ، ولوهن صحته كـان ينتعل صباطا بالشكل الجزائري ، فالبلغة لا تناسبه في مشيه ، ولا تساعده، على ان الصباط بالشكـل المشار اليه ، كـان عادة كل شيـوخي ، باستثناء سيدي أبي بكر بن زكري ، فالبلغة الفاسية الرفيعة من المهد الى اللحد.

أسلوبه الخاص في الالقاء :

التاسعة صباحا بالضبط ، هي ساعة القائه درسه في التحفة لا يتخلف الا حالما يشتد عليه المرض.

بعد التعوذ والبسملة والتصلية يأخذ في املاء درسه بالطريقة التقليدية، تقدير بيت التحفة ، أعني تحويله الى نثر ، حتى لا يبقى تقديم ولا تأخير في البيت ، واعراب ما يجب اعرابه ، وشـرح ظاهره أي «منطوقه» ثم بيان مفهومه حسبما يشرح التاودي ، وشيئا فشيئـا يرتفع صوته في حماس ، ويظهر لمن طالع « التاودي » انـه كان يتتبعه بلفظـه تقريبا ونظرا لتقدم سنه وضعف ذاكرته فيما أظـن ، انه كان لا يستطيـع أن يقبل الاسئلة والمناقشة الا بمقدار قليل جـدا ، والا ضاع مـن ذاكرته درسه ، وصعب عليه ـ بعد ذلك ـ أن يستعيد أطـراف درسـه ، لذلك كان كبار الطلبة سنا ينتقدون « السارد» السيد عبـد القادر البوتشيشـي الذي يضايق الشيخ بالاسئلة ، ويقولون لـه دع الشيـخ يمل درسه حسب عادته واستطاعته ، فلا تكلفه بما ليس في امكانه ، ولك أن تسأله عقب الانتهاء من املائه ، او في فترات أخرى ، ولكن « ساردنا » لا يأبه بأي انتقاد ، اذ تمرن على ذلك في حلقات القرويين الحامية الوطيس بالمناقشة ، والجدل ، والاسئلة ، والاعتراضات من بعض الطلبة، على اعتبار أنها كانت بأسلوب مؤدب لا تشم منه رائحة التنقيص مما يجب للشيخ من اكبار وتقدير.

هذا هو الدرس الوحيد في صباح كـل يوم ، الذي كان مكلفا به طوال اقامتي بالمعهد سنتين ونصف السنـة وروي لي انه افتتح ذات يوم درسا في «الألفية» فمنعه الرئيس الناظر المرحوم بالله سيدي أبو بكر بن زكري الذي لم يكن يعترف لمعظم الشيوخ بالخبرة بعلوم القواعد العربية ،باستثناء سيدي الحاج العربي الذي كان يجله علما وفضلا وجاها ، سيما وان الرئيس

المذكور يدرس الالفية للطلبة ، ولا مبرر في نظره لفتح درس آخر في الألفية، وان كان لابد من درس آخر في النحو ، فليكن متـــن الاجرومية ، وبشرح الكفراوي في المقدمة ، أو بشرح الأزهري بالدرجة الثانية.

آخر لقائي :

كان ذلك يوم الاربعاء 13 شوال عـام 1351هـ 22 فبـراير سنة 1932 حيث ودعته وزرته بريال واحد ودعـا لي بخيـر رضي الله عنه ، وفي ليلة الخميس توجهت الى فاس.

وفـاتـــه :

لم يعش كثيرا بعد توديعي له ، فلقد توفي لسنوات قليلة ، ولا أضبط التاريخ بالدقة ، فرحم الله شيخنا ورضي عنه وجازاه عن الاسلام والمسلمين خيرا وبارك في عقبه انه سميع الدعاء آمين.

مع شيخنا سيدي بنسعيد بن محمد بن عبد الرحمن (4)

● هو بنسعيد بن محمد بن عبد الرحمـن اليزناسي الخالـدي الوشاني بضم الواو وشد الشيـن المعجمة ، ترجع قبيلته اداريا الى ملحقة أحفير دائرة أبركان.

ولد عام 1312 حوالي 1894م وحيث أنني التحقت بمعهد وجدة في منتصف عام 1349هـ 1930م فقد وجدته قد تمتع بسعبة وثلاثين ربيعا تقريبا.

وسمعت منه مباشرة : انه رحـل الى القروييـن من وجدة على قدميه معاحدى القوافل التجارية ، وقطع المسافة في ستة أيام ، توفيرا لما كان يملكه من نقود محدودة، وشغف بالدراسات الاسلامية شغفا غير محدود،وقضى في القرويين بضع سنوات رجع منها وهو في مستوى العلماء الاتقياء.

التحاقه بالتعليم الرسمي :

وسمعت منه مباشرة ، وأثناء أحد دروسه ، انه كان يتقاضى ثلاثين فرنكا شهريا من ادارة التعليم في بداية التحاقه بالتعليم

زواجـــه :

● وقد اصهر اليه بكريمته الشيخ الصالح المغفور له السيد الطيب بن الحاج عبد القادر من أصل جزائري الـذي كان يلقب بالسيد الطيب زرعـة نظرا لما أكرم الله به مترجمنا من أخلاق اسلامية في المستوى العالي ، ولما يزل في ريعان شبابه.

والسيد الطيب المذكور ، كان كعبة طلاب القرآن في بني خالد ، بالمكان المدعو « ثيزي » بكسر التاء وكسر الزاي ويعد من شيوخ والدي رضي الله عنهما جميعا ، حيث كان يجيد القرآن على يديه ، وان كان قد أخذه عن والده سيدي البشير بن علي رضي الله عنهما.

تطوعه في المعهد

والى جانب تعليمه في المدارس الرسمية ، كان يلقي دروسا بين الطلبة عقب صلاة الصبح ، وعقب صلاة المغرب وقراءة الحزب ، ولم تكن مواد درسه في المعهد يوم ان كنت من بين طلابه - تتجاوز النحو والمنطق ، ولست أدري ما اذا كانت له مكافأة من الأوقاف بعد ، أم ظل متطوعا فقط.

نعم انني لم أكن من الطلاب الملازمين له في كل درسه ، وخصوصا درس ما بعد صلاة الصبح الذي كان يلقيه في احدى حجرات منزله قرب المعهد ، وما منعني من متابعة هذا الدرس المنطقي الا انني جربته عدة مرات فوجدتني غير مستعد لمتابعته ، أعني أن عقلي الصغير كان دون مستوى فهم هذا العلم المنطقي « اذا لم يفهموا ناموا واذا أظلم عليهم قاموا » هذا هو الحق وان كنت ملازما لدرسه في الاجرومية بالكفراوي بين العشائين.

ميزته في دروسه:

نظرا لشغفه بالمعارف الاسلامية الى حد بعيد ، كان يخلل دروسه بالتوجيهات والنصائح ، مستحثا الطلبة على الدراسة والتحصيل والمطالعة التي نستفيد منها المعارف الاسلامية السامية والتربية النظيفة وكثيرا ما كان يحثنا على ما كتبه الشيخ محمد عبده رضي الله عنه نظرا لما كان يقوم به من الدعوة للرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على مستوى العالم الاسلامي. والى جانب ذلك ، يدعونا الى التمسك بتقوى الله ويحذرنا من مغبة كل انحراف وضلال ، فدروسه مليئة بهذه التوجيهات العلمية والخلقية الاسلامية جزاه الله خيرا.

أخلاقه :

قلت قريبا انه كان متخلقا بأخلاق اسلامية عالية ، زاهدا في الدنيا وملذاتها متعففا عن حياة أهلها ، يمشي مطرقا ، ويلاقي من العامة والخاصة كل تقدير واكبار ، مهابا ، في ظروفه الزمانية والمكانية لا يبتسم الا قليلا، وكنت - ولما أزل - أتصوره يشعر بأن الدنيا تضايقه ، ويؤلمه كل ما يصل اليه من أخلاق غير اسلامية ، فكان ولما يزل كأنه تحت تأثير حزن عميق ولذلك كان ولما يزل قليل الابتسام..

مترجمنا والسيد أحمد بن المصطفى :

السيد أحمد بن المصطفى هـذا من عين الحوت قـرب تلمسان ، كان يحترف الخياطة ، أعني خياطـة الجلاليـب في عيـن الحوت ، ثم انتقل الى الى تلمسان ، ومنها استدعاه المدعو بوسيـف الجزائري الذي كان رئيس جمعية الجالية الجزائرية في شرق المغرب ، وله مع ادارة الحماية الفرنسية اليد الطولي ، واستدعاه ليكون عضدا لـه ، وفـعلا استوطن وجدة وفتح له متجرا في القيسارية بيـن تجار أهل فـاس ، ويروى ان السيد أحمد بن المصطفى لم يكن شيئا في أخلاقه أعني انه خارج الخط الخلقي الفاضل ، بل وحتى المعتدل وأراد الله به خيرا فأوصله بمترجمنا. وبين عشية وضحاها تحول السيد أحمد بن المصطفى الى مسلم مومن : تقي ورع ، وكسا الله وجهه آيات بينات مما أفاض الله عليه من أنوار الاخلاق الاسلامية ، وكان أول شيء فعله أن تنكر للحاج بوسيف ، وقـال له ـ بصراحـة ـ اليك عني ، فلست أصلح لك ، فأنا اليوم غيري بالأمس فلا مساومة فيما تحولت اليه ،وبذلك خيب أمله ، ولم يجده ما قيل عنـه من مؤامرات ووشايـة لدى رجال ادارة الحماية الفرنسية ، فكان لشيخنا الفضل في هداية هذا الرجل « لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من حمـر النعـم » كما قال عليه الصلاة والسلام، أو كما قـــال

قلت لقد كنت من زبناء صاحبنا السيد أحمد بن المصطفى رحمه الله، كما كان كثير من الطلبة ، نشتـري منه الجلاليب والفرجيـات الرفيعة على أساس بيوع الاجال ، ولقد وجدتـه في ظـروف صلاحه وتقواه ومروءته، وكان مترجمنا وشيخنا يجلس في متجره من حين لآخر ، اكراما لأخلاقه ، ويا سعادة من يبتسم له شيخنا فضلا عن أن يجلس في متجره ، فهو رضي الله عنه ـ من الصالحين الذين لا يجاملون حتى المجاملة ، كل من عرف بسوء أخلاقه ، أو حامت الريب حوله.

والآن أيها القارىء الكريم ، أقدم اليك السيد أحمد بن المصطفى بلقبه لكي تتعرف عليه تعرفـا تاما : انه والد السيد بوتفليقـة وزير الخارجية في الحكومة الجزائرية ، منذ الانقلاب، واستيلاء السيد بومدين على السلطة العليا للقطر الجزائري مـع اعتقال سلفه السيـد أحمـد بن بلـة الزعيـم الجزائري الشهير حوالي سنة 1966م

المترجم والمؤلف :

لم يكن مستوى عمري مؤهلا للاتصال بشيوخي رضي الله عنهم في غير أوقات الدروس ، اذ كنت أصغـر طلبة المعهد ولذلـك لم تكن لي أية صلة خاصة بشيخي المذكور ، بل أدركت انه كان لا يتصورني الصورة التي كنت

عليها من شغف بالعلم ، وجد ، واجتهاد ، واستعداد فطري لمتابعة دراستي بصدق واخلاص أذكر جيدا أنني لما رأيته دخل الى المدرسة أعني الى حيث غرفات الطلبة ، تقدمت لتوديعه ، فما زاد على ان ودعني بهذه الجملة بدون زيادة ولا نقصان : مصحـوب بالسلامة ، ثـم غير مجرى الكلام بسرعة ثم صاح : المصطفى يعني شقيق زوجه فانصرفت عنه عاجلا.

وهل كان في استطاعتـي الا أن انصرف حـالا ؟ انه العلامة التقي الورع سيدي بنسعيد ، يكفي أن يغير مجرى الكلام لينصرف عنه كل واحد دون أن يتهمه في أخلاقه

فقد كان للعلم والتقوى سلطـان واسع النفوذ، فمـا كل واحد يستطيع أن يناقش أو يجادل أو يعقب على أهلهما والا فالعاقبة السيئة ، متى غضب أهل العلم والتقوى ، وعلى الرغم من تألمي بهذا الوداع المقتضب ، قلت في نفسي : الشيخ معذور أن ودع صديقي السيد ادريس البرحيلي الذي ترجمت له في كتابي « ذكريات الدراسة في فاس » ودعه وداعا حارا وزوده بادعيته الصالحة ، لانه كان يخالطه كثيـرا في حين أنني كنت مجـرد طالب في حلقات دروسه ، تبا للانطوائية وضعف الشجاعـة الادبية ، والا لنلت من شيخي وداعا أكثر حرارة من توديعه لصديقي ادريس.

تحول الشيخ الى محبتي وتقديري :

يشهد الله اني ما حسدت صديقي ادريس على ما ناله من ادعية صالحة من شيخنا يوم وداعه ، ولكنني لا أكتم القارىء ما عانيته من آلام ، بسبب حظي السيىء في شيخي اذ ذاك.

ومنذ فارقت المعهد والآلام تعاود ني مرة فاخرى ، فطالما أفضيت بها لأخي ادريس مهنئا له بادعية الشيخ ومعربا له عما صرت أعانيه من آلام بحرماني من ادعيته الطيبة ، وان دعا لي بقوله : « مصحوبا بالسلامة »وياما أعذبها لو لم يقلها وهو عاقد بين حاجبيه ، وغير مجراها بسرعة.

ويأبى الله الا ان يفـرج عني كربتي فتحـول قلب الشيخ الى محبتي وتقديري برجوعه عن تصوراته حيالي فلقد كتـب الي أخي ادريس ليشتري له كتبا عينها له ، ولم يكن أخي ادريس ذا حذاقة تجارية ليجد تلك الكتب فأرجع اليه النقود مخبرا له بعـدم وجود الكتب التـي يرغب في شرائها ! وحدث ان أفضى الشيخ بذلك لبعض الطلبة في المعهد ، فقيل له يا سيدي لو كلفت بذلك « سي قـدور » لأخذها لـك وأرسلهـا بثمـن رخيص ، وبكل

سرعة ، فانه ذو خبرة وجرأة ، فعلــق الشيخ كمــا روي لي بقوله : لا اظن صحة ما تقولون ، فانه لما يــزل صغيرا ولم أكــن أتصوره كما تخبرونني اليوم. انه شيء عجيب ! أنا ـ يقول الشيخ : أعتقــد ان « سي ادريس » اذكى منه وأوسع خبرة ، فأجيب يا سيدي ، ان الامر على عكس ما تتصوره، وما عليك الا أن تجرب ، فستجد صحة ما قلناه لك من مخالطة وتجربة.

وياما أسعدني ذات مساء ، حينما تسلمــت رسالة من الشيخ يفتتحها بقوله بعد البسملة أو الحمدلــة نسيت الآن ، مــن بنسعيد بن محمد بن عبد الرحمــن الى الطالب السيد قــدور الورطاسي الــخ.. يطلب فيها مني ما كان طلبه من أخي ادريس ، وسرعان ما أخبرت أخي ادريس بالرسالة وأنا أكاد أطير فرحا قائلا له : لقد فرج الله عني كربتــي ، الشيخ يكتب الي : ويطلب مني أن أشتري له كتبا ويدعو معي بخير ، انها لسعادة ما بعدها من سعادة يا أخي ادريس ليس المهم أن نكون علماء ، انما المهم أن يرضى عنا مثل هؤلاء الشيوخ الأتقياء ويكفينــا ما حصلنا عليــه من علم ، فقال لي أخي ادريس وهو يبتسم واضعا يده على فمه كعادته : وأين تجد الكتب فضحكت ضحكة واسعة وكأنني قلت له ما خلاصته : سابحــث عن هذه الكتب حتى أحصل عليهــا ولو كلفني ذلك مــا كلفني فقال : أعرف جرأتك فلزاما أن تحصل عليها..

وفعلا اشتريتها بأقل ما أشار الي به الشيخ من اثمان ، فأرسلتها اليه مع فائض الاثمان ، وبكل سرعة ، وروي لــي الطلبة الذي حثوه على مكاتبتي في الموضوع ، انه أظهر سرورا وأي سرور ، وقال ما معناه : لقد أخطأت في تصوراتي فجزاه الله خيرا.

مفاجأة سارة جدا

بينما كنت في غرفتي 21 بالمدرسة العنانية اذ فاجأني صهر الشيخ : السيد الطيب رحمه الله مــع رفيق أو رفيقين لــه ، ولكم كان فرحي عظيما وأنا استقبل صهر شيخي وشيخ والدي ، انها نعمة عظيمة ان ابر بشيخي وبشيخ والدي.

وحينما استقر بــه المجلس في غرفتــي قال لي : والدك تلميذي وأنت ابنه كتلميذ ثم انك تلميذ الفقيه السيد بنسعيد وهو الذي أرسلني اليك بناء على ما تأكده من حزمك وذكائك لتشتــري لي بعض الحاجات الخ..فقلت له اني سعيد جدا بكل خدمة أقدمها اليك والى شيخي فما هي حاجات الشيخ ؟ فقال بعض الملابس فقلت تلك هي مهنتي التي مارستها وأنا دون العقد الأول من عمري ، على شرط أن تومىء الي بالألوان المرغوب فيها وان نكون جميعا

في القسارية قبل الساعة الثامنة صباحا ، وعلى مسؤولية الجودة والاثمان، فقال رحمه الله : وما شأن الثامنة صباحا ؟ فأجبته ان عادة تجار أهل فاس يمضون أي بيع عند اول فتح متاجرهم في الصباح فعلينا أن نستفيد من هذه العادة ، لربح الوقت ، ورخص الاثمان ، فابتسم رحمه الله وشكرني على هذا الاقتراح ، وفعلا اقتنيت له كل ما أراده ، ودعا لي بخير ، كما بلغني أن شيخي المترجم دعا لي بخير كثير.

وسعادة ثالثة :

قلت سابقا انني وصلت الى فاس لأول مرة في حياتي ، صباح الخميس 14 شوال عام 1351هـ 932/2/23 وأقول الان ، ان ما شعرت به من شغف وهيام بالمعارف الاسلامية بين أساطين القرويين، وما أحسست به ولمسته من عمق الحضارة الاسلامية في فاس ، جعلني أتخفف شيئا فشيئا من حنيني الى الأسرة أولا ، والى رفقائي في المعهد ثانيا، فحينما تحلل الطلبة في القرويين من مواصلة الدروس بالعطلة الصيفية ، ضاعفت الدراسة على الشيوخ المتطوعين ولا سيما دراسة النحو ، والصرف والبلاغة ، ولم أشعر أبدا بضرورة العودة الى مسقط رأسي لزيارة من أشرت اليهم قريبا ، فبينما أنا في قصبة النوار أدرس استعارة الشيخ الطيب على الشيخ « المتصوف » السيد محمد بن الحبيب ، قابله الله بعفوه ، بينما أنا في جامع الرصيف أدرس التحفة على سيدي محمد رشيد الدرقاوي والتوضيح على المرحوم سيدي الحبيب المهاجي ، وغيرهما ، وما بين ذلك من الفترات ، احفظ ما استطعت من ديوان الحماسة لأبي تمام ، ومقامات وقصائد من مقامات الحريري واحفظ بعض « شهادات الاجانب للدين الاسلامي » وفقرات من الانجيل من كتاب « الاسلام روح المدنية » للمرحوم بالله ، مصطفى الغلاييني ، وهو كتاب صغير الحجم يشتمل فيما أذكر ، على خمسة أبواب في الرد على بعض الشبه في الاسلام ، كالطلاق ، والرق ، وتعدد الزوجات ، شهادات الاجانب للدين الاسلامي « دوزي الهولاندي » اسحق طلور رئيس الكنيسة الانجليزية، سيديو الفرنسي...مع متابعة اعداد رسالة الزيات رحمه الله، وقد تحدثت عن «الرسالة» في كتابي المطبوع «ذكريات الدراسة في فاس »

وفي خامس وعشري شعبان سنة 1352هـ اشتد حنيني لرؤية والدتي لا سيما وقد نعيت الي جدتي لأب للا حليمة رحمها الله، أثناء العطلة الصيفية، كما جن شوقي الى رؤية رفقائي في معهد وجدة مع لقائي بشيخي المترجم الذي كلما تصورت ألوان فرحه بي الا وتضاعف شوقي اليه.

وفعلا سافرت قبل عطلة رمضان بخمسة أيام ، وتوجهت الى المدرسة فور وصولي الى وجدة ، وأول رفيق لقيته داخل المدرسة ، السيد عبد الله بن

قدور الخالدي الدراري ، فرحب بي ايما ترحيب ، وقبل تهيئة الشاي ، طرق الباب طارق ، أتضح انه شيخي سيدي بنسعيد ! يسأل عن طالب ما ، فاستدعاه السيد عبد الله لشرب الشاي ، فاعتذر ، فقال له السيد عبد الله ان سي قدور في بيتي ، سمعته يقول : حسن ، اذن، ادخل فدخل مبتسما ، على محياه آيات السرور والانبساط، فقمت لأقبل يده وأنا في منتهى السعادة، شيخي يدخل لأجلي بعد الاعتذار ! وينظر الي نظرة الرضا والتقدير ! انها للحظات من لحظات الجنان ، جلس السيد عبد الله في مواجهة آفاق الجنوب ومواجهة الشيخ ، وأنا في مواجهة الشرق بينهما فابتدرني الشيخ قائلا : بارك الله فيك على جهودك في سبيل الكتب ، وعلى ما قمت به ازاء الشيخ السيد الطيب ، ما كنت أتصورك بهذا الحزم، بل كنت أظن أن «سي ادريس» أعلى من مستواك التربوي والعقلي ، فظهر العكس ؛ كل ذلك وابتساماته متواصلة ، فقلت يا سيدي انها خدمات متواضعة ، وستجدونني رهن اشارتكم باستمرار فأنا سعيد بكل خدمة أقدمها اليكم ، أما أخي ادريس فأشهد ان حسن ظنكم فيه لم يتجاوز الواقع ، غير انه تنقصه تجارب الحياة في كثير من المجالات التي يسرها الله لي أثناء طفولتي لمساعدة والدي في تجارته. أني كنت ولما أزل صادقا في ثنائي على أخي ادريس رحمه الله ، ولو لم يكن كذلك ، فما كنت الا مجبرا على الثناء عليه ، ومن قبيل الثناء الذي يدخل في عداد التمنيات في أن يكون كذلك في المستقبل.

وأي استنقاص من أخي ادريس ، يستلزم 1) الاعجاب بنفسي وخصوصا أمام شيخي 2) وشبه تسفيه لشيخي في حسن ظنه به 3) واغتياب غيري أمام شيخي بالخصوص، وهذه الثلاثة تجعلني في عين شيخي طائشا سفيها، متعجرفا ، معجبا بنفسي ، وذلك من شأنه أن يحدث فتورا فيما صار لي من قيمة عنده ، وانها لنكسة ما بعدها من نكسة ، وأنا الحريص على كل قول وعمل من شأنه أن يضاعف محبة الشيخ لي لا تزود بادعيته الصالحة، وانه لنعم الزاد في الحال والمعاد. نعم ، قد يتوهم القارىء ان هذه التحليلات وليدة مستواي الفكري الان ، لا سيدي القارىء انها وليدة الاخلاق التي تواضعت عليها البيئة اذ ذاك ، فمن سوء الخلق أن يغتاب أحد غيره ، أو يستنقصه في مجالس اتقياء العلماء على الخصوص ، والا كان رد الفعل أسوأ من ذلك ، فسامع الغيبة شريك القائل ، وأقل ما يفعله أمثال شيخي أن يقوم من المجلس ،وهو يتلو في باطنه مثل قوله تعالى : واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكر مع القوم الظالمين » أو قوله تعالى : (ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم) وما قيمة تقوى مثل شيخي اذا ما جامل المغتاب بالاستمرار في الجلوس معه ؟

نعم ، مرة ثانية ، سألنـــي الشيخ : ماذا درست أثناء هـذه المدة ؟ فأخبرته ، فابتسم وهو يقـول : تبارك الله تبــارك الله وهو يتوجه الي من نترة لاخرى ، ثم يعود الى أطراقه كعادته..

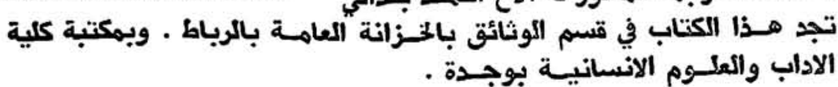
وعقب شرب الشــاي ، استدعاني لمنزلــه لتناول طعــام العشاء عنده فالتمس منه السيد عبد الله أن يتنــازل عن استدعائــه لآتناول طعام العشاء عنده ، وودعنا داعيا لنا بخير ، وحينما خرج قال لي السيد عبد الله : انك لمحظوظ باستدعاء الشيخ لك، فهنيئا ، فقلت شكرا ، **ولله الحمد ولله الشكر،** على هذه اللحظات السعيدة.

وهذه هي السعادة الثالثة التي وهبها الله لي منة منه مع شيخي المترجم رضي الله عنه.

وحينما كنت راجعا الى القرويين تناولت معه طعام العشاء ، حيث كنت معه على موعد لهذا العشاء ، ولعل ثالثنا كان صهره شقيق عقيلته ،أخانا الأستاذ النبيل السيــد مصطفى بــن الطيب ، وبكل تأكيــد أن الطعام كان عبارة عن لحم وزبيب ، ولا أذكر ما اذا كان له سابق أو لاحق ، قلت : ويح الشباب الخلف ، وما أشقاهــم بحرمانهم من متعة هذه العلاقات مع شيوخهم كيفما كانت أحوالهم ! ان الشيوخ بمنزلة الآباء ، ولا متعة أعذب في الدنيا من متعة العلاقات الطيبة الصادقة بين الانسان وبين والديه وشيوخه.

فرحم الله هذا العهد المشرق بالأخلاق الفاضلة والمشاعر النبيلة والمتع الروحانية السامية ، وخفف الله عنا من وطأة هذه الاخلاق السائدة في هذا العهد في انتظار رحمة الله بنا والأنعام علينا بهدايتنا الى سبل الرشاد نعم مرة ثالثة أن شيخنـــا توفي بوجدة أواخر عام 1406هـ وأواســط سنة 1986م وهو عضو في المجلس العلمي بوجــدة وواعظ لدى الاوقاف فرحمه الله ورضي عنه ونفعنا ببركته آمين.

الشريف السيد أحمد بنمنصور السليماني :
نسبة الى أخ ادريس الفــاتح الأعظــم للمغرب ولمــا دخلت معهد وجــدة وجدت السيد أحمــد بنمصور صاحب الرسم هنا على باشوية وجدة وسجل لــه التاريخ مواقف وطنية رائعــة تجد بعضها في كتابي المطرب في تاريخ شرق المغرب المطبوع عام 1404 هـ 1984 م. وفي كتابي الذي خصصته لترجمة المغفور له الأخ أحمــد بندالي



تجد هــذا الكتاب في قسم الوثائق بالخــزانة العامــة بالرباط . وبمكتبة كلية الاداب والعلــوم الانسانيــة بوجــدة .

مع شيخنا المرحوم سيدي الحاج العربي

(5)

● هو الحاج العربي بن الحبيب بن التهامي بن المصطفى بن التهامي الحسيني شقيق شيخنا المرحوم سابقا سيدي الحاج أحمد ، وهذا القدر يكفي للتعريف بنسبه ما دمت قد توسعت قليلا في نسب شقيقه من قبل.

معارفه :

اشترك مع شقيقه في الأخذ عن والدهم المرحوم بالله ، ثم عن علماء عهده اذ ذاك ، مع رحلة قصيرة الى القرويين ، واشتهر بالذكاء ، وقوة الحافظة، وسعة الادراك ، وتنوع معارفه المنتشرة في عهده ، فقها ، وعربية وحديثا، وتفسيرا ، وتاريخا وغيرها من المعارف المتنوعة.

وله مؤلفان احدهما عن تاريخ وجدة ، وذهب بحثي عنه دون جدوى.

ومن آيات ذكائه ، وقوة حافظته وذاكرته ، انه كان اذا استدعاه المرحوم السيد أبو بكر بن زكري لمرافقة أحد ضيوفه العلماء يسأله عن نوع معارف الضيف العالم ، وخصوصا نوع العلم المتخصص فيه ، وسرعان ما يعود الى تلك المراجع يتصفحها ، حتى اذا التأم الجمع كان مترجمنا فارس الرهان ، فيأخذ العجب من ناصية الضيف العالم ، ويغمر السرور رب البيت ، ولماذا يغمر السرور رب البيت شيخنا ابن زكري ؟ أعتقد انه كان لا يروقه أن يعرف ضيفه أنه يعيش في بلد لا علم فيه ، فوجود مثل مترجمنا في البلد ، يضفي عليه الاحترام والتقدير من لدن الضيف العالم ، أي ان شيخنا ابن زكري يعيش في مستوى عال مع مثل مقرجمنا ، وبصحبة مثل مترجمنا تنمو معارفه ، ويعلو شأنه ، فعالم بين العامة ، لا يلبث أن أن يرجع عاميا ، لما يقاسيه من أخلاق عامية تنغص عليه الحياة ، وتجلب له من المشاكل والمصاعب والاتعاب مالا عد له ولا حصر ، الم يقل القائل : ومن البلية خطاب من لا يفهم) ! فالعامي برغم اعتقاده بعالمية العالم ، كثير الفضول ، فلا يخجل من ان يضع نفسه موضع المرشد الموجه للعالم ، وهل هناك أشد مضايقة واحراج من أن يكون العالم من العامي موضع ارشاد وتوجيه ؟ وادنى مضايقة أن يتسابق العامي مع العالم على الجواب متى سأل العالم سائل ، والعامي ينظر الى العالم كانسان أجهل الناس بمجاري الحياة ، فالعالم في نظره لا يتجاوز علمه المجالات الدينية الى الخبرة بمجاري شؤون الحياة الدنيا. فالعالم في نظره ليس الا انسان مغفل يمكن التغرير به في كل حين ، وما ادري العالم بالحياة وهو يعيش بين كتبه وحلقات طلبته ؟ ومتى سافر الى مكان ما ، فهو أيضا بين العلماء والطلبة ،

ومن أين له بالمعلومات عن الحياة الدنيا وتطوراتها ؟ لا سيما والعالم لا تتجاوز أحاديثه حدود المعارف الاسلامية ؟ والافكار العامة غرائب وعجائب ، وحسبنا ما وقعت الاشارة اليه.

ولهذا كان السيد ابن زكري يسأل عن مترجمنا كلما حل به ضيف عالم ، وكذلك كان يفعل المترجم معه على أنني أعتقد ان مترجمنا كان أعلم من شيخنا ابن زكري وحضور ذلك ، في بيت هذا ، حينما يزوره عالم من العلماء ، يخفف عنه من حرج الموقف مع الضيف وحسبه ان يقوم بمناوشات أثناء المذاكرة ، ومترجمنا يصير الاساسي في الحلبة ، وهو اعتقاد لا استبعد صحته. فعلماء السلف كان علمهم معهم حلا وترحالا.

صفتـــه :

كان متوسط القامة ، جسيما دون جسامة شيخنا ابن زكري ، مع بطانة غير بارزة كثيرا ، خفيف اللحية والعارضين في ميل الى السمرة رحب الصدر ، يلتذ بالنكتة مع العلماء ، مهابا ، محترما في العامة والخاصة.

في خطة القضاء :

عندما احتل الجيش الفرنسي وجدة 1907 اعتقلته القيادة للجيش لأن تاريخ استيطان أسرته لشرق المغرب يرجع الى تاريخ استسلام الحاج عبد القادر الجزائري لقوة الاحتلال بالجزائر ، وبطبيعة الحال ، فان الاستعلامات الفرنسية بالجزائر كانت تتبع خطوات هذه الأسرة بعد التجائها الى شرق المغرب ، فكان لابد من اعتقاله ولو للاحتياط.

ولما افرجت عنه عملت على تنحية قاضي وجدة العلامة السيد محمد بن الحسين ، وعوضته به ، ثم عينته قاضي قضاة شرق المغرب ، ومعنى هذه الخطة بلغة اليوم ، رئاسة محكمة الاستيناف الاقليمية ، وافترض ان ممارسته للقضاء استمرت طويلا والى ما قبل سنة 1930م بسنوات قليلة.

سلفيته :

روي لي ولده المرحوم المجاهد السيد محمد بناصر ان والده كان يتتبع باهتمام متواصل ما كان يقوم به الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا من الدعوة الاسلامية على صعيد العالم الاسلامي ، ويتتبع ما كانت تنشره مجلة المنار من أفكار اصلاحية للعودة الى المنبع الاسلامي الالهي ، والعمل على اثارة الهمم للجهاد في سبيل تحرير العالم الاسلامي من نير الاستعمار الغربي.

قلت : ومن المحقق ان نشاطه السلفي ، كان في حدود آفاق خاصة ولو قدر أن يتزعمها لما اغتبط عبده « ولا رشيد رضا » على مالهما من معارف ، وذلاقة لسان ؟ ووضوح في التبليغ والبيان وتدعيم دعوتهما ببليغ الحجة وصادق البرهان..

فشيخنا هذا رحمه الله كان تحفة المجالس ، ومغتبط القائم والجالس ، قوي الادراك ، سريع الفهم ، يسر التفهم ، يتوفر على عقل قويم وخلق كريم ، ومواهب ثرية ولطائف سنية ، ومشاعر حية ، وآفاق علمية غنية في وجه وسيم ، وحياء عظيم ، ونفوذ في العامة والخاصة وشجاعة أدبية متراصة في صدر رحيب ، وبده عجيب ، ونكت عذبة لطيفة ، تنبعث من روح شفافة خفيفة ، وتواضع يأسر القلوب ، ويأخذ بنواصي الخصيم والمحبوب.

ولعله ماصرفه عن هذه الزعامة السلفية الا عوامل قاسية خفية ، حالت دون النزول الى ساحة الصراع ذي الأخذ والرد ، والجزر والمد ، والدخيل جريح القلب والاهاب ، يصبح في حذر لكل نامة لذوي الألباب وعلى استعداد كامل للقضاء على ما يهدد حياته من أضطراب ، والمستيقظ قليل ، والنصير بما قاساه من محن الدخيل عليل.

ومع ذلك فقد أبت دعوته السلفية الطيبة الا أن تبذر بذورها فيما حولها من آفاق ، وان كانت ذات حدود ضيقة ، وما هبت عليها أنسام فجر الانبعاث حتى اكتسحت كل نسر وبغاث ، ولعلها نفس العوامل التي وقفت دون ما كان يبثه فينا شيخنا المترجم من قبل ، سيدي بنسعيد من دعوة الى هذا الميدان ولم يشعر أيضا بآثار أصداء ما كان ينشره من حكم ومواعظ كالجمان ، فلم نكن نحن = طلبته = بعد مرهفي الاحساس والوجدان . لنتذوق دعوته بالمستوى الذي يجعلنا عمليا الى ساحة القتال..

ومع ذلك ، فقد كنا تختزن المواعظ والعبر ، ونصول بها ونجول في مجالات طفيليات التصوف الكاسحة والخرافات السامة اللافحة.

أسلوب الالقاء.

تقدمت طائفة من الطلبة اليه للتطوع بدرس في « الألفية » فوافق على أن يكون في السابعة صباحا جلس الشيخ رحمه الله ، ونحن حلق حلق ، وكلنا آذان ، والمشاعر متقدة ، والعقول مستيقظة متركزة والأبصار ترنو في اجلال واكبار ، والقلوب في منتهى السرور ، لنستمع لأول مرة لقاضي القضاة السابق : العالم الذي يجله رئيس المعهد غاية الاجلال ويضمر ويعلن انه العالم القليل النظير ، وهو بمعارف الاسلام بصير.

● ولشد ما تملكنا بأسلوبه العجيب، وهو يجول ويصول بعلم خصيب. يتفهمه النائي والقريب ، وسرعان ما تحولت قواعد النحو أمامنا زهورا عطرة دانية ، بعدما كنا نتصورها قطوفا نائية ، وأخذ الطلبة يتحركون في أماكنهم من غير وعي ، منفعلين بما يلقيه الشيـخ في أسلوب حماسي حي ، وآيات الارتياح بادية ، ومظاهر التفهم شاملة راضية .

● أنهى الشيخ رحمه الله أول درس له ، وتجمع الطلبة حلقات ،وقوفا ، والكل يريد أن يعيد على مسامعهـم ما أدركه من الـدرس حق الادراك ، وما شعر به من سعادة دونها شاسـع الافلاك وكان من بيـن الطلبة شاب لاذع النكتة ، ساخرا في مرح عجيب ، هو السيد «الملود» الصغير الخالدي الدراري الذي كان يكنى بوشنافة ، ورأسه لا يتوفر الا على شعرات هنا وهناك . على صلعة تفاحية ، فابتسم ابتسامة ساخرة كعادته ، وقال «لقد أصبح كل بليد عالما بدرس واحد لسيدي الحاج العربي ، فاللهم حل بينه وبين هذه الدروس ، فما في استطاعتي أن أتحمل منظر «بلداء» علماء ! انني متأكد من ان هذا الدعاء يدخل في نطاق سخرياته وعبثه ومرحه ، فانه كان لا يدع النكتة تنحبس في نفسه، بل ان النكت ترابط بين شفتيه ، فهو ساخر في مشيته ، في نظراته ، في تقاسيم وجهه ، حتى في صماته ، وقد صادفت دعواه ما كان بين لوحة القضاء والقدر ، فما هي الا بضعة دروس ، والشيخ تستبد به علله فينقطع عن دروسه ، وحينذاك يعلن السيد الميلود للطلبة ، شكره لله على أن تقبل منه دعاءه ! سامحـك الله يا أخي الميلود ، سواء كنت حيا أو بين رحاب الجنان ان شاء الله ، فما هي الا من هزلياتك وسخرياتك البريئة ، ولكنها كانت علينا صاخة عمياء.

وفـاتــه :

● لم يعش طويلا عقب هذه الدروس ، فلقد كانت العلل تقرب أجله من فينة لأخرى ،ولعله توفي ما بين عام 1350 وبين 1351 الموافق 1931 أو 1932 ، وكانت مشاهد جنازتـه من المشاهـد التاريخية ، فانه لم يدفن الا بعد يومين من وفاته وحضر جنازته علماء وصلحاء كثيرون من المغرب والجزائر ، حيث أن أصل أسرتـه من مدينة «معسكـر» من ذرية سيدي « أحمد بن علي الحسيني ».

ومشيت في جنازته الى «مقبرة سيـدي المختار» حيث دفن « بلحد » الأسرة ، ووضع جثمانه على رفات أسرته وقد شاهدت بنفسي كيف صفف جثمانه مع من سبقه من أسرته ، وظلـت وجدة ما شاء الله تعج بالمعزين ـ من كل حدب وصوب ، فرحمه الله ورضوانه عليه آمين.

خاتمـة

5 رويت عن أسرته أن مترجمنـا كانت له لقاءات مـع المرحوم شيخ الاسلام أبي شعيب الدكالي ، أما لقاءاتـه مع الفقيـه الحجوي الوزير، فقد شاهدت بعضها بعيني !

والى جانب ذلك ، كانت له لقاءات مع بعض علمـاء شنقيط ولعلها هي التي حملته على تأليف كتـاب عن « موريطانيا» الـى كتابه عن تاريخ وجدة كما أخبرني بذلك كتابة ومشافهة حفيده الفيلسوف الأستاذ علال ابن رفيق الكفاح الوطني المرحوم الاستاذ « محمد بناصر » وزاد المخبر المذكور قائلا : ان الكتابين يوجدان بخط المترجم وان بعض المؤلفيـن الفرنسيين نقلوا عنه في كتاباتهم حول «تاريخ وجدة» وانه شخصيا بحـث عنهما فلم يعثر لهما على أثر..

ويحسن أن أسجل هنا نكتة له مع الفقيه الحجوي الوزير ، قال الوزير للمترجم : انكم معشر الوجدييـن تخللون أحاديثكـم بقـولكم : محسوب.. محسوب.. فأجابه : وأنتم معشر المغاربة تخللون أحاديثكم بقولكم : دبا.. دبـا.. وكان المرحوم سيدي أبو بكر بن زكـري في المجلس هذا ، فضحك الجميع وما في قلب أحدهم شيء لأخيه...

وبالمناسبة أقول أننا في شرق المغرب ندعو ـ تقليديا ـ سكان تازة، ومن وراءهم غربا « بلغاربة » أي المغاربة نـدعوهم كذلك ونحن نشعر بأننا مغاربة في الصميم بشرق المغرب فهو مجـرد اطلاق تقليدي ورثنـاه دون وعي ولما يزل له مجرى في شرق المغـرب ، وهو نفس ما كان اخواننا من وراء تازة غربا من اننـا « واسطيون » أي من المغـرب الاوسط ، أعني جزائريين ، لتشابه جوانب حياة شرق المغرب بالواسطيين وان كانت روح أخلاقهم في واد، ونحن في واد ، ولكـم ببن مريد ومـراد ، على حد تعبير صاحب مقامات الحريري، مع العلم بأن لنا مع الجزائريين قسيما مشتركا ما ،

مع شيخنا سيدي محمد النكادي رضي الله عنه

(6)

● المرحوم سيدي محمد النكادي نسبة الى قبيلـة النكاديين المحيطة بوجدة احاطة السوار بالمعصم .

والى هذه القبيلة ، ينتسب ـ بحق ـ أخونا الشهيد السيد محمد بن الحاج محمد الدرفوفي رضي الله عن الجميع.

صــــورتـه :

كم أنا متأسف لعدم استطاعتي الحصول علــى رسم لمترجمنا ، حتى ولو بحثت عنه لان أمثاله كانــوا يستنكفــون من الوقوف أمام المدرسة الا لضرورة قاهرة علاوة على آرائهم الفقهية في الاصور والتماثيل.

اذ من خصائص أخلاق علمائنــا السلف ، أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم قدوة ، فلا يفعلون دا يستنكرون ويعتبرون = بحق = ان الاسوة هي القاعدة الاساسية في التكويــن الخلقي الاسلامي ، والعامة يضعونهم حيث وضعوا أنفسهم ، وقد يخطيء العلماء لسبب من الأسباب ولكن العامة لا يخطؤون في أحكامهم على العلماء من حيث أخلاقهم ، فالمخالطة المستمرة مرآة صافية تتجلى فيها بواطن الاخلاق ، وكوامن الأسرار « ومهما تكن عند أمرىء من خليقة « وان خالها تخفى على الناس تعلم .

نعم كان شيخنا رحمه الله قصير القامة ، في ميل الى السمرة ، نحيفا ومتداعي الصحة بصفة عامة ، خفيــف اللحيــة والعارضين على حد تعبير «العدول» متقارب الخطوات كثير الوجوم والشرود والصمت لين الحديث ، موطا الأكناف ، وكان يبدو لي انه من مواليد 1300هـ 1880م في حدود عام 1949 الموافق 1930.

دراستــه :

شيخنا هذا كان متغربا في سبيل المعرفة بالشمــال وبقبائل « اجبالة ، بالخصوص ، وهنالك أخذ عن شيوخه علــوم القواعد العربية والفقه ، ولما رجع الى قبيلته بوجدة ، تقدم الــى رئيس المعهد سيدي أبي بكر بن زكري واضعا معارفه رهــن اشارة طلبته.

وانطلاقا من أخلاق الرئيس وسنته من حيــث تقديره لخطورة رسالة التعليم ، ومن أحاديثه مع المترجم ، ألحقه بعلماء المعهد على شرط أن لا يدرس الا الاجرومة والتحفة ، حيث أن هاتين المادتين : النحو ، والفقه وخصوصا التحفة ، ممــا اشتهر به علماء «اجبالــة» اما أن يدرس «الألفية» ومالك بالمدينة ، فلا ! اذ هي وقــف عليه ، وعلى مترجمنــا السابق سيدي الحــاج العربي رحم الله الجميع ، وكان يتقاضى مكافــأة أقل من نظرائه العلماء : 150 فرنكا في كل شهر بالضبط.

أسلوبه في التدريس :

كان أسلوبه في التدريس مبسطا الى حد يفهمه الاطفال ، وخصوصا عندما يمثل بالجزئيات لتوضيح القاعدة ولعله كان يقصد أيضا الى خلق جو من المرح أثناء تدريسه...

ومن ذلك في دروس الاجرومية قوله : « خرج عمرو » فيقول : خرج فعل ماض وعمرو هو الفاعل ثم يتعلق على ذلك بقوله : ان أحدا لم يخرج ! ولكنه مجرد مثال لايضاح القاعدة.

ثم يقول : اياكم أن يخرج أحد منكم يسمى عمرا ! انه مثال فقط !

ومن ذلك في دروسه في التحفة « اذا كان الانسان مسلما وله خمس زوجات ، فالخامسة تطلق عليه ، ويقول : أعني أن احدى الخمس تطلق عليه ،وليس المقصود هو الزوجة التي تسمى « الخامسة » ولولا رحابة صدره رضي الله عنه ، وما كنا نعتمده من تعمده للانفتاح معنا ، لأغضبناه مما كنا نطلقه من قهقهات طويلة عريضة أثناء ضربه لمثل هذه الأمثلة. ولكنه رحمه الله كان يبتسم معنا ولا يبدي أي انقباض أو غضب ، فما ارحب صدرك ، وأوسع أفقك ! والين جانبك ! وألطف معاملتك ! يا سيدي محمد النكادي رضي الله عنك ، فأنت الوحيد من شيوخنا الذي كنا نتخفف ازاءه من التقاليد الادبية التي كانت تشق علينا كثيرا ونحن في ريعان الشباب الذى لا يهتم بالجدية الا قليلا ، ومع ذلك ، فلم يحدث ــ أبدا ــ ان تجاسر عليك أحد منا بقول ، أو عمل ، لأننا كنا مع ذلك نعتقد ــ عن يقين ــ انك من أهل العلم والخير والصلاح ، وكلنا حريص على التقاط أقل دعوات طيبة تنطق من أفواههم لنا ، مع بذ لجميع الاحتياطات من أي تغير منهم ضدنا، ولذلك ما كان أحد منا يرى الشيخ ، الا ويلتمس منه أن يدخل غرفته للتبرك به ، وتهيئة الشاي له ، وفي بعض الاحيان ، نهيء له طعام الغداء ، أو العشاء ، ونحن في أشد الفرح به ومنتهى السرور بهذه الفرص السعيدة معه.

وفاته :

لم يلبث الا قليلا بعد عام 1351هـ و 1932م حتى لقي ربه عليه رضوان الله.

عاش رحمه الله فقيرا مدقعا ، وطلب العلم فقيرا مدقعا وكذلك لقي ربه جزاه الله خير الجزاء وأعاد علينا بركته وعلى عقبنا آمين.

مع شيخنا سيدي الحاج عبد القادر ابن الكندوز
رضي الله عنه
(7)

● المرحوم بالله العلامة سيدي الحاج عبد القادر بن الكندوز ، من أسرة سيدي الحاج العربي المترجم من قبل ، ويطلق على هذه الأسرة «الشراكة» بالكاف المثلثة ، وتعني أولا : الشرقيين وثانيا ، وبالذات ، الجزائريين لان أصل الاسرة من مدينة « معسكر » كما سبق القول بذلك.

سنــه :

كان يبدو لي في عام 1349هـ 1930م انه جاوز السبعين قليلا ، ولما ازل أتصوره كذلك ، ولعله مات رحمه الله قبل سنة 1936 أو حواليها.

طويل القامة ، بادي الجسامة ، أشقر اللون في غير وضوح كبير ، أغوه، منعطف القامة ، متقارب الخطوات ، ذا بطانة تحمله على التمايل في مشيته، عمه الشيب ، ولعله كان يخضب بالحناء ، جهوري الصوت، لباس واحد ، أي نوع واحد من اللباس طوال السنة ، وان كان يغيره بمثله ، وهو عبارة عن عباءتين احداهما بطوق وأخرى مفتوحة الصدر ، وحائك ، وجلباب ، وسلهام ، وتارة سلهامين خفيفين من نسيج جزائري ، وصباط على الشكل الجزائري ، وعمامة ، وحواق وهو عبارة عن قطعة من نوع ثوب العمامة ، يلفه على رأسه وعنقه ، تبعا للتقاليد الجاري بها العمل.

ثـقـافتـه :

يجيد حفظ كتاب الله العزيز ، مشاركا في المعارف الاسلامية بصفة عامة ، قوي العقيدة ، متعبدا كأحسن ما يكون المتعبد في غير مبالاة بملذات الحياة ، الى قناعة متناهية ، وتواضع كريم ، اعتزاز بالعلم والنسب والمروءة في غير كبرياء ، ومرح مع أحبائه رحب الصدر في مجادلته ، حاضر الأجوبة الفقهية وعلى الاخص ما يتعلق بالعبادات ، اختصاصيا في الفرائض ، لا يتنازل لمجادلة العامة ، يخلل أحاديثه مع احبابه وخصوصا الطلبة بابتسامات مشرقة ، يمشي على الارض هونا ، واذا خاطبه الجاهل قال سلاما ، يتردد على الطلبة مرة لاخرى ، يحييهم ، ويسأل عن أحوالهم ويحثهم على طلب العلم ، ويذكرهم بالله في غير جفاء ولا عنف ، ويغاضبه بعض الطلبة بأسئلة محرجة ، فتارة يطرق محوقلا ، وأخرى يدرك المقصد بسرعة ، فيجيب أو يعلق في ابتسامة ، واذا كان في حالة غير عادية ،

يلازم الصمت ويذهب حالا، لكن من أغضبه من الطلبة يلتحق به ويسترضيه، ويتبسم له انه ما قصد الا مداعبته، كما يداعب الولد والده، فيرضى ويحذره من مثل تلك الاسئلة ، ويدعو له بخير.

أسلوبــه :

كان أسلوب درسه في الفرائــض كأسلوب فقهاء الشيخ خليل ، شرح ظاهر النص ومفهومه ، وأمثلــه للايضاح ، واعــادة للشرح والأمثلة ، حتى يشعر بأننا تصورنا المسألة ، فيتبعها بأخرى الى آخر الدرس الذي كان يلقيه تطوعا لوجه الله الكريم بطلب من الطلبة ، ولم تدم دروسه كثيرا...

تعلقه ببيت الله :

وكان شيخنا هذا رحمه الله ، ثالــث أئمة المسجد الأعظم ، ومع ذلك ، فانه كان يؤدي صلواته الخمس في المسجد المذكور حتى في الاوقات التي لا يؤوم فيها ! فهو اما امام ، واما مأموم ، وعلاوة على ذلك، فانه يقوم بتلاوة أحد المساند ، والناس ينصتون اليه في حلقات كل يوم تقريبا.

ايقاظه الطلبة لصلاة الغداة

كان رحمه الله تعالى يحثنــا باستمرار علــى أداء صلاة الغداة في أول وقتها، وبالمسجد الأعظم الملتصق بغرفاتنا الواقعــة غربه ، والتي لا يفصل بينها وبين المسجد الاســور بينه بــاب، والتي أدخلــت اليوم في المسجد لتوسيعه وصارت في خبر كان.

ونزولا عند رغبته الملحة « طلبنا منه أن يوقظنا ، وعندما اقترب أداء صلاة الغداة ، أخذ يطرق بــاب المدرسة بعنــف مزعج ويصيح : الصلاة رحمكم الله ويعيدها كرة أخرى وثالثة ولــم يستيقظ الا القليل منا ، وبعبارة أخرى لم يستجب له الا القليل ، عدا أولئك الطلبة الذي تعودوا أداءها وهم في غير حاجة الى طرقاتــه وصيحاته وعندمــا أسفر الصبح ، أخذ الطلبة يستيقظون شيئا فشيئا وبدأوا فــي تبادل النكــت البريئــة لتلك الكيفية المزعجة فما رأي طالب زميلا له الا وصاح : الصــلاة رحمكم الله.. والشباب جنون، سامحنا الله وغفر لنا..ثم طلبوا منه رضي الله أن يعفيهم من ايقاظهم، فأعفاهم ، وهو يهلل ، ويحوقل ، ويتأسف في انقباض واطراق..

بيني وبين مترجمنا :

أخذت ذات مساء أترنم بيني وبدن نفسي في صوت متوسط فما شعرت الا والمترجم يفاجئني ، فغيرت ترنمي الى التهليل ، فابتسم رحمه الله وقال :

«يا سيدي الشريف هـذه أغنية فـي رأسها لا الـه الا الله ، فغمرني الخجل واستسمحته فسامح ودعا لي بخير ، فاللهم ضاعف حسناته ، وتجاوز عن سيئاته وأغمره بعفوك ورضاك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

ولعله تالفي حوالي 1940م ودفن في وجدة بدون ريب.

مع سيدي عبد القادر بن الحاج عبد الرحمن رضي الله عنهما

● هو عبد القادر بن الحاج عبد الرحمن الوجدي ولادة ونشأة ودراسة ، اليزناسي المنتوشي أصلا. ووالـده كان شيـخ زاوية هنالك ، قرب باب الغربي في أحد الأحياء العتيقة.

كان ولما يزل يبدو لي انه في حدود **الاربعين من عمره أو زيادة** قليلة ، ومعنى ذلك انه ولد حوالـي أوائل القـرن الرابع عشر الهجري وآخر عقد القرن التاسع عشر الميلادي .

وصفـــه :

متوسط القامة، أبيض اللون، عريض الوجه ، أعين ، أحور ، محجوجب، مكتنز ، في ميل الى النحافة خفيف اللحية والعارضين ، أفوه ، أنيق ، فما رأي في غير اللباس الابيض ، تمشيا مع تقاليد شيوخنا..
حيي الى خجل العذراء ، يوم كان للعذراء خجل ، يتلألأ وجهه نورا ينفذ الى أعماق المومنين فيتملـك قلوبهم يمشي علـى الارض هونا مطرقا من غير التفات ، شأنه شأن كل شيوخنا في ذلك ، يقف لمن استوقفه ، ويتحدث في لين وصوت موسيقي وهو مطـرق ازاء مستوقفه ، اشتهـر بالتقـوى والانطوائية الايجابية في حدود التقاليـد التي كانت لشيوخنا ، رباه والده فأحسن تربيته علما وأخلاقا وسلوكا ، فهو أحق بأن يوصف بأنه شاب نشأ في عبادة الله. وعاش عليها ، ومات عليها ان شاء الله.

وخطيب المسجد الأعظم :

وكان خطيب المسجد الأعظم ، خطبتان قصيرتان ، مفيدتان ، في غير تقصير ولا املال ، يضاعف من روعتها القاء واضح ، فقرة فقرة ، وجملة.. فجملة، في وضوح تام ، وصوت ملهـب الشعور في رنـات موسيقية ، وفي سمت جميل ، ووقار ياسر القلوب ، ليست خطبه الجمعية بالتقليدية الصرفة ، ولا بذات الجدة التي تهز النفوس هزا عنيفا بما بموضوعاتها الحية المتحركة، ولكنها كانت عوانا بين ذلك ، فهي مثيرة على أي حال ، ولو باعتبار حسن الالقاء وفنية الالقاء...

دروســه :

أساسيا فان دروسه كانــت بالزاوية **بين مريــدي والده ، لوضعهم على** الخط الاسلامي الطاهر من الطفيليات ، وخصوصا حالما اشتدت الزمانة معنويا وماديا ، ولم يكن من اخوته من يفري فريــه علما وأخلاقا وسلوكا ، فهو الدرة اليتيمة في عقد الأسرة..

وادارة الزاوية كانت تكاد تستغرق أوقاته ، عـلاوة على ما نيط به من الخطب الجمعية وبالرغم من ظروفه المشار اليها ، طلبنا منه فتح درس في الألفية بالمكودي ، ففعل...

أسلوبــــه :

القاء هادىء ، وايضاح تام ، وأجوبة مقنعة عن أسئلة الطلبة ، فسل ما شئت فيجيب ، ثم يرجع الى موضوعه من غيــر انفعال ولا اضطراب ، الامر الذي كان يشعرنا بأنه متصور لدرسه ، متذوق له مركز في ذهنه ، على أي حال كان ، غير ان ظروفه حالت دون مواصلة دروسه معنا زمنا طويلا ،على أن الطلبة كانوا ـ فيما اظن ـ يهدفـون الى التبرك بالأخذ عن شاب نشأ في عبادة الله أكثر ما كانوا يستهدفون الدراسة عليه ، تمشيا مع سنة السلف في الأخذ عن أهل التقوى للامتزاج بهم والتأثر بأخلاقهم..

والجدير بالاشارة ، انــه كان يلقي درســه التطوعي في القاعة الخاصة بالدروس ، ولم يحاول رئيس المعهد الغيور علــى الألفيــة أن يمنعه من القاء دروسه فيها ، لان للشاب المدرس قيمة دينيــة واسريــة وخصوصا بنوته للسيد الحــاج عبد الرحمــن الذي ما اختلف الناس في فضله ، توفي رحمه الله فيما أظن قبل الحرب العالمية الثانية أو بعدها بقليل سنة 1939م ،فرحمة الله على شيخنا ، وله من الله الجزاء الأوفى ، وبارك في ذريته آمين.

مع شيخنا السيد اسماعيل الادريسي
القاضي رحمه الله
(9)

التحقت بالمعهد كما سبق القول عام 1349هـ تقريبا أي في منتصف 49 بالضبط سنة 1939م، ولست أذكر جيدا هل وجدت على قضاء وجدة المرحوم بالله السيد محمد بن قدور العبادي وفي آخر عهده هنالك ؟ أم أنني التحقت في فترة انتقاله ، وقبل حلــول المترجم مكانــه ، أم انني وجدت المترجم يمارس القضاء عقب انتقال المرحوم السيد محمد ابن قدور العبادي

وان هذه الشكوك التي ساورتني كانـت نتيجة عدم تعرفي على وجدة قبل الالتحاق بالمعهد ، فانني مـا رأيتها قبـل التحاقي بالمعهد ، وان كانت لا تبعد عن « ابركان » الا بستين كيلم ولو قدر لي أن أراها من قبل لما كان لهذه الشكو كمنفذ الى ذاكرتي ، فلقد طبعـت على التقاط كل ما أصادفه من أشياء ، حتى بعض التوافه التي سرعان ما تنطبع على صفحات ذاكرتي ، أو تتصف بين رفوفها الدقيقة بأصدق تعبير ، علاوة على ذلك فان من في مثل سني وأنا في منتصف عقدي الثاني لا يسمح له مستواه بالقاء أسئلة من هذا القبيل على الطلبة الكبار ، فلو انني تجرأت وسألت أحدا منهم لأجابني ساخرا بقوله : انت مازلت صغيرا فمـا شأنـك وهـذا السؤال ؟ وربما استرسل في السخرية بي ، ومن طبعي أن لا أتسامح مع اي ساخر ، فيقع ما لم يتعوده الطلبة الكبار من جرأة الصغار عليهم.

وهكذا حرمت ذاكرتي من التأكد بدقـة الفترة التي تولى فيها المترجم خطة القضاء بوجدة

صفـتـه :

طويل القامة ، أعين ، كثيف شعر اللحية والعارضين ، محوجب ، جميل الصورة الى حد الروعة والمهابة أنيـق اللباس ، ولعلـه الشيخ الوحيد من شيوخي الذي كان يرتدي البرنوص الأسود من الملف طبعا ، وتحته حائك كأنه اللجين ، وفرجيتان بينهما قفطان ، وبلغة فاسية في المستوى الرفيع، مع جوارب جيدة الصنع... يمشي مستقيما ، متقارب الخطوات ، في تؤدة ومحافظة على وقار الخطة، ويبدو لي أنها كانت من طبيعته ، وآيات الاعتزاز بشخصيته وخطته واضحة لا غبار عليها.

درســه والقــاؤه :

تقدم اليه بعض كبار الطلبة للقياس بدرس يختاره هو نفسه ، فكان « العقائد » من منظومة ابن عاشـر رضي الله عنه ، ولاحظنا نحن الطلبة ان السيد القاضي كان يجد صعوبة واضحة في الأداء ، وخيل الينا انه اما كان بعيد العهد بالتدريس أو لما يقال من انه اختصاصي فقط في صناعة القضاء؟ وان معلوماته كانت مهزوزة ، أو غير ناضجة ، سامحني الله، فما ان أنقص منه ، ولا من معارفه ، وانما أمليت ما احتفظت بـه ذاكرتي ليس الا ، فعفا الله عني مرة ثانية ، وتدارك الله شيخنا بعفـوه وكرمه ، وتجاوز عنه ولو لدمائه النبوية الطاهرة ، أو لقيمـة الشهادتين عنـد الله ولعل شيخنا هذا تجاوبت مشاعره مع مشاعر الطلبة ، فأوقف دروسه نهائيا.

وقبل نصف عام فيما أذكر بالقرويين ، نقل شيخنا الى قضاء مقصورة القرويين ،اذ كان لفاس قاضيان ، والثاني بمقصورة الرصيف ، ومرة أخرى أقول ، قابله الله بعفوه وكرمه، نعم انبه كل من لــه معرفة بمترجمنا انني على علم بكثير من مواقفه وخفاياه ، وواجبــي كتلميذ له ان اسدل الستار عن كل قيل وقال ، وان كان من المفروض أن تكــون لذلك ظلال ، فعفو الله أوسع مما قيل ويقال ، وقد قوفي فجر الاستقلال في ظروف نفسانية قاسية..

ان الشعوب في عنفوان غضبها ، لا ترحم يا شيخنا الراحل ، فليرحمك الذي لا يغفر لمن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فالله اسأل ان يجعلك ممن يشاء أن يغفر لهم آمين.

مع شيخ شيوخنا بالقرويين المرحوم سيدي عبد الرحمن الشفشاوني رضي الله عنه

(10)

وعقب انتقال المرحوم السيد اسماعيــل الادريســي الى فاس ، خلفه : « دائرة المعارف الاسلامية » على قضاء وجدة شيخنا وشيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الشفشاوني متعه الله تعالى بما يشتهيه ويرضاه في دار النعيم انه الرحمن الرحيم والجواد الكريم.

هكــذا أذكــره :

متوسط القامة ، في ميل الى القصر ، يمشــي في تمايل ما ، وأكاد أن أصفه بعرج ما ، أعين ، واسع الحدقتيــن ينبعث منهما شعاع قوي ، ينبيء عن صفاء الذهن ، وسرعــة الادراك ، يساعده علــى تصور الأشياء تصورا احاطيا ، وتنظر اليه وهو يسدد نظراته انه يأخذ عدة صور من الشيء الواحد، فيوزعها واحدة لرفوف ذهنه ، وأخرى لمشاعره ، فهو دقيق النظرات في عدسة دقيقة الضبط ، بل أشعر الآن : ان عدســة بصيرته الصافية النقية ، كانت أدق في التقاط ما وراء الستائر فالرجل ليس بعالم كبير فحسب ،ولكنه رجل نقي الطوية ، ذو مواهــب متنوعة الهية، فهو فــي مستوى عال من البشرية العادية فميله الى العالم الملائكي يكــاد ينسيك بشريته فمن تعود مخالطة أهل الخير والصلاح، يتصوره من أبرز عباد الله الصالحين ، ولكنه ليس من الصالحين المغامريــن فقد كأن الواقــع القاسي يعــز له عن مجتمعه النضالي وان كــان تقدم سنــه ينقــل مسؤولية نضالــه الى تلامذته وقد فعلوا..

سلوكه في القضاء :

لم تمر أيام قلائل على ممارسته القضاء بوجدة ، حتى أخذت الألسنة تروي بتواتر واستفاضة : جمع أذياله ، وشد أزره عما عمت به البلوى من الرشوة « والهدايا » ،ولولا انبساطه للمتقاضين ، ولين جانبه لهم وتمكينهم من حقوقهم في غير دوران ولا تسويف ، لقيل : انما يفعل ذلك ناموسا فقط، أما بالتغرير بالبداية الحسنة الخادعة حتى يتمكن من استيفاء دراسة جو المغرب الشرقي ، الذي اشتهر بطابع التدين المتطرف ، والجدية المتطرفة ، واما ان له شرها أوسع من العروض ، او ان له موارد خفية من جهة من الجهات ، ولكن الرجل استمر أفقيا في أخلاقه ، جديا متفتحا في معاملاته ،، مهتما بقضايا المتحاكمين ، معتدلا في أحكامه وكل ما كان في امكان الحسدة والبله ان يثلبوه به انه ينوع « المرافعات » لاستخلاص أكثر ما يمكن من المتقاضين وهو لمز سخيف جدا ، فالرشاوي والهدايا ، اغنى ، وأثرى واخصر طرق الاغناء والاثراء ، من مردود مرافعات تافهة الاداء في قضية من القضايا المعروضة على مجلسه ، وان كثرة مرافعاته كان يستدعيها التأكد من كل مبهم أو غامض ومن كل ما يتلجلج.
في صدور الخصوم ، واعذار لهم في كل ما يستمهلونه به من اجال لتدعيم دعاويهم ، حتى اذا اتضح أنهم استوفوا كل ما يرونه من حقوق ، اتضحت - مع ذلك صورة القضية بجميع أجزائها ، فيصدر القاضي حكمه وهو مرتاح الضمير ، وذلك ما كان يستهدفه شيخ شيوخنا رضي الله عنه ، بدون أن يخالجني أدنى ريب في ذلك ما دمت ملزما باصدار الاحكام التاريخية على ضوء استكمال صور ظاهر الأشياء ، الى ما استجليه من صور باطنية من خلال سلوك شيخ شيوخنا رضي الله عنه ، والله يشهد اني لا أعبر الا عما أعتقده ، ولا دخل لاية عاطفة في أحكامي التاريخية ولست مسؤولا عما طواه الله عني من خفايا ، والله الحكم فيما ظهر وما بطن ، فهو العالم الوحيد.

الدرس والالقاء :

استجابة لرغبة الطلبة ، فتح لنا درسا في « التحفة » صباح كل يوم ، وكان يحضره جميع الطلبة وخصوصا الطامحين الى خطتي « العدالة والقضاء » فدراسة فقه المعاملات على القاضي ، دراسة تجمع الصورة العملية الى التصور النظري ، ولا سيما من قاض كمترجمنا ظليع في الميدانين معا.

ولعل معظم طلبة وجدة كانوا طماحين الى احدى الخطتين القضاء أو العدالة على الاقل ، على أنني لا أستبعد أن بعضهم كان يحرص على التماس هذه الدروس من القضاة استهدافا لتعرف القضاة عليهم ، الأمر الذي يمهد

الطريق الى احدى الخطتين، فالأحاديث عنهمـا في أوساط الطلبة متواصلة مسترسلة ، اذ كان لهاتين الخطتين شأن لا في الاثراء فقط ، ولكن لهما نفوذ ووجاهة وتقدير في المجتمع ، والوازع الديني من حيث الارتشاء والهدايا ، اختطفته التقاليد وعموم البلوى وألقت به في كهف مظلم لا يرى النور ، فما كان أحد يأبه بعدالة علي كـرم الله وجهله ولا لقضاء عمـر في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ؟؟

نعم ، الحق أقول : انني لا أستطيـع ان ادعي ان حافظتي وذاكرتي معا استطاعتا بينهما أن تحتفظا بأسلوب القائه..

وكل ما أستطيع أن أتذكره : ان الرجل كان يتدفق كالسيل المنهمر ، يملي الدرس في كيفية كادت تحملنا على شبه اليأس من أن نصل الى هذا المستوى من الاطلاع ،وحفظ النصـوص وتنسيقها ، وأدائهـا في يقين واعتزاز « بحر خضم اذا ما جئت ساحله » من أي ناحية تراه يندفق «فبيت التحفة كان حينما يحوله نثرا ، ترى الصـور الفقهية تنسـل منه كالعرائس المجلوة للعيان ، ذات الروح والحركة شبه المحسوسة ، نعم حينما يتجاوز هذا الحد من تصوير الصـور الفقهية مـن خلال البيـت ، يعرج الى سماء المعارف ويتركنا في الأرض شاخصـة أبصارنـا الى الآفاق الشاسعة، ولا نشعر الا وقد انهى درسه ، فنحتفظ بظاهر بيت التحفة، وأجرنا على اللـه فيما كان يحلـق فيه من معارف واسعـة الآفاق ـ

ايقـاف درسـه :

ومع كامل الأسف فقد أوقف الشيخ القاضي رحمه الله هذه الدروس. ذلك أن قضاء وجدة بالخصوص وفيما يظهر لي ، كان يستدعي منه الجهود المتواصلة في مختلف المجـالات ، وليس الأمر واقفا عنـد حدود الاهتمام بالقضايا فقط ، ولكنه رضي الله عنـه كان يجاهد جهـاد المومنين لانتشال خطتي القضاء والعدالة ومهنة « الدفاع الذي كان يمارسه العامة اجماليا من الوهدات التي تهاوت اليها منذ عهد بعيد ، علـى أنني لا أستبعـد اقتناعه فكريا وشعوريا بأننا نحن الطلبة لم نستطع أن نتجاوب مع دروسه الواسعة الآفاق ، لضيق مجال مطالعتنا ، ولما ألفه هو من القاء دروسه في المستويات العالية، وتنازل مثـل هؤلاء العلماء مـن بروجهم الشامخـة الى مثل مستوى مداركنا متعب ومثبط الى أبعد حدود التعب والتثبيط ، فجزاه الله خيرا وأنعم عليه بما هو أهل له آمين.

وآخـر لقـاء معـه :

أذكـر جيدا : أنني كنت أسير رفقة شيخي المبـارك سيدي العربي الشامي من أسفل زنقة السبيطريين فاس حتى اذا وصلنا الى قرب مكتبة السيد عبد الله القادري ، فاجأنا المترجم بوجهه المنير ، وابتساماته المشرقة وعينيه الضاحكتين ، فسلمنـا عليه ، ولشد مـا عجبـت والمترجم يقول لشيخي « أهتم بهذا الطالب الوجدي فانه مـن تلامذتي هنالك واثنى علي ! قلت لشد ما عجبت لذلك ، فانني لم أكـن من البارزيـن في حلقات دروسه، فكيف ارتسمت صورتي في ذهنه ؟ ولكن لا عجب متى صدقني القارىء فيما كتبته صدر الترجمة عنه.

هذا آخر لقاء لي معـه ، وان كنت أسمـع عنه من حين لآخر ولا أسمع عنه الا ما يزيده سموا عن سمو وشرفا عن شرف فهنيئا له بما كسبه من مجد اسلامي عظيم ، وهنيئا للعالـم الاسلامي بهـذا العالم التقي الكريم واعذره الله اطلاقا فيما حال بينـه وبين اندماجـه بين صفوف المغامرين للتحرر من نير الاستعمار آمين.

الخـلاصـــة :

والخلاصة انه الفقيه الشريف سيدي عبد الرحمن بن الهادي الشفشاوني الحسني ولد عام 1306 الموافق حوالي 1888م

وأهم شيوخه : 1) مولاي أحمد بـن الجلالي 2) سيدي أحمد بن الخياط 3) مولاي عبد الله الفضيلي رحمهم الله وكلهـم تولوا رئاسة المجلس العلمي للقرويين على التوالي وأعرف منهم [illegible] الثالث فقد تولى رئاسة المجلس العلمي المذكور في أواخر عام [illegible]351 [illegible]وائل سنة 1932م أي بعد حوالي شهر من التحاقي بجامعة القرويين [illegible] تاريخ التحاقي بها

تفاصيـل خدماتـه :

1) أستاذ بجامعة القرويين بفاس من سنة 1915م الى سنة 1929م

2) وفي نفس المدة عمل مدرسـا بثانوية مولاي ادريـس بفاس ابتداء من أكتوبر 1921

3) وعمل مدرسا مساعدا بالمدرسة الاسلامية لابناء أعيان مدينة فاس من تاريخ 1927/10/1م الى 1930/1/1م.

مع شيخنا المرحوم السيد محمد بن باصو
(11)

شيخنا السيد محمد بن باصو « بشد الصاد » من عائلة آل باصو » وبها عرفت في وجدة واذا كانت الأسرة تعد من الاسر الوجدية فاني أعتقد أن أصلها يزناسي، فالملامح اليزناسنية كانت مشخصة في جسمه وأخلاقه، وهي غير الملامح الوجدية فالوجديون ، هم الذين لم ينحدروا من أصول ما حول « وجدة » من قبائل ، ولشخصيته ملامح بينها وبين غيرها مفارقات كثيرة ، وأخصها ما في الوجدي الأصيل من شبه انطوائية وفي غيره من انطلاقات على آفاق واسعة.

صفتـه :

كان شيخنا طويل القامة ، في بياض مشرق ، ووجه باسم ، تبدو عليه آيات الفتوة ، بالرغم مما كنت أتصوره من اقتراب عمره من مرحلة الشيخوخة ، أي من الستين سنة اذ ذاك ، أنيق اللباس ، قوي العضلات ، رائع النبرات أفوه، عريض الجبين مستدير الوجه ، خفيف اللحية والعرضين، مع تكاملهما ، محافظا على سمة الفقهاء ، في حديث باسم كمحياه ، مؤنس بطلعته وحواره ، خفيف الظل ، مسالما ، مجاملا لا يتورط في المواقف المحرجة ، هذه بعض صفاته الحميدة التي ارتسمت على صفحات ذاكرتي وكأني أراه أمامي الآن.

مهماتـه الدينيـة :

انني متأكد من انه صاحب تراويح رمضان ، فهو مجيد لحفظ كتاب الله العزيز، يتلوه في صوت مؤثر ، بما وهبه الله بحنجرة موسيقية عذبة ، مع مع ترتيل عجيب ، لا يمل أحد من الاستماع اليه ، وهو يحبر كتاب الله الكريم تحبيرا. ومن العجيب ، ان بعض الطلبة كان مشغوفا بالاستماع اليه، برغم عدم صلاة التراويح معه ، والى جانب ذلك كان مكلفا برواية الانصات الى الخطيب بالمسجد الأعظم وكان من الوعاظ بالمسجد الأعظم ، وكان الوعاظ يتنوعون الى نوعين : منهم من يقوم بدروس في أوقات خاصة ومنهم من يأخذ كتابا دينيا مرهفا للاحساس الديني فيتلوه على الناس في صوت موسيقي ، وكان المترجم منهم ـ

ومن قبيل الظن القوي ، انه كان من أئمة المسجد الأعظم أيضا، ولا أذكر الصلوات التي كان يؤم فيها ، وأقربها الى ظني أنها الصلوات النهارية.

دروســـه :

بطلب من طائفة مــن الطلبة فتح معنــا دروســا في « الألفية »بالمكودي رحم الله الجميع ، وأسلوبه مبسط سهل يساعد الطلبة على التركيز العقلي ، للاستافدة أكثر ما يمكن ، غيــر أن دروسه هــذه لم تستمر طويلا ، واذكر انه كان يحمل معه « محفظة » فيها عــدة كراريس مــن شراح (الألفية) ويضعها في حجرة أثناء الدرس ممــا يدل على انــه كان درس «الألفية بعدة شروح.

وفــاتــه :

لا أستطيع الآن أن أقــول متى ولد ؟ ولا متــى توفي ؟ وكل ما في امكاني التقديري انه لم يعش أكثر من سبعين سنــة ، وبناء على ذلك، فيكون من مواليد حوالي 1290 هـ وانه توفي حوالي 1360 هـ ولا أعرف الآن مكان دفنه، وان كنت أظن انه دفن في مقبرة « سيــدي المختــار » الشهيرة ، فالدفن في الاماكن الخاصة قليل جدا في وجدة ، رحمة الله عليه ورضوانه ، وعامله الله بلطفه وكرمه ، وجزاه الله عنا خيرا عما أخذنا منه وما كان يقوم به من أنواع العبادات التي أشرت اليها من قبل.

ملامح عامة من رفقائي في المعهد

● في كتابي : « ذكريات الدراسة في فاس » سجلت أسماء رفقائي في معهد وجدة بـدون ملامحهـم العامة والخاصـة ونظرا الى أنني كنت ـ ولما ازل ـ أحبهم من خالص قلبي ـ رأيت أن أسجل هنا طائفة من ملامحهم المادية والمعنوية في ذلك العهد.

الملامح العامة :

1) كلهم كانوا يزناسيين باستثناء الرفقاء : 1) الحبيب المعسكرى 2) محمد الورسوسي 3) مصطفى ابن الطيب 4) عبد الغني البيدري ، مع اعتبار الثالث مغربيا بولادته واندماجه في الجنسية المغربية بصفة تلقائية وعملية واستمرار الاول والثاني علـى جنسيتهما الجزائرية ، أما الأول فمن المحقق انه صار الى عفو الله وامـا الثاني فلا يزال حيا مزمنا ، وأما الثالث والرابع فأطال الله عمرهما.

2) كلهم يحفظون كتاب الله العزيز ، ولم يكن يسمح لمن يحفظه بالالتحاق بالمعهد.

3) معظمهم أنيقوا اللباس.

4) تتراوح أعمارهم ما بين العقد الثالث والرابع وكاتبه «أصغرهم سنا على الاطلاق فلقد كنت في أول النصف الاول من العقد الثاني».

5) كلهم يحافظون على السمت المحترم خارج المدرسة ، فلا صعلكة ، ولا تسكع في الأزقة والشوارع

6) احترام الصغير السـن ، لمن هـو أكبر منـه سنا، والعكس ، خلق عام بين الطلبة

7) الابتعاد المطلق عن كل ما من شأنه أن يثير الشحناء والعداوة ، فلا أذكر أبدا ان طالبا كانت له عـداوة ذات أهمية مع أحد الطلاب ، وعلى العكس ، كانت تسود بين الجميع العلاقات الطيبـة في جو يفيض بالأخوة والمروءة.

الملامح الخاصة :

(1)

المرحوم السيد الحبيب العسكري

● كان يسكن في الغرفة الملاصقة للصنبـور الخاص بالطلبة ، قصير القامة نحيف ، مع اعقيقاق ، مجعد الوجه يقاسي من ألم دفين ، كان يقربه بسرعة من مصيره النهائي.

وكان رحمه الله جديا في منتهـى الجدية ، ذا محبـة لقطره الى حد انه يغضب اذا ما داعبه السيد الخثير بن عبد العزيز «العدل الآن» (1) بقوله مثلا ان دلاح الجزائر او بطيخه غير جيد او ان أجواء الجزائر مليئة بالغبار والعجاج حتى اذا اشتد الغضب بالسيد الحبيـب رحمه الله ، تداركـه السيد الخثير بقوله : يا سيدي الحبيب أنا لا أعرف الجزائر ، ولكن روي لي ذلك فقط، وقد يكون الراوي كاذبا، فاسمح لي، ويقبل رأسه ويتصالحان، غير أن السيد الخثير سرعان ما يعود الى مداعبته بجزئيات أخرى ، فيعود السيد الحبيب رحمه الله الى غضبه ويعود السيد الخثير الى مصالحته واستسماحه...

...كان السيد الحبيب رحمه الله ، مكننا من قبل الطلبة بتهيئة طعام العشاء الجماعي للطلبة ، حالما يلتحق طالب جديد ويؤدي خمسين فرنكا للطلبة في نطاق «تقاليد المعهد» ويأبى السيـد الخثير الا أن يستغل هـذه الفرصة فيطالب من السيد الحبيب أن يسمـح له بمساعدتـه ، وأثناء هذه المساعدة يغضبه مرات متكررة بسخرياته المثيـرة للأعصاب كان يقول له مثلا : انه عشاء طيب ولكن فيه شيء من رائحـة الجزائر حال دون استكمـال طيبة مذاقه ونكهته..

وتارة يتحدث السيد الخثيـر مع طالب آخـر من حيث يسمعه السيد الحبيب ، فيقول مثلا : لقد اجتاحت مدينة «مغنية» ريح عاصفة ملأى بالغبار، حتى أطبق على المدينة ، بحيث لا يستطيع الانسان أن يرى غيره، وأن مدن الجزائر كلها في محنة بالريـاح الحاملة للغبار المطبق «الله يحسن عونهم» وحينذاك يتصدى له السيد الحبيـب في غضب متناه قد يبلغ الى السباب والشتم، فيجيبه السيد الخثيـر في برودة بقوله «اسمح لي مـا كنت أظن انك تسمعني ؟ ثم يقول لـه أيضا : ولكن يا سيدي الحبيـب فهل الناس كلهم يكذبون ؟ لا شك أن غبارا اجتاح القطر الجزائري أو بعضه فيتضاعف غضبه ثم التصالح أخيرا.

وكان من عادته رحمه الله ، انه بمجرد ما يأخذ أحد شيوخنا في درسه ينام ! فاذا نبهه السيد الخثير الى ذلك أنكر انكارا تاما انه كان نائما ، وهو غاضب عليه أشد الغضب■

---

(1) توفي رحمه الله منذ سنوات قلائل.

وذات مرة خرجنا جميعا مـن قاعة الدرس وبقـي السيد الحبيب وحده مسندا ظهره الى الجدار وهو نائم، فجـاءه السيد الخثير فأيقظه وهو يقول لـه : لقد فارق الطلبة القاعـة منذ زمـان ، فهـل لك أن تلتحق بغرفتك ؟ يقول له ذلك في أسلو بساخر وهيأة ساخرة ، وحينذاك ، يلزم صاحبنا الصمت المطبق ، وهو يدمدم بكلام غير مفهوم أثنـاء رجوعه الى غرفته ، ثم يتصالحان وهكذا كان السيد الحبيـب رحمـه الله يغري السيد الخثير بهذه الدعابات الساخرة من غير قصد الاذاية اصلاقا السيد الخثير مطبوع على الدعابة في حركاته وسكناته...

توفي رحمه الله يقينا قبل الحرب العالمية الثانية، عقب أن عصفت بـه أمراضه، فرجع الى أهله وذويه ، فانتقل الى عفو الله...

(2)

الطالب السيد اقويدر بن بومدين الشحلافي

قصير القامة ، مجدور الوجه ، أعين ، أفوه، مرح، لا تفارقه الابتسامة فقير صبور ، متجمل ، مسالم ، يألف ويؤلف متعفف في الأموال ، قانع بشظف العيش في المدرسة ، ذو دعابة مقبولة

ومن لطائفه : أن يداعبه أحد الطلبة بقوله : يا اقويدر ألا يمكن لك أن تشتري لي نعناعا وسفنجا ؟ فيرحب ويذهـب توا لاقتناء ذلك، حتى اذا سلم ذلك لصاحبه ، أخذ شيئا من النعنـاع قليلا مع سفنجة أو اثنتين وفلس أو فلسين ، ويقول لصاحبه هذا واجبي عوض السخرة ، وهو يبتسم كأنه شيء عادي ، وكان له «كيس» خـاص يضع فيه تلـك الفلوس ، حتى اذا افتقده بعد حين ، وجد فيه ما يقرب من خمسين فرنكا !

وكان لها شأن كبـير ، يفعل ذلك دعابة جـادة ، متى أحس بحسن النية ونبل صاحبه ، اما اذا شعر بشيء عكس ذلك ، فعزة لا حد لها ، مع مجاملة عذبة ، لقد كنت أرافقه الى المقهى كثيرا لما فيه من الانس ، ولين الجانب، فقال لي أحد الطلبـة ذات يوم : هـل صادف أن أدى قويدر ثمن مشروبات جلسة من جلساتكم في المقهى ؟ ففكرت قليلا وقلت : لا... ولكنني ما انتبهت الى ذلك ، لانه طالب فقير مؤنس وأنا أغنى منه فلم أشعر أبدا بأنه «بخيل» فقـال لي انه هو ■ هو.. مع جميـع من يرافقهم ، لا يشعرون الا وهم طوع يده ورهن اشارته ، وهـو لا ينفق عليهم ولو فلسا واحدا ! فقلت : فليكن ، انـه هادئ الطبع ، أشعـر بالانس معـه وبالتمتع بنكته وما أنا بأول «ضحاياه».

قلت : وكذلك هم العقلاء المؤنسون الذين يألفون ويؤلفون ويتقبلون الهدايا ولا يطمعون ، ويشكرون ولا يتنكرون فخلالهم أفيد لنا من أموالهم، ورحم الله المتنبي :

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها
سرور محب ، أو اساءة مجرم

ومن لطائفه : انه حينما انفصل عن المعهد ، وتزوج ، وفتح له متجرا بسيطا فزرته ، فاستدعاني الى منزله ، أخذنا نقطع دروبا كثيرة ، وفجأة قلت له : اقتربنا من منزلك يا اقويدر ، فسألني عن سبب شعوري بذلك ؟ فأجبته : لقد لاحظت اننا كنا نسير بين دروب نقية ، انتهت بنا الى هذا الدرب «العفن» ولن يكون منزلك الا قريبا منه، فابتسم قائلا : قبحك الله «وقبح ابن خالتك سي عمرو » هكذا قلتما جميعا ، انظر ذلك هو منزلي ! قلت ان بيتك في المدرسة غير محسود من حيث نظافته ، وأنت مضرب المثل تبادلنا هذه النكت في مصفاة أخوية صادقة . وثالثة لطائفه التي لا حصر تبادلنا هذه النكت في مصافاة أخوية صادقة وثالثة لطائفه التي لا حصر لها : انني بعد ان انتقلت الى دائرة وجدة من ابركان قائدا ممتازا، فاجأته بزيارة في متجره ، فاستقبلني استقبال الأخ لأخيه ، قائلا : انني متأكد من انك غير ءابه بالقيادة ، فأنت أنت ، فلا تهمك هذه المظاهر العامة ، فقلت : هو ذاك... والله لجلسة مع أصدقائي أعز الي من كل جاه وسلطة أعيش في قفصها بعيدا عن احبائي واصدقائي ، فأمر أخاه بتهيئة الشاي ، وأثناء ذلك قال لأخيه خذ هذه القوالب من السكر وضعها في سيارة القائد، خذ هذا الصابون ، خذ الشمع ، واخذ يواصل ارسال مواد كثيرة مما في متجره ثم جمع الحساب وطلب مني أداء ذلك قائلا : لا معنى أن يزورني أخ كريم أصبح قائدا ممتازا ، ولا يشتري مني جملة من المواد ، وهو يعلم مانعانيه من الافلاس والكساد ، فقلت له : لا عجب في تصرفاتك ، الا انك أرسلت الشمع مع المواد ! وأي دخل للشمع والكهرباء بالمنزل ؟ وبسرعة، أجاب : ينفعك حينما تنطفىء أضواء الكهرباء في الزمن المطير أو أهده لضريح ما ، فضحكنا جميعا وقلت الان وقد ربحت تجارتك ، هيا الى منزلي فتمتعنا بسهرة طيبة استعدنا فيها عهود الدراسة.

بلغني انه فقد بصره ، وبيني وبين رؤيته مدة طويلة ، رزقه الله الصبر والثبات وعوضه عن بصره بصيرة نيرة

(3)

الطالب السيد الحسين الوكيلي

رفيقه في الحجرة السيد الحسيـن بن عبد القادر الـوكيلي ، من بني وكيل قرب وجدة غربا بعشرين كيلومترا حيث محطة القطار الآن.

متوسط القامة ، مشرق الوجه ، يتحدث في ابتسام ، ما رأيت غضبه أخرجه عن مروءته ولا أتهم في عرضه ودينه، يألف ويؤلف ، أنيق ،بالرغم من فقره ، عينه الطلبة «مقدمـا» على حفلاتهـم المدرسية يساعده السيد الحبيب المعسكري رحمه الله ، وعلى ما يداعبه به الطلبة من انتقادات حول تهيئة الطعام في الحفلات، فلا تـرى الا أجوبة في منتهـى التفتح والمروءة، فلله ما أكرمـك يا سيدي الحسيـن ! فأمثالك في هـذا العهد الغريب الاخلاق قليل..

(4) - (5)

الاخوان السيدان : المختار وابراهيم الوكيليان

● وفي الغرفة الثالثة الطالبان الشقيقان السيدان المختار ، وابراهيم الوكيليان ، وكلاهما على جانـب مهم من الخلق الطيب ، ويمتاز المختار بكثرة الاستفادة من جهوده الدراسية وطبيعته الجدية ، ولا يخرج عن الجدية الا في فترات قليلة ، اما ابراهيم ، فقد كان متفتحا كثيرا من أخيه ، ولا يقل كثيرا عن اجتهاد أخيـه والمختار طويل القامة أعيـن ، محوجب ، اسيل الوجه ، نحيف وابراهيم طويل القامة أيضا ، ممتليء لحما ، يفيض شبابا وفتوة في وجهه «حب الشباب» فما رأيته فارقه»

(6)

الطالب السيد الخثيـر

● السيد الخثير بن عبد العزيـز «العجرودي» وعجـرود : هي السعيدية القديمة على شاطـي البحـر الابيض المتوسـط وترجع الى دائرة ابركان شمالا ، وبينهما 24 كلم طويل القامة ، قوي العضلات ، في ميل الى السمرة ، وله باع طويل في الدعابة والفكاهات ، وقد أشرت الى بعضها مع المرحوم السيد الحبيب المعسكري

ومن لطائفه ، وكله لطائف ، انني قلت له ذات مرة : لقد رأيتك في الحلم في حالة كذا ، وكان ينصت الي ووجهه كله ساخر ، وعند الانتهاء من حكاية

الحلم قال لي : انتظرني هنا لأدخل البيت فأنام ، لأكافئك عن حلمك بحلم، لتبرأ ذمتي مما اسديت الي في الحلم ، فضحكنا جميعا وقلت له «أنا المفلس» والا فأنت تسخر من الحقائق ، فضلا عن ان تتقبل الحلم بجد.

●ولطيفة أخرى في عهد المقيم العام (اجوان) 1048م كان الجو السياسي في توتر خطير فتلاقينا مرة في ابركان وقال لي : أرجوك أن تزورني في منزلي بالسعيدية ولكن حينما يخيم الضباب عليها ، حتى لا يراك أحد « العيون » في منزلي ، قال ذلك مداعبة وهو يبتسم كعادته، وقد كان ـ برغم عدالته ـ استقلاليا من الطبقة التي نحتاجها للعمل في الظروف الخطيرة التي تشتد فيها المضايقة على الاستقلاليين العاملين علانية وبدون أي تقية ، بارك الله في السيد الخثير وفي أسرته النبيلة.

(7) ـ (8)

كاتبه والسيد عبد الله الوشكرادي

وفي الغرفة الخامسة «كاتبه» والسيد عبد الله بن عمرو بن قدور الوشكرادي ، طويل القامة ، مكتنز الجسد ، قوي العضلات، أبيض ، في ميل الى الصفرة ، في منتهى الذكاء والدعابة والسخرية حتى بنفسه ! ناقد «لاذع» لا يسلم منه أحد ! ذات مرة كان يغسل رجليه في وادي سيدي يحيى ، فأخذ يخاطبهما بقوله : « لعنة الله عليكما من رجلين لا تنفعان في شيء ، ضعف ، وصفرة ، ورخاوة ، يا لطيف.. يا لطيف وفجأة رأى بعض الطلبة حوله يضحكون من حواره مع رجليه ولعنهما ، فضحك وهو يقول : **والله ان هذين** الرجلين لملعونان ما فيهما من فائدة أصلا ، وكان مقبولا في دعابته وانتقاداته وسخرياته أمام الطلبة ولكن تغيرت العهود فصار يعاب بذلك.

ومن نكته ـ وكله نكت ـ قلت له ذات مرة بعد أن جمعتنا المحكمة الشرعية : ان عمك فلانا أصبح اليوم في ثياب الاستسقاء : فأجاب فورا : انه دائما في ثياب الاستسقاء ! وقلت له ذات مرة : انك تجاملني كثيرا ! وتتآمر ضدي كثيرا ! فأجاب فورا : لا تخف ، لقد خلقت لما تراه مني من مؤامرات ، ولكنها لن تضرك لسلامة طويتك ، فكن مطمئنا على انني لا أترك ما علمت ، ولا يضرك ما عملت ، ومن العجيب انه ما كف عن خلاله ! ولا تضررت بها طول حياتي ! ولقد بلغت هجوماته ومؤامراته ضدي الى حيث انتهى ذكاؤه ، فما مسني سوء بذلك فلقد كان السبب الاول والاخير في تمهيد السبيل أمامي الى المعهد ، وكنت أقول له : افعل ضدي ما شئت فمعروفك ومعروف المرحوم أخيه السيد البشير يمنعاني من أن أرد على السيئة

بمثلها ، فلقد انغلقت الابواب في وجه والدي رضي الله عنه ، لالحاقي بالمعهد، وتنكر له ولي من كان يمكن أن يساعدنا ، ويسرت لي أنت وأخوك الطريق الى المعهد ، وليست لك مكافأة مني تنفعك الا أن أقابلك بالعفو المطلق عن كل تسيء به الي ، واحذر غيري فانك في منتهى التطرف في خلالك.

لقد أصيب أثناء سنة 1976 بالشلل ، ولعل الله امتحنه ليكفر عنه ما سلف منه ، أما من جهتي فأسجل هنا عفوي التام عنه في الدنيا والآخرة وذلك بعض ما يجب له علي.. لما ذكرت من صنيعه وصنيع أخيه السيد البشير رحمه الله.

(9)

«المرحوم السيد علي بن بوعزة»

● السيد علي بن بوعزة البوغنمي رحمه الله ، متوسط القامة ، نحيف الجسم ، خافض الصوت ، حيي ، بعيد عن الفضول ، تقي، ورع كان ببعض أصابعه شيء من البرص، سكن معي بعد انفصال السيد عبد الله قبله عن المعهد ليعمل كاتبا بالمحكمة الشرعية بابركان.

وكان السيد «علي بن بوعزة» قد تعلم في شبابه النفخ في الناي ، وكان خبيرا بذلك ، لا سيما وأخوه «بولنوار» فانه يحترف ذلك في الحفلات ، ولكن مترجمنا رحمه الله ، كف عن ذلك والتحق بالمعهد

ومن لطائفه : اننا كنا نتناول طعام الغداء ، فأخذت أقذف بالعظام هنا وهناك ، فابتسم رحمه الله وقال لي : في لطف : ان هذا الخوان وضع لطرح العظام عليه أولا ، وغرفتنا ضيقة ، فاذا رمينا العظام وما اليها بين جوانبها ، تعفنت ، وليس هنا غيري وغيرك ، فمن ينظف ذلك ؟ فشكرته على لطف تنبيهه وقلت له : انها من رواسب تربيتي في البادية فاعذرني فقال لا بأس ، فقلت لن أعود الى مثلها، فما فعلتها بعد ذلك طول حياتي، ونسيت أنه قال لي ان العظام يقذفها أهل البادية للكلاب، ولا لكلاب بالمدرسة، فلقنني درسا ما نسيته أبدا ومنها انه ما أطل طالب برأسه من النافذة خارج الغرفة الا ابتسم وقال له : يا سيدي ان النافذة فتحت للنور والهواء ، لا للاشراف من الخارج ، والله تعالى يقول : «واتوا البيوت من أبوابها» ولطائف المرحوم كثيرة غمره الله بألطافه في دار الخلود

أظنه توفي قبل الحرب العالمية الثانية رحمه الله أو بعدها بقليل.

(10)

الطالـب السيـد محمـد الحـافي

● السيد محمد بن محمد بن عبدالله الحافي ، ثلثني مع السيد علي بن بوعزة في الحجرة نفسها طويل القامة ، أبيض ، الى الشقرة أميل ، أعين ، محوجب ، مسرور الجبهة ، قـوى العضلات ، هو النكتـة بعينها والفكاهة ذاتها ، وأسرته كلها على شاكلته ، فالنكت الساخرة ، والفكاهات العذبة ، ترابط بين شفاههم ، ولا يحبسونها حتى أهليهم وذويهم ، وأشهرهم وأبلغهم فيها المرحوم السيد محمد بن عبد الرحمن ابن أخت مترجمنا.

دخل علينا أنا والمرحوم السيد علي بن بوعزة ذات ليلة ، وبعد العشاء بقليل ، آتيا من القطر الجزائري حيث كان يتعاطى مهنة تعليم كتاب الله العزيز هنالك ، فقلت له هل لك حاجة الى الطعام ؟ فقال : لا ، لقد تعشيت في البلد ، هكذا بأسلوب جزائري ، وهـم يعنون « بالبلـد » المدينة أي انه تعشى في مطعم بالمدينة وأفضى الينا بأنه يريد الالتحاق بالمعهد.

ونظرا لكون شقيقه المرحـوم السيد عبد السلام كـان كاتب القائد المنصوري رحمه الله ، ولكتـاب القواد اعتبـار واي اعتبار، قلت له سوف لا نجد صعوبة في التحاقـك ، غدا سأقدمك الـى رئيس المعهد ، ومن المؤكد سيوافق بمجرد أن أعرفه بك.

وفعلا كان ما توقعته ، لم يطل أكثر من ستة أشهر ، استطاع خلالها أن يقوم لسانه بالقواعد النحوية في مستـوى أرفع ما حصل عليه غيره في أكثر من تلك المدة

قبل الاستقلال كان كاتبا بالمحكمة الشرعية بتافوغالت ثم كاتبا لباشا صفرو المرحوم السيد البكاي ، ثـم كاتبا برئاسة الحكومـة في عهد السيد البكاي ثم قائدا بدبدو : اقليم وجدة ، ثم رئيس دائرة وديوان عامل تطوان السيد بنعمرو اليعقوبي ، ثم قائدا ممتـازا بالداخليـة ، «بخميس الزمامرة» الجديدة فالتقاعد فسكني « القنيطرة» الآن حفظه الله وذريته ووفقني واياه للسبيل السوي..

« الطالب السيد أحمد بن حمدان »

(11)

في الغرفة السادسة السيد أحمد بن حمـدان الخالـدي التغجيرتي طويل القامة ، قوي العضلات ، وسيـم ، أعين ، أنيق مع فقـره ! وكان يتعاطى

خياطة الجلاليب للاستعانة بها في دراسته ، حيي كريم النفس والمائدة ، ذو فكاهات ودعابات بريئة ، لين الجانب ، موطأ الاكناف : يألف ويؤلف حسن المعاشرة ، شغوف بالدراسات الصوفية تكوينا لا دراسة فقط.

أثناء عهده بالمدرسة حدثت له نكسة أدت الى زواج ؟ وتخلص منه بعد سنوات قلائل ،
بعد سنوات قلائق ، بل واسترجع حالته العادية فتزوج للمرة الثانية ، وامتهن خطة العدالة واعتقد أنه مايزل حيا حفظه الله .

« الطالب السيد رابح العزاوي »

(12)

السيد رابح العزاوي ، طويل القامة ذو عضلات قوية ، أفوه غائر العينين، أعين في ميل الى السمرة تحسبه فلاحا بسحنته ، انفصل عن المدرسة بالمستوى الذي كان له قبل الاتصال بها.

(13)

« الطالب السيد محمد المزوار

السيد محمد «المزوار» قصير القامة في ميل الى النحافة ، لطيف باسم ، في شبه انطوائية، يمتهن الان خطة العدالة بأحفير بعد أن بقي سنوات كاتبا بالمحكمة...

(14)

« الطالب السيد عبد الله بن قدور »

في الغرفة السابعة السيد عبد الله بن قدور الدراري ، حيي،لطيف المعاشرة ، كريم على فقره نظيف اللباس والي الشقرة أميل ، ذو مروءة في وجهه جدري

(15)

« الطالب السيد الميلود بن المهدي »

ومعه السيد الميلود بن المهدي من أبناء العمومة له، وهو الاصل في الغرفة ، طويل القامة ، أعين كث شعر اللحية.

والعارضين ، يعتني بهما كثيرا ، أنيق اللباس ، ذو عزة بارزة ، يأنف بعض الشيء من التنكيت عليه. وقد يغضب ويقوم من المجلس ،ولكنه سرعان ما يتراجع ، هو الآن «عدل» بالمحكمة الشرعية بوجدة حفظه الله ووفقني واياه الى سواء السبيل

(16)

الطالب السيد الميلود الصغير «بوشنافة»

ومعهما السيد الميلود الصغير من أبناء عمومتهما ، طويل القامة ، قليل الشعر في رأسه ، جم الدعابة والنكتة ، متوسط الأناقة ، أجهل مصيره الآن ، وهو صاحب النكتة السابقة حول دروس السيد الحاج العربي

(17)

الطالب السيد عمرو بن الحسين

في الغرفة الثامنة ابن خالتي السيد عمرو بن الحسين الوكوتي ، طويل القامة ، أنيق في لباسه الجزائري قاسي الشدائد المرار أثناء الكفاح الوطني منذ فجر الانبعاث ، عين قائدا في تاوريرت : وجدة ، ولم تطل قيادته أكثر من نيف وسبعين يوما ، ثم التحق كاتبا برئاسة الحكومة في عهد المرحوم السيد البكاي وهو الآن من الاعضاء الاساسيين في الحركة الشعبية بشق الدكتور الخطيب ، ويسكن بأكدال الرباط زنقة ملوية.

(18)

الطالب السيد محمد اليعقوبي

● ومعه في الغرفة ابن خالتنا جميعا الفقيه « الخليلي » السيد محمد بن الحاج أحمد اليعقوبي ، متوسط القامة ، مكتنز الجسد ، وسيم ، هو الآن في القطر الجزائري خطيب الجمعة ،في مدينة من مدنها ولست أدري ما هي ؟ التقيت به في المدينة المنورة بين باب جبريل وباب النساء وفرحنا بهذا اللقاء وكان ذلك عام 1394هـ 1974م.

(19)

الطالب السيد أحمد بن ابراهيم

ومعهما ـ وهو الاصل في البيت السيد أحمد بن ابراهيم الدراري، طويل القامة أسيل الوجه ، كث اللحية والمعارضين أنيق اللباس ، حيى باسم ،

لين الجانب ، لطيف المعاشرة ، تولى خطة العدالة في ابركان ويمارسها الآن بالدار البيضاء وقيل لي : انه صار ثريا.....

(20)

المرحوم السيد محمد بن علي البوعمالي

في الغرفة التاسعة ، المرحوم السيد محمد بن علي البوعمالي المتزوج فيما بعد ، باحدى شقيقات الشهيد السيد محمد الدرفوفي رحمه الله ، متوسط القامة ، أبيض ، تعلو وجهه صفرة ، خافض الصوت ، أنيق ، وقور جدا، يخصه الطلبة بكثير من الاحترام ، حلو المعاشرة، مقتصد في كلامه، بعيد عن الفضول ، يحترم نفسه كثيرا ولا أظن ان وفاته تجاوزت نهاية الحرب العالمية الثانية.

(21)

الطالب المرحوم السيد قدور البوعمالي

ومعه المرحوم السيد قدور البوعمالي ، متوسط القامة ، عريضها ،كانت باحدى رجليه «علة» انتفخت بها قليلا ، وكانت سبب وفاته رحمه الله ، طيب الأخلاق ، ما قيل فيه ما يمس من كرامته.

(22)

المرحوم الشهيد السيد عمرو الزيانبي

ومعهما المرحوم الشهيد السيد عمرو الزيانبي ، طويل القامة قوي العضلات ، مع شيء من النحافة لطيف الى أبعد حدود اللطافة ، كانت بيني وبينه محبة عجيبة ، حتى انه سهر معي ليلة رابع عشر شوال عام 1351هـ 23 فبراير 1932م حتى الثانية، حيث ودعني الى فاس ، وكانت تلك الليلة آخر عهدي به فيما أظن ، فلقد كان من دعاة الحركة الوطنية ، فسجن في وجدة وأصيب بمرض السل ، حيث وضع في زنزانة مظلمة باردة ، وتوفي رحمة الله عليه ورضوانه.

(23)

الطالب السيد محمد الورسوسي

● وفي الغرفة العاشرة السيد محمد الورسوسي ، متوسط القامة في اعقيقاق بظهره مع انحناء يشبه الاطراق باستمرار ، أبيض ، الى الشقرة ،

يخيل الي في شبه الظن : انـه كان أزرق العينيـن ، وسيمـا أزهر اللون، في ضيق الثغر شيئا ما ، متفتحا مداعبا في جملته، أنيقا باستمرار..

كان رئيس المعهد اذا دخل الى فناء الغرفات، يستريح عنده قبل الدرس، أو يجلس قبالة غرفته وبمجرد مـا يشعر مترجمنـا بقرب مجيئه يأخذ في انتظاره ليفرش له لبدة ، متـى جلس خارج الغرفة، ويداعبـه الرئيس لانـه كان يستلطفه ، انفصل عن المعهـد ، وفتح متجـرا بزنقة الصابوني بوجدة ولما يزل حيا مزمنا..

(24)

الطالب السيد ابراهيم الدراري

وفيما أظن انه كان معه في الغرفة السيد ابراهيم الدراري المريمي ، طويل القامة ، وسيم ، أعين ، محوجـب ابيض الى شبـه شقرة، لطيف ذو نكت مقبولة ، وفكاهات مرحت ، يألف ويؤلف ، فتح له متجرا من بعد ، ويقرب من اليقين جدا انه لما يزل تاجرا..

(25)

المرحوم الحسيـن الـدراري

وثالثهما فيما أظن ايضا الشاب الاشقـر السيد الحسين رحمه اللـه وكان يلقب بالاحمر تارة ، وبالنملة أخرى ، شاب لطيف ، بارز الاعتزاز بنفسه وخطه الجميل ، ولا يتحمل النكتة من كل واحد.

(26)

الطالب السيد عبد الغني البيدري

في الغرفة الحادية عشرة السيد عبد الغني البيـدري «وبيـدر» مكان في التراب الجزائري ، وفيه كان أهله يقيمون ، وهـو قريب من احفير شرقا، كان من خاصة اصدقائي ! سيما وهـو ينتسب الـى «سيدي عبـد المومن الذي ينتسب اليه آل ورطاس ، وفي «بيدر» قبة فـوق ضريح الجد سيدي عبد المومن ، وقد تحدثت عن هذا الموضوع في ترجمتي بكتاب عن المرحوم محمد المدور.

كان حييا جدا ، ذا مروءة ولطف في نكتة من حين لآخر ، وسيما طويل القامة نحيفا أبيض لما يزل يمارس الحياة حفظه الله.

(27)

الطالب السيد عبد القادر البوتشيشي

ومعه السيد عبد القادر البوتشيشي القــادري ، حفيد المجاهـد الكبير سيدي المختار الذي قاوم الاحتــلال الفرنسي في بني يزناسن سنة كاملة، حتى اجهز عليه «اليوطـي» في 25 مارس سنة 1908م في حيـن أن وجدة احتلت في سنة 1907م طويل القامــة ، نحيــف، وسيم، أنيق ، مسالم ، مجتهد ، أخلاقي ، كان في المعهد ، ثم التحق بالقرويين وحال الفقر بينه وبين الاستمرار فيها فرجع الى المعهد ، اعتقد انه لما يزل يكابد الحياة.

(28)

المرحوم السيد بوجمعة الصحراوي

● وفي الغرفة الثانية عشرة المرحوم السيد بوجمعة الصحراوي متوسط القامة اميل الى السمرة كثيرا ، غريب الاطوار، لعله كان يمارس «المغيبات» اسم مفعول «قلما حضر درسا من الدروس» ، ورئيس المعهد يتغافل عنه ، وهو الوحيد الذ ياشتهر بالتدخين في غير المدرســة ، وفي غير مجاهرة ، وكان لطيف الحديث ، حلو الفكاهة ، قوي التحمل لبؤس الحياة ، متجملا لا يشكو ، ولا يتألم ، ولا يسأل الناس شيئا، ويشاع انــه كان يعيش بمال قليل غير عادي الوسيلة ؟ كما أشرت من قبل أي انهكان له خادم من الجن ؟ هكذا كانوا يروون لنا والله أعلم.

ومن لطائفه : خرجت معه مساء اربعاء للترويـح عن النفس في جولة بوجدة، فسألته الى أين نذهب ؟ فأجاب : هل لك غرض خاص في جهة ما ؟ فقلت : لا ، فقال الى حيث لا يقـال لنا السـلام عليكم ! يعني لنبتعد عن حياة الناس ، ثم قال ساير رجليك ، وارخ العنــان لهما، وحيث أنني كنت سمعت من انه لا يطلــب من الله الا الملاييــن، داعبته في باطني متظاهـرا بالجدية فقلت : اللهم اعطنا دريهمات لنجلس بها في المقهى) فقال : اللهم لا ! فان كان ولابد ، فاعطنا ملاييــن « فسألته عن سـر دعائه فقال : ان الله عنده خير كثير ، فلماذا القليل ؟

وحكي لي أو روى لي عنه نسيت الان ، انه كــان ذات لحظة في حاجة الى شراء سيجارة فطلب من الله فلوســا فعثر علي مــا هو في حاجة اليه ، فرماه واستعاذ بالله من دنائة نفسه التي تطلب القليــل من الله ، وقال لو كنت طلبت من الله الملايين لكانت الاستجابة غنية ولكنني طلبت القليل ، فلم يكن غيره ، وانه عاهد نفسه على أن لا يطلب من الله الا الكثير.

لست أدري في هذه الجولة أم في اخرى ونحن في آخر شارع « سوق الخميس» المفضي الان الى شارع محمد الخامس فاذا هو ينظر الى عمارة تواجهه ويضحك ، فسألته ما اضحكك ؟ فقال أضحك لان الفرنسيين حينما يرحلون من المغرب سيحتل المغاربة مثل هذه العمارات فيسقط منها صبيانهم وينشرون «هيادرهم» على واجهة مساكنهم، ويأتون بما عزهم يتسلقون هذه العمارات فيفسدونها بأخلاقهم البدوية ، فقلت له وهل سيغادر الفرنسيون بلادنا ؟ فقال وهل سيبقون الى الابد ؟ لابد أن يغادروها ، فقلت اذا شاء رجال البلاد أعني الأموات فقال بل الأحياء. فقلت الاحياء لا يتوفرون على وسائل طردهم ، فابتسم وغير مجرى الحديث ، والذي يظهر لي انه اما خاف أن أنقل عنه دون قصد الاذاية طبعا أو شعر بأنني في طفولة المشاعر الوطنية ، فرحمة الله عليه ورضوانه.

الطالب السيد المصطفى بن الطيب بن الحاج عبد القادر

ومعه في الغرفة السيد مصطفى بن الطيب شقيق عقيلة شيخنا الطويل العمر : سيدي بنسعيد المترجم قبلا كنت واياه فقط، متقاربي السن، اسمر اللون ، أعين طيب الاخلاق ، في أعلى مستوى الاجتهاد في دروسه ، وكانت له حصة الاسد في دراسته هنالك بين جميع الطلاب الذين اقتصروا على الدراسة في المعهد وخصوصا في العلوم العربية ، فصار معلما بحق ، ومدرسا بحق ومفتشا بحق ، وعادت عليه تربية والده الشهير بالتقوى والصلاح وتربية وبركة صهره شيخنا سيدي بنسعيد ، فقد تكون بين أجواء طيبة، فكان طيبا في أخلاقه وبارك الله له في ذريته ، التقيت به في عهد ممارستي لخطة العدالة ونحن نسير جميعا بين ساحة مراكش بين العشاءين وبعد العشاء الأخيرة قليلا ، وكنت أتحدث له عن عذوبة أسلوب المنفلوطي في «العبرات» والنظرات «والفضيلة» فابتسم وقال : مالك ولهذه «العدالة» وأنت تتذوق آداب المنفلوطي ؟ ان العدو لا شأن لهم بعالم الادب فقلت أنها فترة موقتة وسأترك العدالة لأهلها للانغمار ان شاء الله بصفة عملية في العراك الوطني مع الاستعمار الى أن يفتح الله بيننا وبينه

والتقيت به وهو نائب مفتش في التعليم ، وأنا رئيس دائرة وجدة في الاستقلال طبعا ، وعفوا تجاذبنا أحاديث أدبية فقال أن القواد لا علاقة لهم بما تتحدث فيه ، فما شأنك وهذه الوظيفة ؟ فقلت له أيضا : انها مجرد مرحلة فرضت علي فرضا ، وسأتجاوزها الى ما خلقت له ان شاء الله في أول فرصة ، ثم التقينا مرارا وهو.. هو في خلقه الطيب كاسمه وخلق أبيه ،

وسعيد ، كاسم زوج شقيقته وخلقه ، حفظه الله وشمله بكامل العافية والهناء آمين.

(30)

الطالب السيد محمد بن عمرو القنيني

● السيد محمد بن عمرو بن موسى الوريمشي القنيني نسيت = نهائيا = الحجرة التي كان يسكنها ، ومن كان يساكنه ، أسمر اللون ، في عضلات فلاح، في منتهى اجادة حفظ كتاب الله العزيز ، انسجم من بعد مع أخلاق المدرسة ، اذ كانت البداوة صاحبة عنانه ، ثم التحق بالقرويين ثم رجع الى مسقط رأسه ، وفي عهد عرفة كان خليفة القائد محمد التميمي الادريسي بأبركان وروبت لي عنه سيرة تجانس الوضع الشاذ الجديد والله أعلم بالحقيقت ، وتوفي أوائل الاستقلال ، ودفن بمقبرة «كدية مولاي الطيب» وكلما ترحمت على أمي القريبة من قبره الا دعوت الله أن يرحمه ويعفو عنه ، لما أكرمه به من اجادة حفظ كتاب الله العزيز ورحمة الله أوسع مما نعرفه من الآفاق ، وما ذلك على الله بعزيز.

(31)

«الطالب السيد عمرو الزكراوي»

أتصور أني وجدته وهو أثناء العقد الرابع من عمره ، قصير القامة كث شعر العارضين واللحية مشرق الابتسامة أنيق الثياب مسالم ، لطيف المعشر ولا أذكر الحجرة التي يسكنها

عاش الى عهد الاستقلال ، وزارني في مكتب رئاسة الدائرة الكبرى بوجدة يوم كنت قائدا ممتازا بها نحو سنتين ، دخل مكتبي وهو يذرف الدموع فأبكاني فسألته ما يبكيك ؟ فقال : منذ سنتين وأنا أجري وراء الحصول على «ورقة التعريف» فلم أتمكن منها بملحقة (اجرادة) التابعة لدائرتك ! فقلت له في كامل الاحترام ـ يا أخي لم لم تفض الي بذلك، فالامر أسهل مما تظن فقال : تحاشيت أن اتعبك لقضية بسيطة ولكنني أرغمت على أتعابك ! فقالت له : لا.. والله ان مجيئك عندي لمن أسعد الاوقات ، فاني أحبك محبة خاصة فلتأت استقبالا في كل وقت لاية مصلحة، وأنا سعيد باستقبالك في كل وقت ثم انني مكنته ـ حالا ـ من «ورقة التعريف» وسر بهذه الخدمة البسيطة ايما سرور ، فدعوته لمنزلي فاعتذر وطلب مني أن أزوره في أقرب وقت . ولكن الأحداث حالت دون ذلك ولست

أدري الآن أهو حي ؟ أم لقي الله ، فسلام عليه كيفما كان الامر وهنيئا له بما وهبه الله من أخلاق فاضلة.

(32)

الطالب السيد محمد بن مبارك النجاري

● أتصور أيضا أني وجدته في أثناء العقد الرابع من عمره طويل القامة ، نحيف همته أكثر من كلامه بعيد عن الفضول قليل المخالطة ، قليل الابتسام فان تحدث أو جز كان تبدو عليه سحابة ألم ، أو صدمة ، مكث في المدرسة زمنا ما ، ثم رحل الى فاس فاشترى «سلطنة الطلبة» هنالك وانتظر خطة العدالة التي هي المستهدفة من «السلطنة» مع اطلاق سراح سجين طويل الأمد ، فتأخر تسلمه للخطة وكان فقيرا فرجع الى مدرسة المعهد حيث تعرفت عليه ، ثم أسندت اليه مهمة «نسخ رسوم العدول» في انتظار الخطة ولا أذكر أحصل عليها أم لا ولا يظهر لي انه استفاد كثيرا من رحلاته العلمية كما لا أدري الآن أهو على قيد الحياة أم لا ، وعلى أي حال فاليه تحياتي وصالح الدعوات.

(35)

أبناء الحاج حمو التمسماني : 3

● هم الحسن ، ومحمد، وثالث نسيت اسمه الآن كانوا يسكنون في حجرة قريبة من قاعة الدرس التي كنا نسميها : «البيت الكبير » كان الاول طويل القامة جميل الصورة أنيق الملبس لطيف المعشر ، أما الثاني والثالث فكانا قصيرين قليلي المخالطة مع الطلبة ، فهما انطوائيان ، عكس أخيهما الحسن الذي قلما تفارقه الابتسا[illegible]نكت ويقبل النكتة ، أظنهم لما يزالوا أحياء. (1)

(36)

الطالب محمد بن الصديق الأحمدي

طويل القامة ،أزعر في عمر الثلاثين سنة تقريبا ، بفمه انحراف ربما الى اليمين وهو من شرفاء «تكافايت» ناحية «اجرادة» كان طيب الاخلاق ، لاذع النكتة يألف ويؤلف ، ولم تطل اقامته بالمدرسة واجهل الآن مصيره.

---

(1) ما بقي منهم الا الاول تاجر في الذهب بوجدة.

لماذا ترجمت لرفقائي ؟

لو أن تقاليد ذلك العهد لما تزل هي ، هي ، التي يصدر عنها الطلبة ، أو طرأ تغيير شكلي عليها فحسب، لم أكن لأشعر بدافع قوي لترجمة رفقائي فحاسة التاريخ تتأثر وتتحفز وتغري ما شعرت بتحولات الحياة وتغيراتها الى ما يستدعي الاهتمام بالتسجيل والمقارنة لأخذ العبر والعظات، على انه برغم ذلك فمن الوفاء لهؤلاء الرفقاء الطيبين ، أن أتحدث عنهم ولو باختصار بمناسبة ترجمتي لشيوخنا جميعا رحمهم الله ورضي عنهم، فهم اخوتي الروحانيون بما أخذنا جميعاً عن أولئك الشيوخ الآباء الروحانيين.

والى جانب ذلك ، فالترجمة لهم مع الشيوخ تعد تتميما للصورة الواسعة التي أقدمها عن هذا المعهد الذي صار في خبر كان.

أجل انني تأملت جيدا ما كان عليه رفقائي في هذا المعهد من الخلال التي اقتصرت على بعضها وقارنتها مع ما صار عليه طلبة العهد الجديد من أخلاق ، فوجدت بونا شاسعا بين العهدين ، وشعرت بمخاوف هائلة على مستقبل أخلاقنا وتقاليدنا ، وأدهى من ذلك أننا صرنا نفزع فزعا مرعبا حينما نسمع الآراء والتساؤلات حول صميم العقيدة الاسلامية ، علاوة على «الرفض» الغريب لما درجنا عليه من تقاليد واعراف كانت سامية في معظمها.

ولا بأس بضرب الامثلة بجزئيات، والقيام بعملية مقارنات بين العهدين، حتى تتضح المفارقات الخطيرة التي تفصل بين العهدين.

1) لم يكن يخطر ببال أي طالب أن يثير أي تساؤل مريب ، فضلا عن ساخر حول « خالق هذا الكون البديع ! الا وهو الله ، ولم يكن أي واحد منهم في حاجة الى علمية البحث عن البراهين والحجج المنطقية بالأسلوب العلمي ولماذا ؟

لانهم تخرجوا من مدرسة القرآن.

فمنذ الطفولة ، وهم يعيشون بين ظلاله ، ويسبحون بين افيائه ، الى ان اجادوا حفظه ورسمه ، وخلال ذلك كانت معاني القرآن الكريم تمتزج بأجسادهم وأرواحهم وان لم يكن في امكانهم أن يتفهموه كما تفهمه المتخرجون من مدرسته في عهد أنوار النبوة الكريمة..

وشيئا فشيئا ، شيد القرآن الكريم بينهم وبين الريب والأوهام والضلالات والجحود اسوارا خالدة من فولاذ الا هي ، ويمكنك أن تتجول بين

أرجاء العالم كله فلن تجد متخرجا مـن هذه المدرسة تنكر لوجود الله ، الا ما يكون من الشذوذ الذي لا يتحقق حتى تتألب على صاحبه عوامل قاسية، وفي منتهى القساوة ، حتـى اذا انتقلوا من المدرسـة القرآنية الى طلب المعارف، زادهم ايمانا وحبـا عن حب للقـرآن وصاحب القرآن ، فمباكرتهم للعيش في أجـواء القرآن من لـدن الطفولة ، انسجمت مع الفطرة النقية من رجس الشيطان ، وتلاءمت مع المواهب الغضة الافنان ، فتكونت العقيدة الصادقة بعيدة عن مواطن الافتتان.

ومن هذا المنبع الالهي ، يصدرون ويوردون ، وان لم يصلوا الى المعارف التي يريدون

2) كان قصدهم من طلبهـم للمعارف الاسلاميـة ، التسلح بها لحفظ عقيدتهم ، وتنوير اذهانهم وتزكية قلوبهم وأداء شعائر دينهم وفق تعاليم القرآن لهداية الانسان.

ومن خصائص المدرسة القرآنية ، والمعارف الاسلامية التى امتازت بها عن سائر المدارس غيرها ، ان المتخرجين منها يرجعون الى تعاليمها متى حادوا عن خطتها ، فهي تأبى الا ان تقـوم أود أصحابها ، وان تاهوا عنها حينا من حياتهم ، وما ذلك الا لانهـا منسجمة كـل الانسجام مع الفطرة والمواهب الانسانية.

فعقيدة الاسلام عقيدة منطقية ، وجدانيـة، سمعية ، بصرية ،لمسية، فكل ما في الانسان يدرك صحتها وصدقهـا وجديتها الا حينما تتلبد على عقله ووجدانه واذواقه سحب الضـلال بالعيش في المناخات العفنة بالاهواء والتقاليد العمياء ، والمدارس التي تصطدم معارفها بمعارف الاسلام.

فالمومـن باللـه ، انسان ايجابـي ، والجـاحد بالله ، انسـان سلبي والايجابية هي العلاج الوحيد في ظروف اليأس من الاستفادة من الوسائل البشرية ، فتتوجـه النفس الى القوة المتركـزة في الفطرة ، فـان لم تدرك بغيتها كما تريد، تغمرها تلك القوة الخفيـة بالطمأنينة والرضى بالواقع ، فتهدأ من الاضطراب والقلق والانزعاج اما الانسان السلبي بالجحود ، فيجد نفسه في ظروف الشدائد أمام الفراغ اللانهائي فتتعاون عليه عوامل الاضطراب والقلق والانزعاج.

أرأيتم لو ان انسانا كان في رحلـة تتخلل طريقها آيات العمران، فانه يشعر أثناء رحلته ـ لا محالة ـ بانه في طريق توحي بالأمن والامان ، وذلك

مثال المومن بعقيدة القرآن،ولو ان آخر كان في رحلة لا معالم له أثناء طريقه، ولا آية واحدة توحي بالامن والامان ، كان يشعر لا محالة بأنه يمتطي متون التيه والضلال ، وانه بطبيعة الحال ، تتعاون عليه أنواع الحيرة والقلق والانزعاج ، ثم لا تلبث عزمته أن تتداعى ازاء هذه البيداء القاحلة الموحشة، وذلك مثال الجاحد بعقيدة القرآن.

ومثال بسيط ، فالمومن بالشيء اعقل وأهدأ من المومن بالصفر ، ولا يعتز بالصفر الا من خذله الله في فكره ووجدانه وحواسه.

أجل ليس المقام مقام «علم الكلام» وانما جرني اليه ما قصدت من تبرير الترجمة لرفقائي في معهد وجدة الذين أخذت نماذيجهم تختفي شيئا فشيئا ، فحبب الي أن أحييها باحيائهم احياء وأمواتا بهذه التراجم المختصرة ولاعطاء صورة تامة عن معهد وجدة لعلها تصير منارة يهتدي بها التائهون، وموعظة يتعظ بها الغافلون.

كلمة واحدة أختم بها هذا الفصل، انني لا أقصد أبدا الحط من الجيل الخلف ،ولكن أريد من ذوي الامر أن يهيئوا المناخ القرآني لجيلنا لانقاذه من الطغيان والتيارات الضالة الجارفة، فلقد صارت الضلالات «العلمية» يستدعي بعضها بعضا لاخماد جذوة القرآن لتحويل أمته الى خول وعبدان، وتسخيرهم لهم لتحقيق مطامعها الدنيوية وهم في ذلة وهوان.

والى ذلك يجب أن أصرخ ـ بأعلى صراخ في آذان الجيل الخلف : بأن الاسلام يوجب على كل من بلغ رشده، أن يعمل على معرفة الله ورسوله ، ويدرس دين الله الحق ، الا وهو الاسلام...

وان احتجاجه بتفريط الدولة لا ينفعه امام الله ما دام قد أبلغه الله سن التكليف، ووهبه فكرا يستطيع أن يتوصل به الى معرفة الله ورسوله ، ودين الله الحق .....

ثث

فالاحتجاج بالآباء و«السادة» ، لغو باطل ، غير مجد يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وان كان للآباء و«السادة» حظهم الوفير من المسؤولية أمام الله.

لقد سجلت هنـا هذه الصرخة لوجه الله الكريم ، لمـا سمعته مرارا من الجيل الخلف ، من انهم ليسوا بمسؤوليـن عن انحرافاتهم، وانمـا المسؤولون هم الآباء ، و«السادة» ، فادعاؤهم هذا لغو وباطل ، ومجرد سفسطة ليس الا....

موارد نفقات طلبة المعهد

● ان هذا المعهد الاسلامي كان كسائر المعاهد والكليات من اختصاص «الأوقاف» فكل حقوق العلماء والطلبة من مالية الأوقاف.

وبالرغم من ضآلة مبالـغ النفقات ، فان ما كانـت عليه الاوضاع من عجيب الرخاء، جعلت تلك المبالغ ذات أهمية قصوى لمن يكتفي بضروريات الحياة في المستوى المتوسط بالنسبة لذلك العهد مـع اعتبار ما كان للعلماء والطلبة من رعاية شعبية لا تمس كرامة المعاهد والكليات ومن فيها.

فالشعب عامة كان ينظر الى علمائه وطلبته نظرة الاجلال والاكبار ، اذ هم الهداة والدعاة ، وهم الاسـوة الحسنـة في الدنيا والدين ، لأنهم حملة شريعة خاتم المرسلين.

وبأوقاف المسلمين ومساعـدة المسلمين واستقامـة العلماء والطلبة ، ازدهرت الاخلاق الطيبـة ، وتوثقت العلاقة النبيلة بيـن الخاصة والعامة ، فالاوقاف كانت تمنح كـل طالب مبلغها شهريـا كان قدره تـاريخ التحاقي بالمعهد أربعين فرنكا ، ثم رفع الى خمسيـن فرنكا وحسبنا في تقدير قيمة هذه المنحة أنها كانت تكفي لضرورية الغـذاء ، مستعينا بعطايا أهل الخير دون مسألة ، وبأسرته ، او بعمل اضافي ، كمـا كان السيد أحمد بن حمدان يفعل اذ يمارس خياطة الجلاليب وهـو ماهر فيها فـي أوقات خاصة خارجة عن أوقات الدروس ، لا سيما اذا ما عرفنا ان الدروس كانت كلها في الصباح الا نادرا ، وان شئت بالضبط ، لم يكن في المساء الا درسان درس لسيدي محمـد النكادي رحمـه الله بيـن الظهرين ، ودرس للسيـد بنسعيـد بين العشائين ،من بضعة دروس موقتة ، كانت لبعض شيوخنا مثل السيدين : محمد بن باصو ، وعبد القادر بن الحاج عبد الرحمـن ، كما أذكر ، على انني أرجح ان درس هذا الاخير كان في الصباح وفي بعض أيام الاسبوع فقط.

الحياة داخل المدرسة

أعني بالمدرسة موضع غرفات الطلبة ، وكانت من جملة المسجد الأعظم يفصل بينها وبين المسجد حائط له بـاب يصلها بالمسجد ، وجنوبها ادارة

النظارة ولها باب خاص بها جنوبهـا ، والطلبة يدخلون ويخرجون من باب المسجد الشمالي الـذي يغلق بعد صلاة العشاء بمثـل ساعة، والمسؤول عن اغلاقه : المنظف «فاتح» رحمه الله ، وبذلك يصعـب على أي طالب أن يخرج من المدرسة بعد ذلك ، وكانت لنا وسيلتان للخروج.

الاولى لمن كان يملك مفتاحا صالحا لجميع الاقفال وهم قلة ، الثانية بالطرق على الباب الشمالي أو باب النظارة الجنوبي ويفتح الرفقاء بالمفتاح الخاص، وتحدث مداعبات من الداخل مـع الطارق في الليل كان يقال له : ادخل : انها مفتوحة ثم يفتحون له.

نعم قبل ساعة لوقت صلاة الصبح يفتـح الباب الشمالي للعباد في المساجد، كما تفتح الحمامات بساعة قبل الصبح أيضا للوضوء والاغتسال، تسهيلا على المواطنين لاداء صلاة الصبح في وقتها الاول جماعة.

وداخل المدرسة يعيش الطلبة معظم الليل في المطالعة والمراجعة والسهر مع بعضهم بعضا في أجواء أخوية عجيبـة ، وفي تكتلات بريئة، فلا لعب بالاوراق ، ولا تدخين ، ولا كلمات نابيـة عن الاخـلاق بصفة علنية على الخصوص ، فالمدرسة يسودها الاحترام والوقار ، ولا شيء غيرهما.



المرحوم المصطفى القراطي

من ضيوف الطلبة. لين الكنف محبوب عند الناس



السيد عمرو «ونان» بشد النون الاول

من ضيوف الطلبة وكان زكي الاخلاق رحمه الله...

ضيوف الطلبة

قلما خلت المدرسة من الضيوف ، سواء في أوقات الغذاء ، أم في أوقات العشاء، وبعضهم كان ينام مع مضيفه وقد يمكث عنده أكثر من يوم

ويكثر الضيوف بصفة خاصة ، مساء كل ثلاثاء لان يوم الاربعاء ، يوم سوق اسبوعي بوجدة ، ولذلك يأتي اقارب الطلبة وأصدقاؤهم ليبيتوا عندهم

ففي يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، تنشط حركة الطبخ ، بنصب القدور تبالة الغرفات.. والضيوف بين من يأتي بالمواد معه، وبين من يسلم قدرا من المال للطالب ، فما كان منهم من يزور الطلبة ويأكل على حسابهم الا أفرادا قلائل جدا ، بل أن الضيوف يضاعفون اكرامهم لمن جاؤوا عندهم ، وبعض الطلبة يستغل هذه الفرصة فيستدعي صديقا ، أو صديقين لتناول طعام العشاء أو الغذاء مع الضيوف .

ولم يكن أولئك الضيوف يضيقون على الطلبة من حيث المطالعة وحضور الدروس، فعقب الغداء يخرجون فورا الى مصالحهم ، وبعد العشاء ينامون ويخرج الطالب الى قاعة الدروس للمطالعة، أو يذهب الى غرفة أحد أصدقائه.

وبمجرد ما يقترب وقت صلاة الصبح ، يخرج الضيوف للمسجد، ثم يتناولون طعام الفطور عند الطالب صاحبهم ويخرجون قبل وقت أول دروس الصباح.

= الرتبة =

الرتبة على وزن الحملة مثلا ، وهي عبارة عن خبزة يومية يأخذها الطالب من الفرن من خبز الانسان الذي يتبرع بها بعد أن يقصده لذلك ، وهي من التقاليد التي لا تمس كرامة الطالب ، وقليل من الطلاب من لم تكن لهم رتبة بفتح فسكون .

المتاجر الخاصة بالطلبة

أعني بالمتاجر الخاصة بالطلبة ، تلك المتاجر التي يأخذون منها المواد الغذائية والوقودية وغيرها مداينة حتى تسلم المنحة الشهرية .

وأبرز هذه المتجر 1) متجر السيد محمد بن المختار البلعوشي القريب من الباب الشمالي للمسجد 2) ومتجر المرحوم السيد محمد بوشقيف في

ساحة «عبد الله بن عمـر» وهو قريب مـن المسجد أيضا. أما فيما يخص لباس الطلبة فمتجر السيد احجيـرة والد السيد عبد الرحمـن احجيرة رحم الله والده، وحفظ الولد المجاهـد الكبير، ومتجر المرحـوم السيد أحمد بن المصطفى «بوتفليقة» بقيسارية أهـل فاس ومتجر المرحـوم الوطني الغيور السيد « الأندلسي » ونسيت اسمه ، وأرجح أن يكون اسمه : «محمد» وكنا نطلق عليه : المدلسي»..

اكرام السكان لهم

قلما يخلو يوم لا تستدعي طائفة منهم لاكرامهم طعاما ونقودا، ومن مرة لاخر يستدعي الجميع ويقع الاعلان عن ذلك في المدرسة بقرع الباب الفاصل بينها وبين المسجد الأعظم ، وكانـت التقاليد تقضي بأن لا يستدعي معهم غيرهم من الطلبة الذين يستدعـون للمئاتم، كمـا كانوا يخصون بالاطعمة الفاخرة، والعطايا المحترمة في تقدير وتعظيم.

أما في شهـر رمضان ، فان بعضا مـن المواطنين يلتمسون من الطلبة القيام لهم بسنة التـراويح في منازلهم حتى تتمكـن أسرهم من اقامة سنة التراويح في المنازل.

وفي «ليلة القدر» يتزاحم السكان على إستدعائهـم لاكرامهم والتبرك بتلاوتهم القـرآن الكريم في منازلهم حتـى انك لا تجد طالبـا واحدا في المدرسة «ليلة القدر».

ولم يكن طلبـة المعهد يمارسون «تصبيـح القبر» كمـا هو شأن طلبة القرآن، الا حالما يموت عالم، او وجيه مـن وجهاء المدينة، صيانة لانفسهم من الاحتراف، فبكل تأكيـد ، ان طلبة المعهد كانـوا يحافظون على سمعتهم من أي ابتذال تحكم به التقاليد، فضلا عن ان تقضي بـه التعاليم الاسلامية ، وتجدر الاشارة الى ان قليلا من الطلبة كانوا يجلسون في المقاهي التقليدية، أما معظمهم فيجلسون في المقاهي العصرية وقليل من هؤلاء يتنزهون عنها نهائيا، شأنهم شأن العلماء الذين لا يمكن أبدا ان تجد أحدهم في أي مقهى، فما رأي الطلبة الذين يأكلون في الازقة والشوارع في هذا العهد ؟

أما قاعات السينما، فلم تكن تخطر ببال أحـد منهم أي الطلبة وفي ذلك العهد كانت الافلام لما تزل صامتة وهكذا كان الطلبة يعيشون محترمين مكرمين بين المواطنين، يتبادلون معهم الاحتـرام والتقدير ويتمكن الطلاب

من دراسة أخلاق الناس والوان حياتهم ، ويتعرفون على ما يجب التعرف عليه ليتمكنوا من الحياة في مجتمعهم وهم على خبرة من تقاليده واعرافه وسجاياه، فيجمعون بذلك، بين المدرسة النظرية، ومدرسة الحياة وسرعان ما ينسجمون في حياة الناس بعد انفصالهم عن المعهد .

ويجب التنبيه في ختام هذا الفصل الى انني لا أقصد أن أقدم طلبة المعهد للقراء كقديسين وانما أقصد الى انهم كانوا يحترمون المجتمع، فلا يتجاهرون بما من شأنه أن يلحق ضررا بكرامتهم كطلبة علم أو بمجتمعهم، فمظاهرهم كانت نقية نظيفة ، تستوجب لهم احترام المواطنين. وذلك هو المطلوب من كل مسلم ، يحترم نفسه ومجتمعه، ولله ان يحاكمهم على ما تستروا به ، ان شاء عفا وله المنة، وان شاء عاقب، وعقابه عدل ورحمة.

درس وعبرة

مدرسة المعهد، عبارة عن مكان ذي غرفات أرضية يسكنها الطلبة وقاعة لالقاء الدروس ملتصقة بالمسجد الاعظم عن شمال «وجدة الاولى» أي «القصبة» على بضع خطوات، ويفصل بين المدرسة والمسجد حائط علوه قرابة ثلاثة أمتار، ولها مدخل الى المسجد ، واقعة غرب المسجد، عرضها مع فنائها قرابة عشر مترات على أكثر تقدير فيما اخرصه، وبناؤها قريب من تاريخ عهد احتلال وجدة الذي كان سنة 1907م ويبدو انه شيد قبل سنة 1920 بقليل، ومقطوع به انه هندسة غربية وبيوتها نظيفة صحية، ذات نافذة واحدة لكل بيت ذات مصراعين زجاجيين ، وطولها مع ادارة النظارة ما بين خمسين وستين مطرا فيما اخرصه ، وللنظارة باب يفضي الى جهة وجدة «الاولى» أو «وجدة» زيري بن عطية رحمه الله.

ازدهرت هذه المدرسة ايما ازدهار بما كان لها من علماء اتقياء، ذوي وقار وهيبة واحترام «رهبانية الهية وليست كالرهبانية المسيحية، فالعلماء يعيشون طبق التعاليم الاسلامية فلا عزوبة، ولا وساطة، ولا صك غفران» ولا «لية قداس» ولا.. ولا.. ولكنهم حملة شريعة علما وتربية ، وأسوة ، ولا شيء يفصلهم عن العامة لباسا وأكلا وشربا وزواجا وأبوة وبنوة فمن لا يعرفهم شخصيا، لا يلفت نظره شيء في هندامهم أو تصرفاتهم، الا السمو في كل ذلك.

وطلبة المدرسة معظمهم ذووا لحي وعوارض مقصرة ، وقد تكون اللحي مقدار قبضات الايدي ، وقلما يكون بينهم من لم يصل الى سن نبت شعر

اللحية والعارضين، يرتدون ملابس تتكون من القفطان قليلا، ومن الصدارة كثيرا فوق القميص ، وفوق ذلك ، وهذه «الفرجية» قميص مفتوح الصدر كالمنصورية ، وجلباب أبيض، وفوقه جلباب ملون ، وبرنوص، أو برنوصان رقيقان ، وصباط في شكل جزائري، أو بلغة أنيقة، مع جوارب، وساعة جيب، وخاتم من فضة في اليسرى ، في ميزانها الشرعي ، فاذا ما خرجوا من المدرسة جميعا لغرض ما ، يبدون في مشيتهم وأزيائهم كأنهم عرائس ، ووقارهم وهيبتهم يحملان على التقدير والاحترام، ويغريان الشباب بالالتحاق بهذا المعهد النبيل.

فكثير من الشباب وآبائهم وأمهاتهم أغرتهم هيئات الطلبة وما هم عليه من مكانة سامية قبل أن تغريهم المعارف التي يطلبونها.

وحينما التحقت بهذا المعهد 1349هـ 1930م كنت من الشباب الذين شوقتهم هذه الهيئات الى طلب العلم ، وما كادت تمضي أيام ، حتى تحولت من حياتي كشاب بدوي ، الى هيئة هؤلاء الطلبة ، وعلت وجهي صفرة كانت كطابع لوجوه «لمدارسية» كنتيجة للتوسط في الاكل ، وأرق الليل للمطالعة والنهوض باكرا لصلاة الغداة ومعاناة الدروس وحفظ المتون والاقتصاد في الكلام ، الا ما دعت الضرورة اليه ، اذ العامة مهذا رون فالهذر مدعاة للتبذل وأية فراغ الذهن من المعارف ، والاقتصاد مدعاة للوقار والاحترام وأية ثقافة الذهن ، والعامة ينطلقون من الاهواء ، والاهواء عكس مقاييس العقل المتزن بالثقافة ، فلا يبالون : أخطأوا أم أصابوا ، والخاصة ينطلقون من المقاييس العقلية أو النقلية أو الاجتهادية عند فقدان النصوص ، وهم حريصون على أن لا يتجاوزوا هذه المنطقة الانسانية ، لذلك تراهم في أحاديثهم مقتصدين، أو يلجؤون الى صمات ايجابي ، وخصوصا أمام العامة حتى لا يتنافسون معهم في جدل يأتي على وقارهم وكرامتهم و «عباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما «سورة الفرقان» وخلال عهدي بالمعهد ، أخذ عقد طبقة شيوخنا تتناثر حباته ، فنشعر بالفراغ بين حيز وجودهم.. وفي الوقت ذاته ، أخذ مستوى الطلبة الاجتماعي ينخفض شيئا فشيئا ، فكلما انفصل سلف عوضه خلف أقل منه ، ويخيل اليك وأنت تشاهد هذا التحويل الاجتماعي ، أن مصيرا خطيرا ينتظر هذا المعهد : علماء يموتون ولا خلف ! وطلبة ينفصلون ولا خلف ! والاقبال على المعهد في فتور وتباطىء ! وبواعث الرحلة الى القرويين تنمو وتترعرع بتمزق السحب الكثيفة التي اصطنعها الاستعمار حول القرويين ؟ والحواجز الوهمية التي شيدها ضدا على وحدة الوطن ، والشعب ، يتداعى لبنة فلبنة ،

اذ كان فقهاء الاستعمار ونحن نعيش أحداث الظهير البربري = يوالون الدعاية ضدا على «القرويين» لانها منشأ «العصريين» المارقين من الدين ! وان من الخير دينا ودنيا لاهل شرق المغرب ، أن لا يختلطوا بالمغاربة لكي لا يفقدوا جديتهم ومتانة دينهم وأخلاقهم ! ويرصدون لهذه الدعاية السامة عصابات المرجفين ، يبثونهم في كل حدب وصوب ، غير أن تجارنا استطاعوا أن يقوموا برحلات متوالية خصوصا الى فاس ومكناس ، وأخذوا يصفون ألوان الحضارة بكل اعجاب وتقدير ، فتمزقت وتداعت الحواجز شيئا فشيئا الى أن أصبحنا نغتبط كل من قدر له أن يقوم برحلات داخل الوطن المحبوب .

وحسبنا من آثار تلك السحب والحواجز ، انني لما غادرت المعهد ليلة الخميس 14 شوال 23/1351 فبراير سنة 1432م لم أجد من طلاب شرق المغرب في القرويين الا بضعة منهم 1) السيد المنور الزعيمي «ءادمنا» في معهد القرويين 2) المرحوم السيد محمد بن الاخضر الميموني 3) المرحوم السيد ادريس البرحيلي 4) ابن خالتي السيد محمد بن الطيب اليعقوبي 5) المرحوم السيد محمد بن علي الكبداني «البحباح» 6) السيد محمد بن مولود الكبداني ليس الا ، وحتى لو انني نسيت بعض أسماء الطلبة ، فهي قليلة جدا.

وهكذا ما كادت الحرب الكونية الثانية تدق اجراسها حتى اختفت «المدرسة» بالحاقها مع النظارة بالمسجد الأعظم ، وتعويضها بمدرسة قربه، وفيها طلبة ومعلمون لا نسبة بينهم وبين اسلافهم ماديا ومعنويا ولذلك أخذ طلبتنا يتجهون الى القرويين ، وبلغ عددهم في سنة 1947م 57 طالبا لا سيما وقد كان الأستاذ المجاهد السيد محمد الفاسي قد أسندت اليه ادارة القرويين، فكان لنشاطه الواسع أثر وأي أثر على اقبال الطلبة على القرويين، من جميع أقاليم المغرب.

وهكذا ايضا اختفى هذا المعهد الاسلامي علما وتربية ، ولم يعمر أكثر من ربع قرن وفي ذلك درس وعبرة ولله عاقبة الأمور.

ويمكننا ـ بحق ـ أن نؤرخ اختفاء عهد اخلاقي كريم بشرق المغرب، باختفاء هذا المعهد الاسلامي المزدوج باضطرام الحرب الكونية العالمية الثانية.

ولا يسلينا عن هذا المعهد النبيل الا تلـك اليقظة الوطنية التي تفجرت منابعها من سنة 1944م أي منـذ تقديم وثيقـة الاستقلال في 11 يناير من التاريخ المذكور، وما كان من تلاحم وثيق بين شرق المغرب وغربه وجنوبه وشماله ، بل ومن تفتح متزايد واتصال مستمر بين شعوب المغرب العربي الكبير .

على ان فجر اليقظة الوطنيـة بشرق المغرب كـان هو.. هو، في غربه وجنوبه وشماله، بما انفجرت عقبه مـن احداث وطنية خالدة ، غير ان فجر الوثيقة التاريخية كان أقوى اشعاعا وأوسع آفاقا وأعمق تأثيرا.

نـــداء

وبهذه المناسبة أوجه نداء الى الري العام المغربي بوجوب احياء التعليم الاصيل ، بتشييد المعاهد والكليات في كل اقليم، متى عزمنا على الرجوع الى سلفيتنا الصالحة التي لا يصلح ، آخر هذه الامة الا بما صلح به سلفها . فلن نعيد لمجتمعنا العقيدة الصادقـة ، والشريعة الطاهـرة، والعروبة السليمة، والاخلاق الفاضلة، الا متى أنشأنا من جديد معاهد وكليات التعليم الأصيل..

وما تنافى ــ تاريخها ــ ، ولن يتنافى حاضرا أو مستقبلا بوجود كليات ومعاهد للثقافة العلمية والتقنية الدنيوية ، بل ان تعاليم الاسلام تستوجب الجمع بين الحسنيين ، لبناء مجتمع قوي دينيا ودنيويا ، فلا دين بلا دنيا، ولا دنيا بلا دين.

وطنية تلقائية

● ان مفاهيم الوطنية التي كانت صفـات رفقائي في المعهد، تختلف شكليا عن مفاهيمها الحديثة ذات الاطار الحزبي المنحصرة أهدافها مبدئيا بين حدود شعب مـن الشعوب لان هـذه المفاهيم الحديثة جاءتنا مـن وراء الآفاق الاسلامية.

اذ ان التعاليم الاسلامية رسمت خطوطها رسما انسانيا يستهدف جميع النوع الانساني رافضة حواجز الالـوان والمعتقدات والمذاهب الوضعية فهي تستهدف الاخوة الانسانية بقطع النظر عن كل الفوارق المادية والمعنوية، ولذلك تجد القرآن المكي بالخصوص يخاطب الانسانية جميعها وان كان يستعمل لفظة الناس لا لفظـة الانسانية فلا نجده يخاطـب المومنين، ولم يخاطبهم بهذا الوصف ، وصـف المومنين بتعبير يـا أيها الذين آمنوا الا فيما كان من القرآن المدني ، وما خاطبهم القـرآن المدني بيايها الناس، الا

سبع عشرة مرة ليس الا ، والتعميم في القرآن المكي من طبيعة الاسلام الذي دعا الله الانسانية كلها الى الايمان به وبرسوله الذي ختم الله به رسالته الالهية.

وانطلاقا من عموم رسالة الاسلام، فان كل من كان في عهد خاتم النبوة والرسالة ، وكل من كان بعده الى نهاية الحياة الدنيا، يعد من الامة الاسلامية آمن او لم يومن بالدين الاسلامي ومن هنا كانت خارطة الاسلام تستهدف كل بني الانسان، فكما ترفض حواجز الالوان والمعتقدات والمذاهب ، ترفض أيضا الحواجز الطبيعية، والمناخات ذات المفارقات الطبيعية الخاصة، ويصفها الاسلام «بالجاهلية» التي تعد الوطنية الضيقة بانحصارها في مناخ دون مناخ آخر ، تعد من مفاهيم الجاهلية التي شن الاسلام عليها حربا معنوية ومادية وحينما شعر الغرب شعورا كاملا بمعاني هذه الخارطة الاسلامية تكالب عليه الحسد والطمع ، وتحلب فوه الشره لما في العالم الاسلامي من خيرات أرضية وسماوية وبشرية فاخترع هذه الوطنية المعاكسة للخط الاسلامي ، ثم القومية وكلتاهما ملعونتان.

ومن قبيل حسن الظن ، تظاهر قادة من الشعوب الاسلامية بالترحيب بالوطنية ، فالقومية ، تحت ضغط الظروف القاسية التي كان العالم الاسلامي يئن تحت أعبائها . بعدما مزق الخلاف الداخلي وحدته وأجهز عليها الغرب بخيله ورجله «تظاهروا» بذلك لانقاذ العالم الاسلامي شيئا فشيئا، كما تمزق شيئا فشيئا، تمشيا مع نواميس الحياة القاضية بالنشوء والارتقاء والتدرج التي لا مفر منها في كل رقع اتسع خرقه، مع اعتبار النشوء والارتقاء هنا، غير ما يعنيه «داروين»...

● وفي الوقت نفسه ، كان في العالم الاسلامي دعاة ابوا الا أن يرفضوا هذه الوطنية الضيقة المناخ والعطن وان يدعوا الى بعث العالم الاسلامي بآفاقه وحدوده أولا ، ثم توسيعها لتشمل آفاق الانسانية كلها وتزعم هذه الدعوة الاسلامية الانسانية حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغاني رضي الله عنه.

فوطنية رفاقي في المعهد كانت تنطلق تلقائيا من التكوين الاسلامي بتشجيع التعاليم الاسلامية جهد الطاقة في مجالات شتى ، ومنها التشبث بالاخلاق الفاضلة والتزين بالازياء الخاصة بنا، واعتبار المحتلين غزاة غاصبين ، وكفارا ضد الاسلام واعتقاد التعاون معهم جريمة ، وما ينفحون به المسلمين المتعاونين معهم حراما ، حتى اننا كنا نقول لا عبادة مقبولة

لكل من يتعاون معهم تعاونا مباشرا على الاقل وحسبنا ان رفاقي في معظمهم كانوا اذا مات متعاون لا يشيعونه.

وحسبنا فيهم انهم كانوا يحترفون خطتي القضاء والعدالة ويفضلونها على العمل في مكاتب الادارة الاستعمارية ارتكابا لاخف الضررين ، لان هاتين الخطتين ما كانتا ولعلهما مازالتا غير سليمتين من الآفات التي تأباها التعاليم الاسلامية ، اعتبارا بأن خطة العدالة كانت في الجملة اسلم من خطة القضاء بالنسبة للعلاقة بينها وبين الادارة الاستعمارية.

وعلى أي حال، فان رفقائي لم ينغمروا مع الادارة الاستعمارية حسب ما يسرت لهم ظروفهم لتشبعهم باطنيا على الاقل بالتعاليم الاسلامية .

وما كادت شمس الانبعاث الوطني ترتفع قيد رمح ، حتى كانوا في معظمهم مجندين للانقضاض على الاستعمار فذاقوا من ألوان التعذيب والبؤس ما الله به عليم.

على انه يمكنني أن أسجل هنا بكل اعتزاز، بعيدا عن فخر الجاهلية ، ان قادة التوعية الوطنية كانوا كلهم الا ما ندر ، من أبناء المعاهد والكليات الاسلامية، وعلى الاقل فقد كانوا المباشرين الوحيدين لتفجير الوعي الوطني الاسلامي في الحواضر بصفة عامة وفي القبائل والقرى بصفة خاصة ، فلقد كانت طبيعة دراستهم الاسلامية تتلاءم مع عامة الناس المتعلقين بالعقيدة الاسلامية وأخلاقها ، على ما فيها من طفيليات ، ولم يكن في استطاعة غير ذوي الثقافة الاسلامية أن يفجروا الوعي الأصيل في العامة ، فجزاهم الله خيرا وقابل بالعفو العميم كل مقصر.

هذه تحيتي اليهم في هذا الكتاب ، سائلا من الله تبارك وتعالى العفو عن كل خطأ أو غلط أو سهو او عثرة ، وله المنة ، ومنه كل خير في الدنيا والآخرة آمين.

والى هنا أيها القارىء الكريم أسلمك الى كتابي ذكريات الدراسة في فاس والذي يمكنك أن ترجع اليه في الخزانة العامة في الرباط تحت رقم 7772 تاريخ 21 يونيه 1977م والذي صدر لي سنة 1974م .

وعدت من القرويين الى ابركان

● عدت من القرويين الى مسقط رأسي : «ابركان» برسم ممارسة خطة «العدالة» التوثيق سنة 1936 ، وفي صيفها بالذات ، وباستدعاء من المرحوم

العلامة السيد امحمد بن العالم اليزناسني الخالدي الذي كان قد مرت عليه ست سنوات بالضبط في ابركان وهو يمارس خطة القضاء.

ثم لم يلبث الا سنتان تقريبا وانتقل الى وجدة بنفس خطته أولا ، وقاضيا اقليميا لاستيناف الاحكام الصادرة بالمحاكم الشرعية بشرق المغرب

ويطلق على قاضي وجدة في ذلك العهد وما قبله «قاضي القضاة» فخلفه على المحكمة الشرعية العلامة الأديب الشاعر السيد عبد المجيد بن عبد الله الفاسي الفهري ابن عم الزعيم الراحل السيد علال الفاسي، فأبواهما اخوان.

مع المرحوم السيد عبد المجيد الفاسي الفهري

صفته : طويل القامة ، رقيق الأعضاء ، صبيح الوجه، أعين ، ذو ابتسامات مشرقة، أنيق الثياب ، يتجلى فيه ذكاء «آل الجد» الفهريين في أروع المظاهر ، لبق ، مرن ، تعتريه حدة من حين لآخر . فصيح مبين وذاكرة قوية ، وادراك عميق، مرهف الاحساس، تروقه النكتة ، ويرتاح للفكاهات ما شعر بعلم واستأنس بصاحبه، لم يخنه أبدا طابع الفهرية في أي موقف الى الاحتفاظ بعزة عالمية . وسرعان ما أصلح نظريته الاولى حول المجتمع اليزناسني، فأعجب به أيما اعجاب ، وأحب أهله ايما محبة ، فعاش ما عاش من عمره وهو يثني عليه وعلى أهله ، فبالرغم من انتقاله الى محاكم أخرى، كان يفرح كثيرا بأي يزناسي يزوره في محكمته ويكرمه أيما اكرام.

عند تسلم السلطة من خلفه.

كانت محكمة ابركان تضم ستة عدول 1) السيد محمد بن بوعزة اليعقوبي 2) خالي لأب السيد محمد بن علي اليعقوبي 3) السيد عبد الرحمن الخالدي النجاري 4) السيد محمد بن علي الشغروشني 5) السيد محمد بن البشير البكاوي 6) السيد عبد القادر بن العالم.

أما محكمة تافوغالت المضافة الى محكمة ابركان، فكانت تضم خمسة عدول 1) السيد حماد الشغروشني 2) السيد أحمد بن الحاج عمرو الحلوفي من «عين الصفا» 3) السيد الطاهر بن اعبيد الخالدي 4) السيد عبد الله بن عمرو بن قدور الوشكرادي 5) «ومؤلف هذه الذكريات»

فعندما تسلم مترجمنا سلطة المحكمة الشرعية بابركان ، انتقل مع سلفه السيد امحمد بن العالم الى تافوغالت ليتسلم المحكمة المضافة.

وحينما قدم له سلفه العدول نظر الـى السيد عبد الله الوشكرادي والى «مؤلفه» «فقال : حتى « هذوا اعدولات ؟ لقد كـان السيد عبد الله الوشكرادي في أواسط شبابه ، وكنت في أوائـل شبابي فتعجب من كوننا من جملـة العدول، بعد أن رأى عدول ابركان ما بين الشيخوخة والهرم تقريبا.

فأجابه سلفه ـ وهو يبتسم وينظر الينا ـ : هذا ما عندك من العدول «وهو يعني ـ بهذه الفقرة ـ ليس عندك من العدول المهمين الا هذان ، وليس في غيرهما أكثر من «عدول» فخرجنا من المحكمة ، ونحـن نتميز غيظا من نظرة الخلف الينا : أنا والسيد عبد الله ، واتفقنا على نشـر الاشواك في طريقه ، ونخلق له المصاعب الى أن يعترف «بعبقريتنا» وكنا بحق، وكما قال السلف، فرسي رهان في التوثيق ، واثارة المشاكل الخطيرة ، في وجه كل من يتعرض سبيلنا ، وان كنا مختلفين في التكوين والمقاصد.

فالسيد عبد الله كان ، اية في التلاعب والالتواء.

أما أنا فحسبي اني عشت في فاس ثلاـث سنوات ونصفا، وما غادرتها حتى كدت أن اطلع ـ بتدقيق ـ على مجتمع فاس البسيط المرن في الظاهر ، المعقد الملتوي في الباطن «والحد جامع مانع»

ومنذ أن اتفقنا ضده ، صار يعيش بين خشبتيـن «خطيرتين» لا سيما وان سلفه ، كان قد حذق مسطـرة العدول ، وخطـة القضاء في فاس ، وقد أخذنا عنه كل شيء قد حذقه ، ويا تعب كل من اتفقنا ضده.

وانتصرنا في معركة واحدة

لم ننتظر الفرصة كثيرا، فلقد سجـل السيد مبارك الرسلاني من بني وريمش دعوى ضد الشيخ السيد محمادي بن شعو «بشد» العين ، فقلنا لهذا الاخير ، كل ما يعرقل المسطرة ! ولم تجـد الاستدعاءات الرسمية فيه أبدا، حتى اذا استوفى جميع «حقوقه الشرعية» لقنـاه أساليب تمطيـط المدة للاجابة عن « الدعوى ، واستغرقـت هذه الاساليب مـدة طويلة ، ثم وصلت الـى باب مسدود « بفضلنا » فحـار القاضي كيف يفتـح الباب المسدود لمتابعة المسطرة.

فما كان منه الا استدعانا نحن الاثنين : كلا على حدة ، فقال : لم أكن أتصور أبدا انه يوجد عدول في بني يزناسن في مستوى عدول فاس من حيث الخبرة بالاساليب المعقدة الى هذه الدرجة التي وضعتني أمـام باب مسدود في دعوى بن شعو... ومبارك ! لقد جئت الـى ابركان وأنا أتصور يقينا ، ان

الامر لا يعدو انني في مثل قبيلة ازعير.. ولكـن هل بلغ مستوى عدول بني يزناسن الى هذا الحد من الخبرة بالمسطرة الملتوية ؟ فأي حل عندكما لفتح هذا الباب المسدود ؟ ! فما أشرنا عليه بالحل ، حتى أبدى لنا اعجابه المضاعف مع اقتناعه بما أشرنا عليه به ، ثم زدناه « ان المتداعيين بطلان من ابطال بني يزناسن ، وهما من ذوي رحـم واحـد، فالأفضل أن لا يصدر حكم ضد أحد منهما ، لان مضاعفات تنفيذه خطيرة ومتنوعة ، فاذا اذن لنا اعناه على «التصالح» الذي هو في مصلحـة الجميع، وفعلا وافقنـا على رأينا فانتهت القضية بسلام ، وحينذاك قال لنا : ان السيد ابن العالم كان موفقا في رأيه فيكما . فمن عداكما من العدول «فلحم وعظم» هكذا بالحرف وصرنا صديقين له ، ما استشكل أمرا الا واستشارنا .

وتنافسنا على صداقته

لقد خيل الى مترجمنا : انني.. والسيد عبد الله صديقان، ما دمنا قد اتفقنا ضدا عليه. غفر الله لك يـا مترجمنا ، فمتـى كانت ، أو تكـون صداقة بين عدلين ؟؟ انها اندر من بيض الانوق ، واليهودي الاسود ، والمرأة الصالحة ، والغراب الاعصم ، والعنقاء ، والمؤمن بالله المستوفى حقوقه من مجتمعه ، والولد البار في هذا العهد : 1398/1978..

حدث ان استدعى المترجم من طرف السيد عبد الله لقضاء أمسية ربيعية بمنزله ، فاصطحبني المترجم معه بناء على انني والسيد عبد الله صديقان ! وقبلت طبعا مصاحبته دون أن أشير اليه بأن المستضيف سيستثقلني في باطنه، ويقابلني مقابلة تدل على عمق الصداقة بيننا.

وأثناء الطريق ، وكنا راجلين ـ اجتذ بنا أحاديث جمال الربيع فصرت من حين لآخر أنشده بعض ما قيل في الربيع الى أن وصلنا في حديثنا ذكر قصة أبي بكر بن عمار مع ابن عبـاد فحكيتها له مـن أولها الى آخرها، مع تعليقات مقتضبة، وكان يلتفت الـى مرة بعد مرة وهو يبتسـم ، مازجا الاستحسان بالاعجاب ، فقال لي : ما كنت ! أحسب ان في ابركان من له مثل هذه الدراسة الادبية ! فكم درسـت في القرويين ؟ فقلـت ثلاث سنوات ونصفا وكم درست قبلها ؟ قلت نصف سنة في البادية في بني «منقوش» وعلى المرحوم سيـدي علي العروسي ، وسنتين ونصفـا في معهد وجدة ، فدراستي لم تتجاوز ست سنوات ونصفا، ولكنني شغوف بمواصلة الدراسة التكوينية ومنّة من الله أمتلـك حافظة وذاكرة قويتيـن جدا، وقد ساعدتني ممارسة التجارة مع والدي في طفولتي على تنمية موهبة دقة الملاحظة في الجملة، الى جانب ادعية شيوخي قرآنـا وعلما ، فأنا ـ ولله المنة ـ كنت

دائما موضع ادعية شيوخي لمحبتي لهم محبة الولد البار بأبيه.

وعندما وصلنا الى منزل السيد عبد الله ، رحب ايما ترحيب ، وكانت آية المفاجأة بادية عليه ، لانه سوف لا يستطيع ـ بمحضري ـ أن يشي وشاية واحدة، بل ستضطره المجاملة الى الثناء علي كثيرا ، الامر الذي سيجعله خاسرا هذا الاستدعاء للمترجم مائة في المائة ، اما أنا فقد كنت موقنا بذلك كله ، كما كنت موقنا بأن القاضي سيتابع الموضوعات الأدبية المثارة في الطريق ، وذلك ما سيجعل السيد عبد الله في حرج خانق ، لانه ـ شافاه الله ـ لم يكن يعرف غير قواعد نحوية ، وما «وهبه» الله من لذة في المؤامرات وقدرة على التفنن فيها، والفشل الذريع في جميعها سامحه الله.

والحقيقة انني اعتمدت اثارة الأحاديث الادبية مع القاضي ، لاضرب عصفورين بحجر ، اولا أن اقدم نفسي للقاضي وثانيا «لا نغص» هذا اللقاء على السيد عبد الله بصفة غير مباشرة ، حيث سيجلس معنا ولا يستطيع ان يشاركنا في أي موضوع ، ومن عجزه عن ذلك سيتيقن القاضي بالفارق الثقافي بيني وبين السيد عبد الله والبقية تأتي من بعد، والشباب جنون ، سامحني الله.

مؤامرة السيد عبد الله ضدي عند القاضي المترجم : أو المنافسة على الاصح

«صباح الخميس الاتي يجب أن تأتي الى منزلي» ، هكذا تلقيت الامر من مترجمنا ، وجئت في نفس الموعد، فخرج الى المترجم ، وآيات الغضب ظاهرة عليه ظهورا واضحا ، فجلسنا على مقعدين ازاء باب المنزل ، وبعد دقائق قال لي : بلغني انك تثير الصعاب في طريق خطتي ؟ فقلت : اضرب لي مثالا.. فقال : « السعدية » ، التي سجلت دعوى ضدها وأرسلت اليها استدعاء فأوعزت اليها بالامتناع من الحضور ! فقلت ان المبلغ صادق كاذب فقال وكيف ؟ فقلت : ان السعدية « شقيقة والدي الوحيدة »، وهي مقعدة في منزلها ، ومظلومة ، وشرحت له وجه الظلم كما بينت له المبررات القانونية للامتناع من الحضور ، ولا بارك الله في «عدالتي » اذا لم ادافع عن عمتي ، ولا أبالي أبدا بالواشي الذي هو السيد عبد الله بدون شك وقد يكون السيد عبد الرحمن النجاري شريكه .

فقال لي : أحقا ان السعدية شقيقة «سيدي علي» يعني والدي ؟ فأجبته : مائة في المائة فقال رحمه الله من العيب أن تظلم شقيقه والدك الذي أجله لاخلاقه الطيبة ، ولما يغمرني به من تقدير واكرام، فما ترى الحل فأشرت عليه به فاقتنع ، وكان ما اقتنع به، وليس فيه اي غبن على المدعي وحينذاك

قال لي : تفضل الى طعام الغذاء ، وقد استرجعنا علاقة الصفاء.

أثناء شرب الشاي :

وأثناء شرب الشاي وعقب تناول طعام الغذاء قال لي : هل اسمعك قصيدة من قصائدي امتدحت بها جلالة محمد الخامس بمناسبة عيد المولد النبوي ، وأرسل الي جائزة قدرها أربعون ريالا ، ويا ما كانت قيمة أربعين ريالا ! فقلت : شكرا على تواضعكم ، فتفضلوا ، فقلت له ـ بعد الاستماع اليه : هل أعطي رأيي في القصيدة كعدل وأنت قاضي ؟ أم أكون حرا في رأيي ؟ فقال بل أنت حر.

● فقلت ان القصيدة مجرد نظم ، ونظم الموظفين ، فليس فيها أي شعر ، وأنا متأكد انكم لو قلتم شعرا بعيدا عن الوظيفة لابدعتم فأنتم آل الجد ـ أسرة الابداع ، فأخذت أعطيه الامثلة من قصيدته ، وأبين له ما فيها من نقص كثير يمنعها من الانتساب الى عالم الشعر، فالكلمات في أفرادها وتركيبها بعيدة عن الأسلوب الشعري فلا هي شفافة مضيئة ، ولا هي عميقة تحمل مشاعر بين أغصانها ، ولا هي ذات موسيقى تهز المشاعر والوجدان ولا هي تأتي بحكم وأفكار من شأنها أن تنمي مواهب الاخلاق ، ولا هي قادرة على حمل السامع والقارىء على اجنحة الخيال الى الآفاق الرحبة الطروب وانما هي كلمات شد بعضها الى بعض بسلاسل من التكلف والعنف.

والى جانب ذلك، فما كان ينبغي أن تشير القصيدة الى التنقيص من «هتلر» وهو في عنفوان فتوحاته وانتصاراته فكان الواجب يقضي أن تكون في المقاصد أبيات عمومية المعاني، لا تتحملون فيها أية مسؤولية ، فماذا يكون مصيركم لو حكم الألمان المغرب ، وعثر على القصيدة التي فيها «وهتلر الهدام» ؟ وهذا في الحقيقة أقل ما فيها وهكذا كنت أعطيه رأيي وهو ينظر الي باندهاش، ثم قال : شكرا لك ، وأهنيك على رأيك في حين ان السيد عبد الله الوشكراوي «منافسي» اثنى على القصيدة ثناء عجيبا.

فقلت له وما شأن السيد عبد الله والشعر ؟ فهو منه كالضب مع النون، ولكنه فعل ذلك لتنفتح له قلبك لما يريد أن يقوله لك مما يستفيد منه شخصيا ليس الا.

وسامحني الله ، فلقد زدت قائلا : حينما كان يثني على القصيدة وعليك ، هل كان يجحض عينيه وينظر الى السماء من حين لآخر، وهو يبحث عن ريق

ليسعف به لسانه ؟ فقال متعجبا ـ انني لم اعر اهتماما خاصا لظروف ثنائه على القصيدة وعلي ، ولكن أتذكر ذلك جيدا ، فماذا في تلك الحال ؟ فقلت تلك حاله حينما يزيف الحقائق ، ويتحدث بعيدا عن نوازع الضمير

ومنذ ان كشفت لمترجمنا عن أخلاق «منافسي» وهو يحبني محبة عجيبة ويهمل وشاياته الى ان فارق ابركان، وكان رحمه الله يقول لي من حين لآخر، تعال الى منزلي فاذا دخلت عليه قال لي لقد ضحكت اليوم كثيرا ، ان السيد عبد الله كان يتحدث الي في شأن المحكمة وهو في تلك الحال التي وصفتها الي فغلبني الضحك ، حيث تذكرت ما قلته لي عنه ، وفعلا فان أحاديثه بعيدة عن الحقائق سامحه الله وشكرا لك على ان نبهتني الى ذلك ، فأقول له ان السيد عبد الله تحفة المجالس في النكت والفكاهات والنقد اللاذع ، فحسبك منه ذلك ، واحتط لكل ما يفضي اليك به عن الغير ، ان الاخطل ليس بمهم ازاء السيد عبد الله ، اذ يفوقه في سرعة البادرة، ودقة النقد، حتى لتكاد ان تلمس صور نتائج نقده لمسا ، وارجوك ان لا تعتبر مني ما قلت فيه انني أحسده أ واغبطه ، او أنافسه ، او احقد عليه ، فأنا شخصيا اتصل به كلما كانت بي رغبة الى المرح ، لاستمع الى نكته ونقده وفكاهاته ، لاسيما وهو ينتقد ويتندر حتى بنفسه !

وقبل أن أغادر هذا الفصل أقول ، ان السيد عبد الله مريض بالشلل ، وأرجو من الله أن يعافيه أو يكون هذا المرض الخطير تكفيرا عما سلف منه، وهو شيء كثير في أعيننا ، واكثر واوسع منه، رحمة الله.

ما ظالمك «كيرو»

لعلنا الان ، وفي شبه اليقين ، حوالي سنة 1941م

الحرب الكونية الثانية في اوجها ، والمانيا الهتلرية ، تحصل على الانتصارات الخاطفة ، وفرنسا لم تثبت امامها الا أربعة عشر يوما بالضبط، وفي الحقيقة أنها لم تثبت أمامها الا ثلاثة أيام، واما باقي الايام من 14 يوما، فهي ما بين الاستعدادات وعقد الهدنة ، وخط «ماجينو» لم يجدها في شيء، فالستراتيجية الالمانية عطلت مفعوله، اذ هجمت من جانب غير جانبه، حيث لم تكن مضطرة الى محاولة تجاوزه.

واستسلمت فرنسا ، وأسندت ألمانيا رئاسة الجمهورية الفرنسية الى «المارشال بيتان» والتزم هذا لها بالمحافظة على مستعمرات فرنسا الى نهاية الحرب ، ولتفعل المانيا فيها ما تشاء ، على ان تكتفي المانيا وايطاليا

بارسال لجن للمراقبة فقط في جميع المستعمرات في انتظـار نهاية الحرب وفعلا انتشرت هذه اللجان في جميع المستعمرات ، ومهمتها مراقبة كل تحرك عسكري فيها، مع وقوف فرنسا عنـد القوة العسكرية المحددة عدة وعددا في هذه المستعمرات...

غيـر ان رجال الحماية الفرنسية بالمغـرب ضربوا حصارا على هذه اللجن من حيث لا تدري فكل من اتصل بعضو منهـا، فالتنكيل والتقتيل والتشريد.

ومن المحاصرة ، ان وضع رجال الحماية أعضاء اللجان في فنادق عمومية ، خصصوا لهم فيها الحجرات اللازمة ، وما بقي من الحجرات ، فهي لعموم المسافرين.

ومن «عموم المسافرين ، رجال شرطتهم السرية..» الى جانب ذلك ، فقد وضعوا شرطة سرية دائمـة أمام تلك الفنـادق ، الى شرطة كثيفة موزعة في الشوارع ، الى أجهزة الارسـال والاستقبال السريعة المتجولة أينما تجول اعضاء اللجان بالاضافـة الى جعـل العدة والعدد الزائدة على القدر المتفق عليه ، في امكنة بعيدة عن اعين الرقابة ، وليس في الحصون من ذلك الا ما اتفق عليه أو دونه بقصد التضليـل ، وقد نجحوا في ذلك ايما نجاح وفي الوقت نفسه كـان «ديغول» لاجئا لـدى أنجلترا يوجه النداءات تلو النداءات للمقاومة الشعبية ، ومثل ذلك يفعل الجنرال «جيرو» ورفقاء الجميع من الضباط الذين عـز عليهم أن تحتـل فرنسا من ألمانيا كان رجال عندنا يعيشون على أعصابهم ، وخصوصا حينما اذنت ألمانيا لاسبانيا الفرنكوية باحتلال بعض تراب الشواطىء وكادت تحتل أبركان ، ثم جاء الامر بايقاف ذلك .

وكان «سيـروك» وهو رئيس المراقبـة بابركان أي رئيس الدائرة وترجمانه الكبير هو «الغوثي رحال» بالضبط قلت، في هذا الجو الجهنمي كانت المراقبت مرهفـة الاحساس ، فأرسـل المترجم يقول لي : ونحن فيي بهو منزله = ان رئيس مكتب الدائرة الم «كيرو» بتثليث الكاف قال لي : ان السي قدور ينتقد فرنسا كثيرا ، وانـه من الوطنيين ، وبصفتك قاضيا وهو من عدولك يجب أن تنصحه بالاشتغال بشؤونه الخاصة والا اتخذنا معه اللازم.

ثم قال لي «المترجم» هل ما يقول «كيرو» صحيح ؟

فأجبته : صحيح اني وطني، ومن الحزب الوطني لا من غيره، وأريد أن يعرف «كيرو» ان خطة العدالة ليست بوظيفة حتى يضغط علي بها ، فاني لا أبالي بالفرنكات التي أخذها على ما احرره من وثائق ومن أصحابها لا من ميزانية الدولة ، فلولا والدي رضي الله عنه الذي زوجني وينفق علي وعلى زوجتي وولدي ما استطاعت فرنكات العدالة ان تنفعني في شيء ، وانني على استعداد للتضحية بروحي في سبيل وطني فضلا عن أن أضحي بخطة العدالة

ثم فرعت على ذلك قولي، فبالله عليك أي وضع منحط هذا الذي نعيشه مع الفرنسيين ؟ فأنت خريج كلية القرويين ، وابن وزير ، لان والده عبد الله كان وزير مولاي المامون بن الحسن الاول ، الخليفة السلطاني بفاس ، ومع ذلك ، فان رتبتك في سلك القضاء هي الرتبة الخامسة ، وأجرتك الشهرية بالضبط 1575 فرنكا مع 15 في المائة من مداخيل المحكمة ، وتوزع الراتب هكذا : 500 فرنك كراء المنزل في كل شهر ، ثم واجب الماء والضوء ثم 75 فرنكا كراء السيارة الى سوق تافوغالت كل اربعاء و125 فرنكا لكراء السيارة الى سوق عين الصفا في كل سبت، فماذا يبقى لك من راتبك وأنت تعيش غريبا هنا عن عاصمة العرفان فاس ؟ في حين ان الباشا الحيحي بوجدة يتسلم راتبا شهريا قدره الف ريال، مع مرتب المعاش من الجندية، وهو ضابط ، والمنزل والماء ، والكهرباء ، كل ذلك بالمجان ، علاوة على ما له من سلطة اين منها سلطة القضاء ؟

إن احدا لا يستطيع أبدا ان يصبر على هذا الوضع الا ،أن نكافح ونضحي لتصحيح الاوضاع لاسترجاع سيادتنا واستقلالنا.

هكذا تقريبا أجبت «المترجم» وهو ينصت الي باهتمام ، وأنا في حماس ناري ، نسيت كل ما يجب علي نحوه من أدب واحترام، ولكنه رحمه الله رحمني جدا وقدر وطنيتي وحماستي، فقال : والله ما ظلمك «كيرو» فأنت أكثر مما يعرف عنك «كيرو» وفقك الله وأعانك ، ولكن عليك بالاعتدال ، فالظروف كما ترى ، وسأعمي على «كيرو» بأنك شاب مثقف تقرأ الصحف وتحدث فقط عما في الصحف وانه لا ضرر أبدا من ذلك على وضعية فرنسا، هذا واحذر ما استطعت ، فان «العيون» كما تعلم، وأقل شبهة تفقدك حياتك ، وانت عزيز علي ، وأسرتك كلها

عزيزة علي ، وللا حلومة ، كلاهما عندي كالابوين ، وأنت تعلم أنك الوحيد الذي استأنس بك في ابركان ، حيث انك فاسي أكثر من بركاني، فلا تحرمني من هذا الانس ، وقد أوصيت ولدي عبد الرحمان وخديجة أن يدعواك «يا عم» فأنت مثل أخي.

الى شمائل الترمذي

بحلول شهر رمضان المبارك ، شرع «المترجم» يدرس شمائل المصطفى صلى الله عليه وسلم للترمذي وكنت «سارده» وكان ذلك في المسجد الاعظم وعقب صلاة العصر.

ولست بحاجة الى اعطاء صورة عن اطلاعه وأسلوب ادائه ، فمترجمنا من آل الجد الفهريين وقد اشتهروا بالعلم منذ عدة قرون كما اشتهروا بفن الخطابة.

فمترجمنا رحمه الله خطب فينا أول خطبة عيدية له في ابركان ، فأخذت خطبته = موضوعا وأسلوبا = مع الاملاء ، أخذت بلب كل من حضرها..

فانه لاول مرة في تاريخ ابركان الحديث ، يملي الخطيب خطبته املاء، وبتلك الصياغة الفهرية العجيبة والاستحضار للآيات والاحاديث في غير كلفة ولا تصنع !

ولذلك صار مترجمنا رحمه الله حديث المجالس المعطرة بالثناء الخالد

ولما يزل من عايشوه يثنون عليه ويترحمون ، فهنيئا له بذلك ، وعطر الله قبره برياحين الجنة ، ومتعه بكل ما يليق بالعلم والعلماء آمين.

من آيات محبته لي :

منذ ان تعرف علي = بحق = وهو يحبني محبة صادقة، وكنا نعقد مجالس في منزلي او في منزله، نتجاذب فيها أنواعا من المجالات العلمية والادبية، ويبلغ به المرح حتى يقول لي « يا سيدي قدور لو لم اجدك في ابركان ماذا سيؤانسني فيها ، انها منة الله علي وعلى أسرتي ، فلقد كنت استدعيه وأسرته الى منزلي خارج المدينة بنحو ثلاث كيلو مترات فيظل هو وأسرته في منزلي يتمتعون بالهواء الطلق ، ومناظر الازهار المتنوعة في فصل الربيع ، وقد يقع كثيرا ان استدعيه في كل أسبوع ، ولما يتيقن من صدق محبتي له ، أخذ يخبرني بأنه سيكون هو وأسرته ضيوفي في

صباح الاحد، فكنت اسر كثيرا لرغبته وبدون ان استدعيه ومن آيات محبته لي : ان قال لي ذات يوم من الحديث معه في العلوم التي تدرس بالقرويين : لقد ادركت انه في استطاعتك ان تتقدم لشهادة العالمية التي يعلن عن الاختبار لنيلها من حين لآخر «دار المخزن» واني أقترح عليك بالحاح أن تتقدم اليها، وأنا مستعد لتقديم جميع المساعدات لك ، وعليك ان تعلم ان للعالمية الرسمية قيمة مهمة جدا ، فقلت له : شكرا على هذه العناية، وانني متأكد من كل ما ذكرت ، غير انني حينما كنت ادرس لم أفكر في الشهادة ، بل فكرت في تحصيل العلم، وعلى أساس هذه الفكرة ، استفدت كثيرا في دراستي ، فلو انني كنت أفكر في الشهادة العالمية، لوقفت دون ما حصلت عليه بكثير، فالذين يدرسون للشهادة العالمية فيهم نسبة مهمة لا تعتني الا بالمقروء في السنة ، حتى اذا اقترب موعد الامتحان اجهدوا أنفسهم للاستظهار ، فيفوزون بالعالمية دون علم مهم ، وفعلا لاحظت هذه الظاهرة في بعض العلماء . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، اني قصدت بطلب العلم ان أعلم نفسي شريعة الله أولا ، ثم متى أحسست بكفاءة نشره فعلت ، وان العالمية ليس لها من أثر الا في مناخ الوظائف «والوظائف في معظمها لا تعدو القضاء ، وفي القضاء خطورة قد لا أنجو منها ، ولقد أثرت علي «آية الجن» وما اليها من بيانات نبوية وما توسع في ذلك الفقهاء ، حتى انني لا أنتظر الا الفرصة المواتية لتقديم روحي فداء لهذا الوطن الاسير فيوما عن يوم ، اشعر بتفاهة الحياة ، والوطن أسير بين يدي الاستعمار ، وان الاستعمار الفرنسي لأقسى أنواع الاستعمار ، فما أظنه يسمح لي بالحياة اذا ما واجهته بما اشعر به من عزم في لاذي على مواجهته ، فاذا ما استشهدت في سبيل الله ، أو امتد بي الاجل الى افتكاك الوطن الاسير ، فحسبي ما عندي من العلم ، ووطني حر طليق والرزق مضمون ، وفي الكفاف كل الغنى .

لقد كنت أتحدث اليه والحماس أوضح من الشمس في رابعة النهار ، والحق أنه تأثر جدا بحديثي فدمعت عيناه أو كادت ، وقال لي هنيئا لك بهذا العزم، وان لك لمستقبلا زاهرا..

وبالمناسبة وسنة الاستطراد أقول : عندما قضيت بضعة شهور في ممارسة القيادة الممتازة على رئاسة دائرة ابركان قدمت استقالتي بناء على الوعد الذي كان وعدني به صديقي وزير الداخلية الاستاذ المجاهد ادريس لمحمدي بأنه يقبل استقالتي لمضي ستة شهور فقط ، نظرا لضرورة تقلدي لهذه المسؤولية في ابركان في السنة الاولى للاستقلال، وعوض أن يفي لي بالعهد، استدعاني مركز الحزب وقدمني المرحوم الأستاذ العبقري الفريد السيد المهدي ابن بركة للسيد ادريس المحمدي ، وهو وزير الداخلية وكنا

جميعا في منزل البحراوي رحمه الله الـذي صار دار الحديث الحسنية وكانت المناسبة اقامة حفلـة عشاء للسيد الشطي سفيـر تونس بالمغـرب ، ولما قدمني اليه وكان بجانبه المقاوم الشهير « الحسن الأعرج » قال لي انه وقع الاجماع في المجلس الـوزاري وتحت رئاسـة جلالـة الملك محمد الخامس وحضور ولي عهده اذ ذاك المولى الحسـن على اختيارك عاملا لاقليم وجدة، بدل السيد محمد بن عمرو احميدو، ويقول الوزير اذا ما كنت موافقا فسارسل برقية هـذه الساعة بعـزل سلفك ، وتقليدك مهمتـه، فاعتذرت له بشتى المعاذر، كل ذلك لاعيش بعيدا عن مثل هذه المسؤوليات الخطيرة أمام اللـه والمنغصة لحياتي في الدنيا وأنا الشغوف بالحرية والاطلاع العلمي الاسلامي، وعرضت على مهمة عامل بعد ذلك مرتيـن، وتنصلت منها وكان من الممكن لو قبلتها لتدرجت الى ما فوقها ولكن الله سلم ، فلله الشكر والمنة ، والله اني لاشعر بخطورة مصيري الى الله عبر هذه المسؤوليات ، فكيف أطيق تحمل المصير الخطير أمام الله وأنا في مثل تلك المسؤوليات ؟

قلت ان مترجمنا كان يتصد بالمستقبل الزاهـر، مثل هذه المسؤوليات الخطيرة وقد وقعت بين يدي فطردتها عني تخفيفا عن نفسي يوم الحساب فكنت بذلك أشبه بقول القائل.

القى الصحيفة كي يخفف رحله والزاد حتى نعله القاها

ومن العجيب الذي يثيـر أعصابي اثـارة ملتهبة ، ان يقـال لي لقـد ظلمك الحزب أو ظلمتك الدولة لان أحدهما لم يعطك شيئا والحالة انني اتنصل من كل مسؤولية ساميـة ومنفعة بيـع وشراء في وطنيتي ، ولكن لاعجب، فلقد أصبحت المقاييس المادية آلهة تعبد ، فكيف يصدقني معارفي باني عازف عن المسؤوليات السامية والمنافـع تعويضا لوطنيتي التي تعد أسعد أيام حياتي ، فكل مـا كنت الاقيه من آلام ، كـان يشع السعادة في قلبي.

ويشهد الله اني طالما كنت أقول ، وانا في احلك الظروف : يا رب ، والله ما كنت أظن أنك ستوفقني للجهاد في سبيلك اما وقـد وفقتني فتقبله مني وأختم لي بحسن المصير

ومثل هذا الدعاء كنت أدعو بين حجر اسماعيل والركن اليماني في حجتي الاولى يناير 1974م : وأنشئـه الآن لك يا الهي ، لاسيما يـا الهي وأنا انظر وأسمع وألمس ان كـل من ابتلى بمال أو جـاه أو سلطة يعيش في جحيم لا يطاق : شرود في العقل، وقلق في النفس ، واضطراب في القلب،

وكبرياء مصطنعة ومظاهر عزة تخفي الآلام القاتلـة ، وحذر يذهل عن كل خلق كريـم.

ولقد جربت بعض هؤلاء، فأعربت لهم بصراحة عما يقاسون من حياتهم، فصغروا في أعينهم أنفسهم واغتبطوني على ما أشعر به من راحة واطمئنان بابتعادي عن هذه الحياة القلقة ، بـل ان عددا مهما منهم قال لي أنـك أغرب رجل في دنيا الاستقلال، وهنيئا لك بذلك ما دمت به سعيدا.

قلت من يدري ان مترجمنا رحمه الله ، كان يـرى في مستقبلي الزاهر هذه الحياة البعيدة عن البيع والشراء في وطنيتي وذلك بالرغم من ان العادة اذا ما قيل لانسان مـا، : لك مستقبل زاهـر ، فان المقصـود : الوجاهة والسلطة والمال.

وتحولت المعرفة والأخوة الى صداقة :

قلت لمترجمنا ذات مرة ان لبني يزناسن طابعـا بدويا مغلقا، بالرغم ما فيهم من حضارة اخلاقية اسلامية، ومـن حضارة مادية نسبيا، ويرجع الفضل في هذه الى اتصالاتهم بالحضارة الفاسية ـ فاس ـ أقرب حاضرة الينا ولكن مع ذلك، ينقصنا التفتح الحضاري.، أعني به التسامح الانساني لخلق جو من الملح والتسلية الذي من شأنه ان يخفف الأعباء على النفوس، فالفقيه عندنا عالما أو قرآنيا لا يستطيع أن ينشد شعرا غزليا صرفا ، أو نسيبيا ، الا اذا كان الشعر صوفيا مستعملا في الامداح ، بهذا النوع وبهذه الصفة غير مستهجن، وما عدا ذلك ، فيا ويل من يتغزل حتى في الطبيعة، فان التهم توجه اليه بدون حساب.

ثم قلت له وماذا عليك لو تخليت عن «وقار العلم والقضاء » وأنشدتني شعرا رقيقا من شعرك ، على ان التزم لك بعدم مس وقار عالميتك وقضائك ؟ انك ان فعلت وسمحت لي فسننشيء جـوا أدبيا بريئا نتخفف بـه من عبء هذا المجتمع المغلق على نفسه.

ثم قلت له : ان كثيرا من أخلاق بني يزناسن تروقني واعتز بها، وانما يضايقني ان تكون كلها على خط جدـي صرف، فالملح والفكاهات والنوادر البريئة أشياء ضرورية للتنفس النفساني ، مستعينا بالتنفس الرئوي لطرد الاشجان والآلام التي تعج بها الحياة الدنيا حتى في أجواء رفاهيتها ونعيمها.

ان المدة التي قضيتها في فاس ، كانت بحق مفيدة جدا بالنسبة لطبعي المائل نحو المرح والتفاؤل ، ومناخ بني يزناسن يضايقني كثيرا ببداوته

وتقاليده المغلقة، وان كانت في حد ذاتها طيبة للغاية، ونفس الشيء بالنسبة لتفتح الحضارة في فاس ، كانت آفاقه الواسعة تضايقني، فهلا أنشأنا جوا لينا ليس هو كل جو بني يزناسن ولا هو كل جو فاس، ولكنه عوان بين ذلك ؟

انظر.. ان آرائي حول قصيدتك وان كانت حقا فيما أظن ، وانك استحسنتها، ولكنها كانت تحمل طابع مجتمعنا هنا المغلق. اذ كان يجب علي ان أتظاهر على الاقل ببعض المجاملة حيال قصيدتك، وتأثرا بطباع مجتمعي المغلق، أبديتها جافة من أي قطرة من ندى المجاملة ، على انني شخصيا استصعب اطالة المجاملة ، فلا أكاد اصطنع ، حتى تثور في نفسي الجدية القاسية ، ولا سيما الموضوعات الجدية.

كان من طبعه رحمه الله ان يصغي الى محدثه كامل الاصغاء ، لا يضايقه أبدا ولست أدري هل كان ذلك فيه طبعا أم انه خلق القاضي الضروري بفسح المجال أمام المتداعين حتى يستوعب كل شيء مما يريدون أن يقولوه كيفما كان قولهم ، وبذلك يستطيع ان يكون له صورة حقيقية عن القضية والمتقاضين ، وبحكم بما يرتاح له ضميره من أحكام ؟

فكيفما كان الامر ، فان اذنه صاغية ، وما لبث ان قال لي ونحن نتجول صباحا في أحد الشوارع ، اتريد ان اسمعك شيئا من شعري العاطفي ؟ فنظرت اليه مستبشرا مبتسما شاكرا وأنا أقول له هات.. هات.. والف شكر ، فأسمعني قطعا عاطفية رائعة ، كدت ان اخرج بها عن واجب الوقار معه، لولا انني تذكرت التزامي له باحترام وقاره العلمي والقضائي ويؤسفني : اني لا أذكر الآن ولا بيتا مما سمعته منه.

ثم ما لبثت أن قلت له : هذا هو الشعر الذي يربطني ، لا لغزليته ولكن لصدق تصويره للعاطفة الانسانية وهكذا صرنا نتحلل من القيود شيئا فشيئا الى ان صرنا نتحدث في شتى المجالات البريئة طبعا وفي بعض اللقاءات كان يتحدث معي في بعض القضايا المعروضة عليه والتي انتهى ملفها ولم يبق الا اصدار الحكم والى جانب ذلك كنت اعرفه بالاسر المحترمة ذات النفوذ في القبائل ، وأفسر له بعض العادات والتقاليد ليستعين بذلك على ابحاثه ، فاصدار الاحكام.

أصطدامات بريئة :

1) كنا ذات أربعاء في محكمت تافوغالت نتلقى الشهادات وتسجيل القضايا فجائني العون «أحمد الهفتي» قائلا ان القاضي يأذن لك في تفويت

بيع أرض في اسم حلومة البخريصية لعبد القادر بن سليمان البخريصي وها هي المرأة حلومة حاضرة .

فنظرت الى المرأة فبان لي انها مزورة، اذ سبق لي ان رأيت حلومة البخريصية لمدة شهرين تقريبا، فقلت للمشتري يا عبد القادر ان بيني وبين والدك صداقة ، وأخشى ان أخبرت القاضي بأن هذه المرأة ليست حلومة، ان يحيلك على القائد الهبيل وأنت تعرف العاقبة ، فالخير لك أن تأتي بحلومة الحقيقية.

وما أتممت نصيحتي له ، حتى ارتفع صوته قائلا : أتريد مني أن أعطيك الرشوة ؟ والله لا تراها ، وقلت له : معاذا الله ان أتسلمها منك ولو تطوعت بها، ولكنني مصر على ان هذه المرأة مزيفة ، فسمع المترجم ما بيني وبين المشتري واستدعاني الى مجلسه قائلا لماذا تعرقل مصالح الناس في حين انني تأكدت من العون «أحمد الهفتي» بأن هذه المرأة هي حلومة ؟ فقلت له اني مصر على انها غير حلومة، فسأل العون فأكد انها حلومة ـ فنظر الي وهو في أشد الغضب قائلا : والآن ما رأيك ؟ فقلت لما ازل مصرا على رأيي برغم شهادة العون ، فكاد يجن رحمه الله ، فطلبت منه ان أسأل المرأة ، فأذن لي في ذلك، فصرت أسألها عن نسبها وارحامها ثم قلت للمترجم ان هذه المرأة ريفية ، واللهجة الريفية واضحة فيها ، ثم قلت لها حلي قبضة يدك اليمنى ، وكانت معقودة ، وخاطبتها بلهجة عنيفة، فحلت قبضة يدها فظهر انها كانت تضم ريالا بين كفها، ثم قلت لها من أعطاك الريال ؟ وبلهجة عنيفة أنت ريفية ولست بوخريصية فأنا أعرف حلومة طويلة القامة نحيفة الجسم بين عينيها وشمة أسيلة الانف تتحدث بهدوء ، ودارجتها العربية لا تشم منها رائحة شلحة بني يزناسن قولي الحقيقة، كل هذا والقاضي يصغي وينظر الي باندهاش، فقالت الحقيقة اني لست حلومة، أنا ريفية وقد أعطاني عبد القادر المشتري ريالا ذاك الذي رأيتموه لاشهد له البيع ، ثم نظرت الى العون قائلا يا أحمد ، الا تخاف الله فتعين عبد القادر على التزوير من أجل أربعين ريالا كانت بقيت لحلومة البخريصية، فانفتحت أسرة القاضي وهو يقول لي. جزاك الله خيرا، هكذا ينبغي ان يكون العدول وأنت يا أحمد الا تخاف الله وانا أعتمد عليك ؟ فاقر العون بالحقيقة ، وحينذاك اشتد غضب القاضي قائلا : لزاما أن أحيله على القائد الهبيل، اخرجوا من المجلس، بعد ان جدد لي شكره.

وعقب خروجنا جميعا ، رجعت اليه لاقول له : يا سيدي عبد المجيد ، أنت تعلم نظرية القائد الى المحاكم الشرعية، حيث تضايقه ، وخصوصا

ما بينك وبينه من سوء تفاهم، أتدري ماذا يفعل ؟ انه سيأخذ منه ما امكنه من النقود ثم يطلق سراحه واي فائدة لكم وللمحكمة في ذلك ؟ فالرأي عندي ان لا تحيلــه على القائد بل مــره فلينتظر الى آخــر المساء ، ثم قال له لقد أخبرت بطيبوبة والدك ، ولذلك فانــي أسامحك علــى أن تأتي في الاربعاء المقبل بحلومة الحقيقة فقال لي جــزاك الله خيرا وكذلك فعــل وانتهى الامر بســلام.

2) وفي محكمة عين الصفا استدعاني « المترجم » ، الى مجلسه ليأذن لي في عقد زواج قائلا : هذا الانسان قد زوج بنته لهذا الشاب، فاشهد عليهما بذلك مع العدل السيد حماد الشغروشني فتوجهت الى «الولي» قائلا من المؤكد ان البنت بنت أخيك أو احد أقاربك وقد كفلتها وان هذا الشاب هو أخ الزوج لا نفسه ، ويا سرعان ما غلت أعصاب المترجم فقال لي ألم تكتف ببحثهما من جهتي حتى صرت تسألهما من جديد هل أنا جاهل بعملية البحث ؟ أنا أقول لك ان هذا الانسان أبو البنت وأنت تقول له انه عمها ! وانا أقول لك ان الشاب هو الزوج ، وأنت تقول أنه أخ الزوج ! أنا لا أقبل منك حالا ولا استقبالا ان تراجع أعمالي فحرر لهما عقد الزوجية وكفى.

● كان مــن عادته رحمه الله اذا غضب ، ان تبرق عيناه، ويعلو صوته، ويخرج الزبد من فيه، ويرتجــف ارتجافا بينا ويتقلب في مجلســه يمينا وشمالا، حتى ليبدو انه يتحفز للانقضاض على المغضوب عليه، تلقيت غضبه باعصاب هادئة وأنا في شبه ابتسامة الامر الذي ضاعف من غــضبه ،فقال لي قــل.. لماذا تراجع أعمالي ؟ لم تلق هذه الاسئلة أمامي ؟

أي مبرر لك في ذلك ؟

عيب.. عيب.. أن يراجع العدل أعمال القاضي.

فلما سكن غضبه ، أو تهاوت أعصابه على الاصح ، قلت له : معاذ الله أن اراجع اعمالك بقصد التنقيص من مقامك او من خبرتك، ولكن محبتي لك من جهة وواجب الكشف عن الحقيقة من جهة أخرى ، يستوجبان على أن أقوم بمثل ما قمت به، فالامر يتعلق بما درجنا عليه هنا من تقاليد واعراف، فلقد أدركت بداهة ان الحقيقة هي ليست كمــا أخبروك بذلك، وفي نفس الوقت فانهم لم يكذبوا عليك ، فالعادة «المقدسة» عندنــا فــي بني يزناسن ان لا يجمع الولي والزوج مجلس واحد كهذا الذي نحن فيه عندك، ولن يجتمعا في مجلس واحد حتى تمر شهور أو أيام على الاقل على الدخول، ثم يزور الزوج الولي في منزله وتقام حفلة رائعة في بعض الاحيان ويقبل الزوج رأس الولي ورأس

أم الزوجة ، ويطلق على ذلك عندنا « حب الرؤوس» ، وبعد ذلك يمكن ان يضمهما مجلس واحد كهذا، وما دام هذا الانسان يقول هنا بمحضرك : اني زوجت ابنتي لهذا الشاب والشاب يقول : قبلت ، فان ذلك اشعرني بداهة بأن الحقيقة خلاف ذلك وأسمح لي ان أراجعهما مرة أخرى فراجعتهما فاعترفا بالحقيقة ، فقال القاضي للولي ولم لم تقل لي الحقيقة من أول مرة ؟ فتدخلت لاجيب عن الولي انه يعد كفيلته : بنت اخيه بمنزلة ابنته، وهو لا يعرف المفارقة التي تترتب عنها في قضيته ، من انه يجب عليه اقامة لفيف باليتم ، واشهاد البنت العدلين على توكيله لتزويجها من فلان ، على عكس المجبرة ، والشاب هذا لم يقصد التزوير أصلا ، ولكن أعتقد جازما انه وأخاه سواء ، وان العادة تسمح بذلك ، فكلا الولي والشاب ، لم يزيفا الحقيقة أصلا ، ولكنهما عبرا عنها بلغة العرف والعادة ، وسرعان ما رأيت السيد القاضي يستعيد هدوءه ، وفي عينيه آيات قهقهة تكاد تنفجر أمامنا فتصيبنا شظاياها فرحمته لتفجيرها وقلت للولي والشاب تعالوا معي الى حجرة الاشهاد فخرجنا، وقال لي القاضي اجلس، ثم قال ان هذا لشيء عجيب، فقلت عفوا انه مطلق العرف والعادة، وفي فاس وغيرها مثل هذا المنطق تماما ، العرف والمادة وان اختلفت مظاهرهما ومجالاتهما، ومن هنا يا سيدي عبد المجيد، اختلف الفقهاء : هل من الاصلح ان يكون القاضي من نفس البلد ؟ أو أجنبيا عنها ؟ ولكل رأي مبرر أو مبررات .

ففائدة الاقاضي الاجنبي عن البلد، سلامته مما قد يكون بين القاضي البلدي وأهله من سوء تفاهم أو خصومات قبل تولية القضاء فتؤثر عاطفة الانتقام عليه في احكامه، والى هذا العيب المفترض فانه خبير بتقاليد البلد واعرافها ، فلا يقع له مثل ما وقع لكم اليوم.

وانطلاقا من محبتي لكم، فاني وضحت لكم وسأوضح لكم في المستقبل تقاليد واعراف هذه القبيلة ان شئتم، فقال : مرحبا وجزاكم الله خيرا.

من دعاباتي مع المترجم

صحبته مرة الى سوق «عين الصفا» وفي المساء استأذنه المرحوم الفقيه الشريف السيد محمد بن البشير البكاوي في ان يصحبه معه الى ابركان في سيارة الأجرة التي اكتراها القاضي من خاص ماله ولشيخوخته لم يرد طلبه وان كان يؤثر ان لا يركب معه أحد غيري، لاننا نقطع المسافة في أحاديث مسلية تارة ودراسية لتقاليد بني يزناسن. واعرافها أخرى

وحينما أراد أن يأذن له في الركوب معـه، نظر الي كأنه يستشيرني ، فأطرقت ، ومع ذلك اذن له اكراما لعلمه وشيخوخته وفقره، ولكونه أحد عدوله.

ولما خرج الفقيه قال لي لماذا اطرقت ؟ وكانت أية ابتسامة تبدو في عينيك ومحياك ؟ فقلت له ان سيارة الاجرة غير مضمونة الوصول الى ابركان، فهي منهارة كما يظهر لي ، والسائق مولاي اليماني غير خبير بالسياقة ، والفقيه من الذين هم عن صلاتهم ساهون.. واليوم.. هو اليوم ؟ فنظر الي متغاضبا وهو يقول : حرام عليك حـرام.. حرام أن تنتقـص من حق الفقيه الشريف السيد محمد بن البشير ، كيـف يكون من الذين هـم عن صلاتهم ساهون ؟ وهو لا نظير له في الفقه في بني يزناسن ؟ فقلت له : انني متأكد مما تقولون.. ولكن.. سترون..وفعلا ، ما قطعنا مسافة ميل او ميل ونصف، حتى انفجرت احدى العجلات، فارتعشت عجلـة القيادة في يد مولاي اليماني واضطرب جسده ايما اضطراب، وبـدأ عليه القلق والحيـاء أمام القاضي ، ولكن كعادته، ابتسم وقال للقاضي لا تخف الامر بسيط لا يحتاج « الا الى بضع دقائق ».

نزلنا من السيارة وأدينا صلا ةالعصر ولما فرغنا منها قلت للقاضي من حيث لا يسمع الفقيه السيد محمد بن البشير، قلت له : ان الفقيه صلى معنا العصر بدون وضوء ! ولا أظنـه صلى الظهر ! ولذلـك فلتنتظر انفجار العجلات كلها ، فنظر الي بعينين ــ وهو أعين ــ تبدو فيهما آيات قهقهة صارخة ، وقال « اتق الله ، فهل ذلك ممكن « فقلت له وأقسم على أن العجلات تنفجر كلها ، فما كدنا نقطع مسافة قليلة حتى انفجرت كل العجلات المطاطية بالطبع ، فاختل توازنها ، فاضطربنا فيها اضطراب الطفل في مهده ووالدته تستعجل نومه لقد كتمت قهقهة جذونية في نفسي حياء من القاضي ، ولكنه سرعان ما أطلقها قهقهات هستيرية صارخة وصار يسعل باستمرار ، حينذاك فجرت قهقهتي على طول ، كما يعبر الشرقيون ، أما الفقيه ، فقد أطبق عليه الوجوم فكيه ، فتحول الى جماد...

واما مولاي اليماني فقد انفعل ايمـا انفعال واطلق لنكتـه العجيبة كل العنان وأوقف السيارة ، نزلنـا جميعا وأشار القاضي الـى مولاي اليماني بأن يصلح العجلات ان في استطاعته ذلك ثم يتبعنا ، وقال لي : قل للفقيه ان يؤانس مولاي اليماني، وهيـا بنا أنا واياك فقط على أرجلنـا فالطريق الرئيسية على مقربة منا... فما ابتعدنا قليلا حتى قال لي وهو لا يفتر عن الضحك :انك انسان عجيب ، لقد تحققت كل تنبؤاتك فمن أين لك بهذا ؟!

فقلت له : انني منذ عقلت وأنا أشعر بالمرح والتفاؤل ينموان مع نمو

جسدي، الى فراسة مزيجة بالاحساس بدقائق الاشياء حتى اتفهها، ، فأنا «افلسف» كل ظاهرة ، وخبرتي بالفقيـه واسعة، وتشاؤمي منه كان يغلب التفاؤل بسلامتنا من عاقبة أي انفجار في العجـلات، وها هو الله قد فعل ، فجمع لي ما بين الفراسة، والتشاؤم، والسلامة، وهو على كل شيء قدير.

والآن ليس بيننا وبين الطريق الرئيسية ما بين ابركان ووجدة الا خطوات ألا تشاهده من مسافة قصيرة ، فلنسر على بركة الله ، ولن تتركنا واقفين سيارة أو حافلة مرت بنا ، فأنتم محبوبون محترمون في بني يزناسن فهنيئا لكم.

● وقد كان ما أخبرته بـه ، فوصلنا الـى احفير حيث تناولنا الشاي لدى قائدها المكي اليعقوبي الـذي بحث لنا عـن سيارة أجرة وصلنا بها الى ابركان.

ولما ودعته في باب منزله بعد الغروب بقليل ، قلت له أرجو ان تتناولوا أنتم وأسرتكم طعام الغذاء عندي غـدا، ففي الصباح سأذهب الـى «مولاي اليماني» ليحملكم في سيارته التي سـوف لا تبيت بدون اصـلاح وحوالي العاشرة صباحا، كان القاضي وأسرته في منزلي، وكنا ثلاثة في منزلي أنا ، وهو ، ومولاي اليماني وقضينا ساعات مليئة بالتعاليق على الحادثة بينما أسرة القاضي مع الوالدة والزوجة والاخوات يجلسن خلف المنزل ازاء أزهار الربيع وورود والفضاء واسع الآفاق ، فلقد كان منزل والدي رضي الله عنه على قطعة أرض بعيدة عن المدينة جنوبا بثلاث كيلومطرات ولا جار لنا، والربيع يغطي القطعة المسماة ،الامحال» وتشتمل على ثلاث هكتارا وعشرين آراء صارت الان من أهم احياء المدينة، ويبيـع قطعها ، فصار والـدي يعيش أخريات حياته في رفاهية أحسن الله عاقبتي كما أحسن عاقبة والدي رضي الله عنه.

فالسعد في طالع..

في عين الصفا أيضا قال لي المترجم رحمه الله هل جمعت بركة في هذا اليوم ! ام ان «سي حماد» أحتوى على كل شيء ؟

ومعنى هذا السؤال هل انتفعت شيئا ما ، هذا اليوم ؟ أم ان زميلك سي حماد أخذ كـل شيء ؟؟ وكان يعرف أن سي حماد... فقلت لـه : الامر كما تعلمون.. فأنشدني هذا البيت :

عش حمارا تعش سعيدا فالسعد في طالع البهائم

وكان الزميل المزكور من أخطر العدول في تلقي الشهادات، وكان مترجمنا

يعرف ذلك حق المعرفة ، اما أنا فلم أكن احتاط من جهته الا للمحافظة على الحقائق الضامنة للمصالح، ولا يهمني أبدا ما يسقط في يده من جمرات الاموال ، فتلك مسؤوليته الخاصة به أمام الله.

انتقال المترجم من ابركان.

مكث في ابركان من صيف سنة 1939 الى حوالي سنة 1944 فيما أذكر، وقبل احداث 11 يناير سنة 1944 بكامل اليقين ، وكان انتقاله الى القنيطرة وقد زرته هنالك.

وللحقيقة والتراريخ، فان مترجمنا كان محبوبا عند الناس جميعا ، وكانت خطبه العيدية المرتجلة تضاعف من حب الناس واكبارهم لعلمه ولقيمة أسرته.

وقد عرف عنه أنه كان يقول للمراقب في تحيته : أصبح الخير أو مساء الخير يا سي المراقب ، فلا يدعوه الا بالسي المراقب ، في حين ان الناس يدعونه بسيدي الحاكم الكبير.

وفعلا فقد سمعته يقول للمراقب أصبح الخير أو مساء الخير يا سي المراقب، وكم كان يسرني ان أسمعه يقول ذلك، لان نفسي كانت تثور لسماع : « سيدي الحاكم الكبير..

وخلال احتكاكي بالمراقبة عهد الكفاح الوطني قلدت مترجمنا في أسلوبه فكنت أقول للمراقبين «سي المراقب» فما سمعوا مني «سيدي الحاكم»

ثم انتقل المترجم من القنيطرة الى « واد زم » أو « ابن احمد » وفي عهد الاستقلال أسندت له ادارة التعليم الاصيل بطنجة ، وكنت قد زرت طنجة في هذا العهد من حياته واستدعاني لمنزله فأكرمني خير اكرام وتذكرنا شيئا ما من عهد ابركان الذي قال لي انه أسعد عهود قضائه ، وصرت بعد ذلك اتصل به من حين لآخر الى ان توفي رحمه الله في «مالقة» أثناء علاجه هنالك في شهر يوليوز سنة 1970م

وولد في سنة 1910م.. وهو خريج كلية القرويين وأبوه عبد الله أخو عبد الواحد والد سيدي علال الفاسي رحم الله الجميع ، وحمل الى المغرب حيث دفن جثمانه رضي الله عنه.

مع القاضي السيد العربي السعودي

عقب انتقال المرحوم السيد عبد المجيد الفاسي من قضاء ابركان الى قضاء القنيطرة ، خلفه النقيه السيد العربي السعودي ، قصير القامة نسبيا، ووجهه مستدير ، مائل الى السمن في تواضع بينه وبين الوضاعة حاجز رقيق ، تبدو عليه آيات على ضعف شخصيته ، تطبعه انطوائية كريم المائدة يحب المال حبا جما ، انه من أهالي فاس ، طرأ عليها من بادية اجبالة ، حتى تخرج من القرويين ، ويحفظ متن خليل ، ففقهه معه أينما حل وارتحل ، خفيف الحركة ، وفيه حدة سرعان ما تهدأ..

ويبدو لي انه كان فوق الاربعين بقليل ولد عام 1330 هـ وتوفي في 16 رجب الفرد الحرام 1365 هـ في ابركان ونقل الى فاس مسقط رأسه ودفن بغدان الغرباء قرب ضريح سيدي علي بن حرازهم خارج باب الفتوح ، وتولى غسله الحاج معي بفتح الميم وشد العين وكسرها الصفراوي ، حكى لي هذا الاخير، انه حينما كشطه للغسل، وجد وجهه أسود ، ولعله مات بعلة ما نسميه في ابركان «بالطعنة» ومن نتائج هذه العلة تسويد وجه من مات بها، وأسأل الله تبارك وتعالى أن يكون سواد وجهه اثر وفاته، نتيجة العلة المشار اليها ،

فعلى الرغم من استباحته «للهدايا» فلقد كان فقيها بمعنى الكلمة ، لينا في أخلاقه غالبا ، قريب الدمع في المواقف الالهية ، ينفعل للكلام الطيب ، ويظهر انه كان بعيد الموالاة لرجال الادارة الفرنسية ، فلم تظهر عليه اية منها.

فالبركانيون أقوى احساسا واشغف اطلاعا.

دراستي عليه

حل شهر رمضان الابرك ، فافتتح درسا في التفسير بالمسجد الكبير فكنت «سارده» ، كان أداؤه بسيطا ، قلما يخرج عن تفسير ظاهر الآيات ، مكتفيا بايضاحها ، فلا عمق، ولا نقول ، ولا مقارنة ، ولا توجيه ، فكان درسه رحمه الله ابرد من ثلج في خيارة على حد تعبير شيخنا العلامة المحقق المجاهد الثائر المعتز بنفسه وعلمه ايما اعتزاز سيدي مولاي ارشيد الدرقاوى أطال الله حياته وشفاه مما ألم به من مرض لا شك انه كان بما قاساه لله وللوطن من ألوان العذاب في مكاتب الاستنطاق وغيابات السجون فلله ما أكرمه من عالم نبيل، وأعني بهذا شيخنا : مولاي ارشيد

في حوادث سنة 1944

لقد تعين قاضيا في ابركان بتاريخ قريب مـن حوادث سنة 1944 ، ولعله حوالي ستة أشهر قبلها، وعندما عزمت على اقامـة مظاهرة في وجدة ، زرته في محكمته صباح يوم السبت خامس فبـراير 1944 وقلت لـه انني واثق بايمانك ومروءتك وكنـت صادقا، ولاجـل ذلك فاني أخبـرك بانني ذاهب الى وجدة أول مساء هذا اليوم ، وأرجـوك أن لا تخبر أحدا بذلك محافظة على السر، حتى أعلنه ، واذا سئلت ، فادع انني لم أخبرك ، ولا عندك أي خبر عني وها هو كناش الجيب، وقد حررت كل ما كان عندي من وثائق فتحللت من كل مسؤولية وسبـب زيارتي لـك هـو توديعك ، فاني لا أدري هل نلتقي بعد هذا ؟ أم لا؟ فادع الله معي ان اوفق الى أداء مهمتي، ولا يهمني ان أسقط شهيدا ، او أن أعيش بعد ذلك، فالحياة والمـوت سواء، والوطن أسير عند الاستعمار . بل ان الموت أحلى وأمتع من هذه الحياة الذليلة .

وللحقيقة والتريخ انه بكى وابكاني ، وقال : أعانك الله ، ووفقك، والى اللقاء ان شاء الله، وأشهد الله انه ما افشى سري لاحد فيما علمت.

وحينما أطلق سراحي وجدته لما يزل في ابركان.

وبعد أيام استدعاني الى منزله ، فهنأني وأكرمني ايما اكرام.

ثم قال لي عقب اقامتك مظاهرة في وجدة، استدعتني المراقبة وسألتني ما اذا كنت على علم مـن امرك ؟ فأنكرت كل الانكار ، ثـم سألتني ما اذا كنت كفؤا في عدالتك ؟ فأجبـت بأنك خير كفء لها ، ولـم تكتف المراقبة بمواجهته بهذه الاسئلة ، بل انها كتبت الي في ذلك فاضطررت لموافقتها ، وبناء على ذلـك فقد جاءني كتاب مـن وزارة العدل بالموافقة على عزلك ، نعم يقول القاضي المترجـم رحمه الله : أني تحدثت في شـأن عودتك الى خطتك مع المراقبة فقبلت مني ذلـك ، وارجوك ان توافق من جهتك ، وعلى اتمام الباقي، وسوف لا يناقشك أحد من المراقبة حول عقيدتك ، وأنا أضمن ذلك، فأجبته شاكرا له دعوته وكرمه وعواطفه الطيبـة وجهوده في سبيلي ، ثم قلت له لقد صممت العـزم على الجهاد في سبيل الله ولـن اتولى اي عمل يتعلق بالادارة الفرنسية الى ان أسقـط شهيدا لله وفي الله، أو يرد الله لنا استقلالنا ، سيما وان خطة العدالة سوف لا تنسجم مع الرسالة التي أنظر اليها بكل شوق وتقديس، مستهينا بكل ما عسى ان يعترضني من اهوال وآلام، بل حتى بالموت نفسه، فمثل هذه الرسالات لا تنـجح ولا تثمر الا اذا سما بها أصحابها عن أرضية الحياة الدنيا.

فما كان منه رحمه الله الا ان دعا لي بخير ، وكان آخر لقاء لي به حيث ابتعدت عنه حتى لا اتسبب لــه في متاعب مــع الادارة الاستعمارية ، على اني لما تحررت من السجن، بقيــت شهورا وأنا أتجول في ابركان وسواد الناس يفرون من مواجهتي ، فكيف تكون لي علاقة مع القاضي وهو مراقب أكثر من مراقبة سواد الناس ؟ وكيف يثبت والاهالي ، ومن قرابتي عمومة وخؤلة يفرون مني ؟

وشاء الله جلت قدرته ان أقوم بالاتصال مع تلك الطبقة التي اتصل بها الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه فتتسع آفاق العقيدة الاستقلالية في جميع دائرة بني يزناسن ، وأنشيء أول فرع موقت لحزب الاستقلال في تاريخ ابركان ، ويتملقني حتى الذين كانت لهــم علاقات «طيبة» مع رجال الحماية بل ان رجــال المراقبة كانوا يفرحون متــى انبسطــت معهم بعض الشيء أمنية منهم ان اقع في افخاخهم الدنيئة

● ولم يطل مترجمنا الا قليلا ، حتى توفاه الله ، قابله الله بعفوه وكرمه وسامحه في ذنوبه وأخطائه وسامحنــي الله ان كان في حقائق ما قلته عنه هنا ما يستوجب العقاب من الله.

= مع عدول المحكومة = =

● ان حديثي عــن شيخي المرحومين : عبد المجيــد الفاسي، والعربي السعودي القاضيين الهمني ان اترجم قليلا لمن عاشرتهم من عدول المحكمة الشرعية عندنا، سواء في ابركان أم في تافوغالت

(1)

السيد عبد الله بن عمرو بن قدور الوشكرادي، ان هذا العدل قد سبق لي أن ترجمت له بصفته رفيقي في معهد وجدة وفي ذلك كفاية .

(2)

السيد أحمد بن الحاج عمرو المنقوشي من «عين الصفا»..

وجدته قد عمر طويلا يقارب المائة سنة ، فقيه بفقه الشيخ خليل، لين الاخلاف ،حلو الدعابة ،لاذع النكتة ، ومن نكته 1) كانت لــي حجرة في تافوغالت أستريح فيها حيــث ان سكني في ابركان ، وكانت له ثانية عن يمين حجرتي ، سمعني ذات مرة أتلو كتاب الله العزيز ، فقال لي يا ولدي ان من يتلو كتاب الله العزيز لا يصلح لخطة العدالة فالعدول كلهم في جهنم ، قسما بالله حتى يريحك الله منها ، فقلت آمين ، وقد فعل الله...

2) .. كان «قابض المحكمة» لا يتخلف عن الحضور حتى في مرضه الذي ترتفع فيه درجة حرارة مرضه، وكان مترجمنا يكره القابض المشار اليه ، فقلت للمترجم : يا سيدي أحمد ان «القابض» مريض، فابتسم ابتسام سخرية تحطم الاعصاب ، وقال لي : سوف لا يموت ، وحتى اذا دفنوه يخرج من القبر حرصا على ممارسة مهنته !

3) كان رحمه الله لا يعلم شيئا عن احداث العالم، فلا يقرأ صحفا ، ولا يستمع الى اذاعة ، ولا يعرف استعمال الهاتف وذات صباح اتفقنا نحن الثلاثة أنا والعدل المرحوم السيد الطاهر بن اعبيد، والكاتب السيد محمد الحافي، اتفقنا على ان يتحدث لنا الكاتب عن أنواع العذاب التي قاساها في مكاتب الاستنطاق الاستعمارية حول تهمة أجنبية ، وهي التهمة التي كانت تلصق ببعض من أراد الاستعمار التنكيل بهم ، ثم نتجاذب نحن الثلاثة أخبار العالم ، وأثناء ذلك ، كان ينصت الينا وشفتاه تنفجران من حين لآخر عن شبه ابتسامة ساخرة ، ولم يلبث أن التفت الى الكاتب قائلا له : لقد فعل بك الفرنسيون ما أخبرتنا به من الوان العذاب ، ولما تزل تخوض في أحداث العالم، ولكن أين الحياء ؟ خير لك لو كنت تأكل «اللوبيا» وتصمت منطويا على نفسك، فأين أنت من مستوى التحدث عن أخبار العالم ؟ تتحدث عن واشنطون وموسكو وأنت في تافوغالت ! هل كنت هنالك ؟ كان يتابع تعليقه رحمه الله ونحن نكاد نجن ضحكا ، وكان جادا في تعليقه بكل تأكيد ، اذ انه رحمه الله ساذج في شؤون الدنيا ، ويعيش في أفق لا يتجاوز خطواته المتقاربة .

4) قال له بعض العدول : وقع لنا على هذه العريضة ضدا على القاضي ، فابتسم ساخرا وقال : أنا اوقع ضدا على القاضي ! وهو ينفق 18 فرنكا، وكان لها شأن لشراء الزعفران لطعامه ! من انا ؟ اذهبوا الى سبيلكم فلست ممن يتحدى الاقوياء ، عجيب لكم تتناولون الطعام المزعفر عند القاضي، وتتحدونه ! انها قلة الحياء والمروءة !

توفي رحمه الله حوالي سنة 1944، وكان لا يسهو عن صلواته، تاليا كتاب الله العزيز، بعيدا عن الفضول قانعا بادنى العيش وابسطه، لا يكاد الجالس اليه يمل من فكاهاته ونوادره ونكته متى انس به، فرحمة الله عليه ورضوانه آمين.

(3)

● السيد الطاهر بن اعبيد الخالدي ، تلقى دروسه في معهد وجدة ثم رحل الى القرويين واستقدمه منها المرحوم السيد العربي البوحميدي ،

وكان قاضيا بمحكمة تافوغالت قبـل ضمها الى محكمة ابركان، وزوجه من قريبة لـه ، وعينه عدلا معه. اتصلت به صدفة في عشاء كنا فيه نحن طلبة معهد وجدة ،ووزع علينا صاحب المنزل عشر فرنكات لكل واحد كالعادة عند استدعائنا، ولما تسلم القـدر، سلمه حالا الـى شيخنا المرحوم سيدي محمد النكادي الذي استدعى معنـا ! فلفتت نظري هـذه العزة والاريحية واحترام الشيوخ فتمنيت اذ ذاك ـ لو كانـت ارادتي واريحيتي في مستواه لأفعلَ ما فعل ، ولكن مرض تقبـل الصدقـات مـن غير ضرورة ، كان لما تزل به سلطة على ارادتي ، فكتمتها في نفسي حتـى وعيت فرفضتها ولما ازل دون العقد الثاني من عمري ، ولما أزل ولله المنة والشكر على ذلك ، وبعد أن التحقت بمحكمة تافوغالت اثر ضمها الى محكمة ابركان وجدته هنالك.

السيد الطاهر بن اعبيد قوي الايمان بالله لا يبالي بقـوة أي مخلوق ، فبالرغم من المناورات والمكائد ضده من القابض السيد حمـاد السغروشني مستعينا بالقائد الهبيل تارة وبمن له نفوذ تارة أخرى ، فانه كان ثابت الجاش ساخرا بكل مناورة ومكيده منتصرا فيهما على طول.

ومن مرة لأخرى ، كنت أسمعه يترنم بهذا البيت :

«من يعتصم بك يا خير الورى شرفا !»

«فالله حافظه من كل منتقم»

● ومن بصيرته النيرة انـه كلما جاء ولـده الطفل «سعيد» الـى مجلس معه، قال لي : ان لهذا الولد مستقبـلا، فكان مـا تفرسه فيـه ، فلقد انهى دراساته العليا برغم ما قاساه من آلام اليتم والفقر...

ومن آيات عزة نفس مترجمنا، انه كان يطـوي هو وأسرته ، ولا يلجأ لاحد ، ولا يشكو ، كل ذلك ووجهه يتلألأ نورا !

● كنت ذات مساء أحرر بعض الوثائق في فناء حجرتي بتافوغالت ، فوقف على العدل القابض السيد حماد السغروشني قائلا في تشف وسخرية، ان الطاهر بات الليل طاويا هـو وأسرته ، فكدت أتفجر ألما لحالة السيد الطاهر ،ولهذا التشفي الممقـوت، ، فتشاغلـت بعملي لكي يذهـب الى حال سبيله، وفعلا انصرف ، وكان له ذكاء قوي ! وليته كان له عقل ومروءة ، عفا الله عنه

ورميت بالوثائق التي كنت أحررها وذهبـت طارقا باب السيد الطاهر رحمه الله فلما خرج الي قلت لـه جئت اعتذر اليك عن عـدم تسليم عشرين

فرنكا ، ارسلها معي اليك فلان ، فابتسم رحمه الله قائلا : والله ما أنت ممن يخون الأمانة أو يتساهل فيها ، ولكنها هبة منك الي بهذا الاسلوب اللطيف ، فجزاك الله خيرا ، وقسما باله ما أخبرته بما قال لي »القابض» وبعد لحظات جاءني الى مجلسي قائلا : لقد أخبرت «أم سعد» بقصتك ، واقترحت على ان استدعيك لطعام العشاء حيث ستذبح دجاجة في ملكها الخاص، وهي تهنيك على اريحيتك

وكان رحمه الله يضطر لبيع كتبه في سبيل اطعام أولاده، ومنه اشتريت شراء سمحا «العروة الوثقى» بعشرين فرنكا وهي تكفي لنفقته يومين كاملين وكان ثمنها دون ذلك ، واختصارا للقول ، فمترجمنا كان يتصف بأخلاق اسلامية سامية توفي رحمه الله حوالي سنة 1944م بأحفير فعليه رضوان الله .

(4)

السيد حماد السغروشني أخبرني أنه تولى خطة العدالة وهو ابن 16 سنة في عهد عمه السيد محمد بن عبد الله الذي كان قاضيا بتافوغالت ، وكلاهما لم يدرسا علما، والدته يامنة اليوسفية الورطاسية ولذلك كان يدعوني : خالي مداعبة فقط لم يكن غفر الله له يتحرى لدينه ، فاللهم اختم حياته بخير آمين . (1)

(5)

السيد محمد بن بوعزة بن الجيلالي اليعقوبي من اولاد بنيعقوب كد فان ، وجدته اشيب يحفظ كتاب الله العزيز محافظا على تلاوته في الجماعة صبحا ومغربا في الجملة ، او يتلوه وحده ولا يسهو عن صلواته ولخطة عدالته واسع رحمة الله ، توفي رحمه الله حوالي 1945م

(6)

السيد محمد بن علي اليعقوبي : خالي لاب ، كان يحفظ كتاب الله في صغره ودراسته بسيطة ، وحج في أواخر عمره وتوفي حوالي سنة 1973 أو 1974 ، من حسن اخلاقه ابتعاده عن الغيبة والفضول ، ولعدالته واسع رحمة الله.

(7)

السيد محمد بن علي السغروشني طويل القامة، صبيح الوجه، كريم المائدة درس الشيخ خليل في «مازونة بالجزائر واجازته أكثر من فقهه ،

---

(1) توفي منذ سنوات قلائل بوجدة ودفن هنالك .

كان موطأ الاكناف ، لين الجانب ، نقي اللسان، ولعدالته واسع رحمة الله توفي كهلا بعد الاستقلال بقليل ولم يعقب ، وكانت وفاته بسبب حادث سيارته وهو يقودها ، وذلك حالما اقترب من فاس آتيا من ابركان وتوفي فوق سيارته ولعل مكان وفاته «مطماطة» أو قريبا منها.

(8)

السيد عبد القادر بن العالم صهر القاضي المرحوم السيد امحمد بن العالم ، مجاز من «مازونة» لا بأس بفقهه ، أخلاق من منبع أخلاق أولاد بن العالم ، يسر في معاملة الناس ، وذكاء وكرم ، ونكت وفكاهات ، معتدل في خطة العدالة، محافظ في وثائقه على مصالح الناس، فهو اتقى عدل عرفته بعد السيد الطاهر ابن عبيد توفي رحمه الله حوالي سنة 1976م فيما أظن

(9)

السيد احميدة بن حماد الرمضاني ضليع في فقه الشيخ خليل، مجاز بحق من شيوخ «مازونة» فما شئت من نكت وفكاهات وشجاعة أدبية في المنتهى، توفي فيما أظن بعد الاستقلال بقليل ولاخلاقه وعدالته واسع رحمة الله.

(10)

الفقيه الفرضي السيد عبد الرحمان الخالي النجاري طويل القامة أنيق، كريم، موثق بحق، وفقيه لا بأس به، أما الفرائض والمناسخات فهو يتقنها اتقانا محكما، يغضب سريعا ، ويرجع سريعا، اما نكته فمن نكت فرقته النجاجرة التي لا تجاري فهي مضرب المثل في ذلك، معتدل في خطته العدالة، وفي نيابة القضاء ، واشتهر بحق ـ بانجاز تحرير وثائقه لا ينام الا وقد فرغ منها ، الا ما كان غير تام العناصر الضرورية ، لما يزل حيا ختم الله له بالحسنى آمين (1)

(11)

الفقيه الخليلي السيد محمد بن البشير البكاوي

فقيه يفقه الشيخ خليل، وعلمه معه اينما وجدته وجدته، وقلما يرجع الى الشراح، مجاز بحق من «مازونة» تولى خطة العدالة ، فنيابة القاضي قبل الحماية أو بعدها بقليل.

---

1) توفي رحمه الله حوالي سنة 1963م ودفن بمقبرة وجدة

كان كثير المرح والفكاهة والتندر.

حينما التحقت بالمحكمة الشرعية بابركان سنة 1936 قيل له ان هذا «الطفل» اعلم منك ، فقال فأين الاطفال من العلم ؟ وكنت دون العقد الثالث بقليل ، يقول ذلك غير جاد ، فجاءني وقال لي يا لفقيه ، هل يحل للمسلم أكل لحم الخنزير ؟ فقلت له بداهة ؟ ان كان شيخا مثلك، فيحرم أكله، وان كان فتيا مثلي ، «فيجوز أكله» فقهقهة قهقهة عجيبة وهو يقول : اقسم بالله انه لفقيه ، فهكذا يكون الفقهاء اذكياء ما كان ليجيبني عن سؤالي بأية التحريم ، فهو يعرف سلفا اني أعرفها بالضرورة ، ولكن سخرت منه فسخر مني أكثر، وعاد ليسألني مرة أخرى : اذا عجز الزوج عن الانفاق ، فما حكم الله ؟ فأجبته = بداهة ان العرب في جاهليتهم يقولون انفق ، أو طلق، فضحك ضحكة مرتفعة وقال : انه يعرف حتى احكام الجاهلية ، ولو كنت عاقلا = يقول عن نفسه = لما اختبرته ، فالقاضي ابن العالم لا يخادع ، فما أتى به الى هنا ،الا لانه فقيه. حدث ان سرق منزل ابنته ، فأخبر العدول بذلك فقالوا له لا تهتم بذلك ، ان فقيهنا الصغير ساحر عجيب ، فهو يمزق استار المغيبات ، فيخبرك عمن سرق وما سرق لابنتك ، فهيا اليه، واقترح على العدول قبل ان يصل الى ، ان اشتغل في الظاهر باصلاح بعض نعالهم ، واصلاح بعض آلات الشاي ، فسأل عني فقيل له : انه في الحجرة الفلانية ، فلما رآني في تلك الحال ، اصابه وجوم، ثم قال : هذا شيء عجيب ، شاب فقيه ، «وقزدار» وطراف ، وساحر ، وشواف، لقد اقترب يوم القيامة ! اشياء ما عهدنا هالا في العلماء ولا في المحاكم الشرعية، كل هذا وأنا متشاغل عنه ، والعدول يتعاقبون على ، «يطالبونني» بانجاز الاصلاح ، ثم التفت اليه قائلا : ماذا وراءك يا شيخ ، لعلك لم تأت لاصلاح ما عون أو نعلين ، فيظهر لي انك اصبت بمصيبة في منزلك، الم تسرق بنتك بالامس ؟ ، وكان العدل السيد عبد الله أخبرني بالقصة بكاملها. فتنهد وزفر زفرة عميقة وهو يقول : لا.. لا.. لا.. ان هذه المحكمة أصبحت خطيرة بهذا الرجل الغريب، ثم فارقني الى حيث مجلس العدول ، فأسروا اليه : انه فوق ذلك ، جاسوس القاضي، فهو يطلع على كل شيء ! ويخبر القاضي بكل شيء ! فرجع الي قائلا : هل تسمح بأن تحدثني عن السرقة التي أشرت اليها ؟ وأنت على حق ؟ فقلت له : ايت «بأوراق اللعب» مع السكر والشاي والنعناع والكاكاو عاجلا ، فأتى بالجميع ، وهذا هو الهدف من هذه المناورة كلها ، ليلعب العدول بالاوراق في وقت الفراغ ويشربوا الشاي مع الكاكاو.

تناولت «أوراق اللعب» فوضعتها على كتفيه الايمن، ثم الايسر، وقلت له ضع أصبعك على الاوراق ، وهات فرنكا واحدا ، ففعل ، فصرت أتحدث اليه = بدقة = عن كل ما وقع ، بظروفه الخاصة ولكـن بلغة استنطاق الاوراق وأنا بهـا خبير ، وكـان العدول كلهم في الـمجلس ، حيث أقفلـت باب المحكمة ، فاندهش للغة استنطاق الاوراق مـن جهة «وللحقائق» مـن جهة ثانية، فقال مالك ولخطة العدالـة ؟ فمهنتـك رابحة أكثـر من خطة العدالة. فأجبته وأنا هازل في باطني ، ما جئت هنا الا نزولا عند رغبة القاضي الذي قال لي : لقد كثر التزوير والرشوة في هـذه المحكمة فأعني بفقهك ومهنتك لكشف الغيب ، فنظر الى العدول قائلا : أنصحكم لوجـه الله ان تغادروا هذه المحكمة، فاذا روقب التزوير والرشوة فماذا نفعل هنا ؟ ان هذا الولد خطير جدا ، فقلت له متظاهرا بالجدية : اسكت والا أمرت صاحبي ان يقذف بـك الى جبل «قاف» أو جبال «الواق واق» فقـال هاي.. هاي.. لا تسمع منه الا العجائب، اسمعتموه يقول ان له صاحبا ؟ من هو هذا الصاحب ؟ يا الفقيه ، هل كنت تدرس العلم ؟ ففاس أهل له ، ولكن ما شأن فاس وعالم السحر والجنون ؟ فأجبته بلغة استنطاق أوراق اللعب، فخـرج فارا بجلده، وبمثل هذه المسليات، كنا نعيش غالبا مـع بعضنا بعضا ، ويامـا أكثرها معه ! لولا خوف الا طالة، ومع ذلك فاروى عنه ما يأتي..

... زارني ذاتمرة في منزلي مع طفل لاحـدى بناته، فقلت له ادخل ، فقال لا ، جئتك لتقرضني ريالا واحدا ، قلت ادخل وتناول طعاما ما ، ثم أعطيك الريال هبة واكراما لعلمك ، فقال تبارك الله ، اذن ، ادخل فقدمت له خبزا وزبدة وشايا، ونفحته الريال، فدعا وودع..

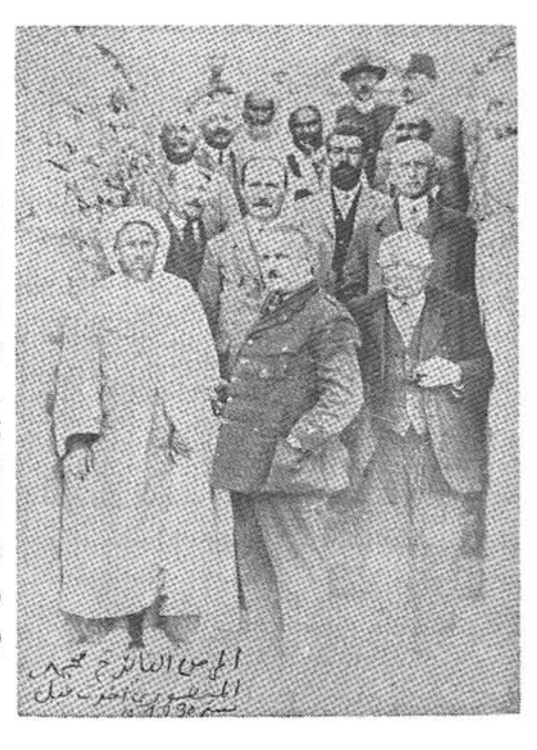
وفي الغد صباحا وكان يوم الثلاثاء ، قال لي كم ثمن ذلك الطعام لاسلمه اليك ! فقلت لماذا ؟فقال انه تافه بالنسبة لكرامتي كشريف وعالم وشيخ ، وأنا الذي كنت لا أستدعي الا للمآدب الفاخرة يوم كنت نائبا عاما في بني يزناسن عن قاضي وجدة السيد الحاج العربي الحسيني اتسخـر مني بالخبز والزبدة والشاي.. هاي هاي.. قل كم ثمن طعامك ؟ فانفجرنا جميعا بالضحك، وقلت له شكرا لك على هذه الفكاهة المرحة، وياما احب الفكاهات الى نفسي !

من حكاياته الممتعة

روي لي أنه لما كان نائبا قضائيا عاما ، في بني يزناسن ، ترأس وفدا من بني عمومته ليخطب بنتا للسيد الرحموني من شرفـاء بني منقوش المجاورين لشرفاء أولاد سيدي رمضان ، لاحد شباب أبناء عمومته ، والسيد الرحموني كـان قائدا وعزل، وهـو معدود في فقهاء بني يزناسـن ، وبطنه

يدعى بأولاد ملوك بشد اللام ، وقد اشتهروا حتى فقرأوهم بعزة متطرفة ، والقائد الرحموني في رأس لائحــة الاعتزاز بالنفس ، فعــلاوة علي شرفه ، وسابق؛ قيادته ، وعلمه ، فانه مثال للكرم والشجاعة ، ولتفهم النكتة ، أو الفكاهة. في هذه الحكاية ، أنبــه الى ان «أولاد البكاي» الذيــن منهم الوفد الخطابي كانــوا يعيرون بـ « صباغين الخيــوط » ذلــك ان بعض نسائهم يشتغلن بصنع الظفائــر وصبغها فيبعنهــا ، فتعاب المــرأة منهم بانها «صباغة الخيوط».

قال الراوي المترجم : اتجهت مع الوفد الى منزل القائد الرحموني ومعنا هدية : ثور ، وجذوع من صأن، وكيس من سكر وأكياس من الطحين ،ومواد كثيرة تابعة لما ذكر(1) « فرحب بنا القائد الرحموني وبعد تناول الطعام قال : الشرفــاء واش «أعني» بكم ؟ بفتح الالــف وجزم العين وفتــح النون ، أي ماذا تقصدون مــن زيارتكم ؟ وهو طبعا يعــرف القصد ، والقاعــدة أن تأتي مباردة الخطابة منهم.



القايــد الحاج محمــد المنصوري رحمــه الله الذي وجدته قايد أبركان ولم يمت الا بعد الاستقلال وهو حفيد الحــاج محمــد بن البشيــر امسعود الشهير وكان مهابا قويــا جديــا يحمــل بيــن جوانحه محبة لوطنه وولاء لعرشه وعــزل في حــوادث غشــت 1953 ، ورد لـــه اعتبــاره بأكثر في سنــة 1956 ، حيث عيــن رئيس دائرة ابركان فخلفتــه عليها بعد ستة شهور.

---

1) قارن هذا مع اعراف اليوم !؟

قال الراوي المترجم : فحمدت الله واثنيت عليه وصليت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قلت : يا سيدي القائد الرحموني ان شرفاء آل سيدي علي البكاي ، وفدوا عليكم طالبين بواسطتكم يد كريمتكم ذات الحسن والنسب والحسب « للقمر المنير ووو.... الخ » مألوف فقرات الخطابة في ذلك العهد.

فقال القائد الرحموني : مرحبا بالشرفاء ، ولكن كريمتي بنت القائد الرحموني ؟ لها «هز» «ودز» «ونفخ» «وطبخ» وليست بكاوية صباغة الخيطان ! اعطوني خمسمائة ريال وخذوها في ازارها ، أي خذوها في ثيابها التي عليها...

قال الراوي فابتلعنا عياره غير المقصود بقوله : وليست بكاوية صباغة الخيطان « وسلمنا اليه ما طلبه من النقود الى آخر ريال فضي ، فقال : لم تتركوا لي الآن ما أقوله ، فالبنت زوجتكم من الآن «قال الراوي : وبعد مدة توفيت الخطيبة ، فجئنا لتعزيته مع مثل هدايا الخطوبة ، فاستقبلنا قائلا : الشرفاء يقول الله تبارك وتعالى «وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم» والموت قبل المس كالطلاق .

قال الراوي فقلنا له ما لنصف الصداق جئنا، ولكن لتعزيتكم في كريمتكم وزوجتنا في نفس الوقت ، فأجاب القائد بقوله قال الله تعالى « الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقد النكاح ، وان تعفو أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير» فجزاكم الله خيرا ، قلت : هكذا كانت مكانة المرأة في العهد الذي يغيبونه بالجهل والتقاليد الظالمة للمرأة ، فأين المرأة اليوم من هذه المكانة السامية التي كانت لها في « عهد الجهل والظلم والرجعية كما يزعمون » ؟

فالمرأة في ذلك العهد ، كان يتوسط لخطابتها علية القوم، وسادتهم، ويغمرون منزل وليها باهدايا التي هي الان أشبه بالخرافات ، ويترفعون عن المشاطرة في صداقها، في احترام عظيم لوليها وأقاربها ، بينما خطباء العهد المعايش في عجرفة، وأنانية، وتانث، وبخل، وعدم الشعور بأية قيمة لولي الخطيبة ، فالخطيب ثم الزوج يعد نفسه متنازلا عن «عظمته» بالتزوج من الخطيبة، وعلى وليها ان يخدمه خدمة الرق لسيده ، فهو مخير بين الاكل والشرب والجلوس بمنزل الولي ، وبين الرفض والنظر الى الطعام والشرب بأي أسلوب أراد له هواه، حتى ليشعر أقارب الخطيبة انهم ازاء فرعون لا يراجع !

ولماذا ؟ لأن «سيادته» لم يتقدم الى الخطبة الرسمية حتى تطارحت

الخطيبة على اقدامه ، ولانه يعلم حق العلم ان الولي يقاسي من سوء أخلاق قريبته مـا حمل بعضهم على الانتحار، فخطيبنا استمد «فرعونيته» من هذا الوضع الذي يئن تحـت عبئه الاولياء والفتيـات ، فيرضي كـل نزواته الفرعونية الرخيصة متشفيا في الولي ممن كان لا يطمع في مصاهرته لولا هذا الوضع الذي وصل الى آخر دركة من دركات الانحطاط.

كل ذلك والولي والاقرباء والخطيبة ثم الزوجة ، يتجرعون أنواع الآلام والاهانات ، و«فرعونينـا» يتهادى ويضحك مـلء شدقيه ومـا اشرت اليه، هو أدنى ما يجب ان يقال ، والا فقـد حدثتني غيـر فتاة،بأنها تنفق على خطيبها المشكوك في نيته طوال حسن نيتها في جديته ، وقد تيأس منه ، الى غيره ، وقد يكون الغير أكثر من واحد.

فاناشدك الله أيتهـا الفتاة المعاصرة ، هـل هذه الاساليـب الضرورية اليوم للحصول على الزوج ، تعد في نظرك تعصرا ؟ أو تقدمية ؟ أو تطورا ؟ أو ما يشبه هاتـه الكلمات التي لا تحمل أي شيء مـن شأنه ان يشهد لك بأدنى شخصية قريبة من الفتاة التي كانت تعيش فيما سبق عهدك من العهود القريبة .

أيتها الفتاة المغربية الاسلامية ، انـه ان طال هـذا الوضع القاسي للحصول على الزوج، فان على الكرامة المغربية العربية الاسلامية السلام.

وقسما لا اثم فيه ، انك سوف لا تجدين لك شخصية امرأة أو فتاة محتفظة بكرامة أقاربك ، الا حينما ترجعين الـى تعاليم الاسلام التي أنقذت جدتك المسلمة الاولى من «الوأد» والمنع من الارث ، والعضل ، وممارسة كل مـا يمارسه الرجل ، الا فيما تقعد به طبيعتك الانثوية عنـه ، ورسالتك في تربية الاجيال.

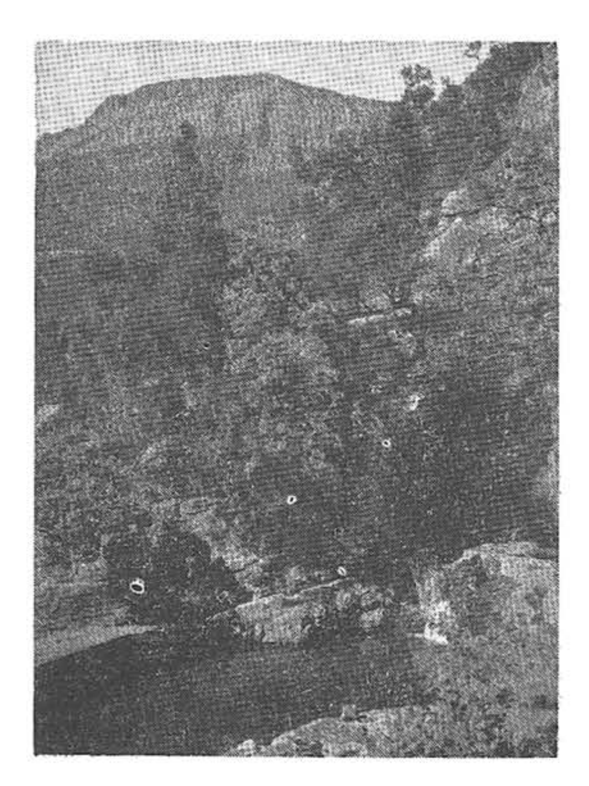
أما اذا ما بقيت على هذا الخط الخطير ، فلن تزدادي الا انهيارا ولن يزداد وليك واقاربك الا آلاما قاسية ، واقسى ، وستجربين أنت «وفرعونك»، كما جرب وليك وأقرباؤك من ذل واهانة ما رزقتما ولو بنتا واحدة نعم مع هذا الوضع القاسي فلايزال بعض الخطباء يحتفظون برواسب مروءة آبائهم، فليكن الرصيد سلوة ومساعدة لانطلاقك نحو امرأة مغربية عربية اسلامية ، تمارسين كرامتك في شتى مراحل الحياة ، فحسبك أن تستعيدي ما كان لجدتك بل لأمك من كرامة واحترام، ثـم ازهدي في جميع مـا يشجعك عليه الرجل لاستغلالـك بما يتظاهر بـه من المطالبة الملحة بالحقـوق ، فالرجل المعاصر ، صار أكثر قسوة ومخادعة ومكرا بك، فهو بعينك بخطاباته ومقالاته

وتأليفك لينزل بك الى الصفر تحت آخر دركة، ليتمتع بكل ما لم يكن يحلم به حتى في الجاهلية.

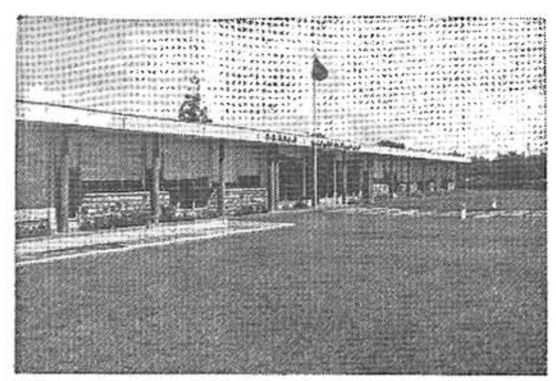
أفلا تبصرين ؟ أفلا تتذكرين ؟ أفلا تتوبين ؟

ويحك انـه أخذ يحملك علـى وأد اولادك بالاجهـاض ليتمتـع أكثر من شبابك.

اللهم، فاشهد، فاني قد بلغت ، ولست أقصد مـن تبليغي الا الله وحده لا شريك له، وليكن ما أراد الله ، وما أحلى النكال والاستشهاد في سبيل الدفاع الاسمى المحق ، عن أختي المغربية الاسلامية ، وحسبي الله ونعم الوكيل.



● أحد مناظر جبل بني يزناسن قرب تافوغالت وعن جنوب تافوغالت حوالي ستة أميال توجد جماعة رسلان الطيبة التي تلقيت فيها القرآن الكريم للاجادة عن شيخنا المرحوم بالله سيدي عبد السلام البقالي ما بين سنة 1928 وسنة 1929م...



مكاتب الادارة الفلاحية بمدينة ابركان

خـاتـمـة

كانت دراستي على المرحوم السيد العربي السعودي المترجم من قبل . آخر دراسة لي، ولم تكن دراستي على المرحـوم السيد عبد المجيد الفاسي وعلى السيد العربي السعودي الا مـن باب ما تقتضيـه العادة من الأخذ عن مختلف العلماء مهما تهيـأت الفرصة لذلك ولـو درسا واحدا تبركا بسنة توسيع دائرة الشيوخ المأخوذ عنهـم والاطلاع على أساليـب متنوعة الاداء والتبليغ علاوة على انه لم يكن من بين العدول الزملاء من كانت له كفاءة «للسرد» على القاضين المذكورين وما تقتضيه مهمة «السـارد» من ان يكون له مستوى يقارب بـه مستوى العلماء على الاقل فالسارد في دروس الحديث والتفسير كان له في عهدنا شأن وأي شأن ، فلا يتصدى «للسرد» الا من «حصـل» ، وله ذاكرة قوية وادراك سريـع وأخلاق تتفق وهذه المجالس العلمية العالية.

فمهمته تتبع الدرس بكامل العناية والاهتمام لتلقين المدرس ما عسر عليه تذكره ، وتقويم ما اخطأ فيه غلطا او سهوا، وان يكون التلقين على مستوى سام من اللياقة المناسبة للعالم المدرس فالعالم المدرس غيور على علمه ومكانته ، وخصوصا في مجالس علمه ، فعلى السارد أن يكون متحليا بالادراك السريع والتلقين المؤدب والاسئلة المناسبة لمستوى الدرس والعالم .

وبقدر ما تسمو كفاءة «السارد» علما وأخلاقا ، بقدر ما ينمو اكباره في صدر شيخه.

وذلك ما حدا بالمرحوم السيد عبد المجيـد الفاسي الى انيقو ل لي انك في مستو ىالعلماء ولا ينقصـك الا ان تكون لك شهادة عالمية رسمية، وأنا مستعد لمساعدتك على الحصول عليها بتقديمك الـى الامتحانات التي تجري

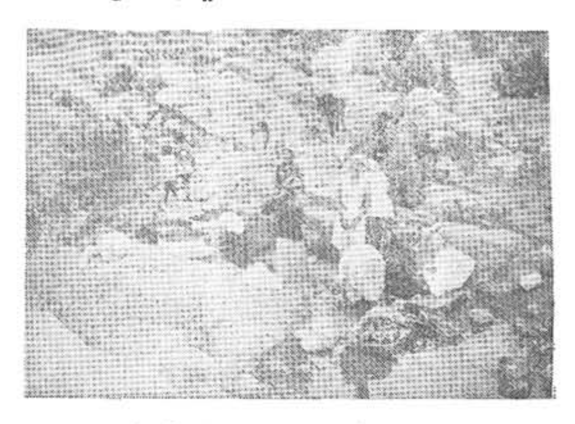
بالقصر الملكي من مرة الى أخرى ، وحمله من جهة أخرى على احترامي أولا، ومحبتي ثانيا أكثر مـن أي عدل مـن عدوله، بـل انه كان لا يقارن بي أي عدل من عدوله.

وقد شاء الله جلت حكمته وتعددت نعمه ان يشرفني باجازته لي عقب الاستقلال ببضع سنوات .

الربـاط : وتـم تحريره في صباح الثلاثـاء 19 شعبـان عام 1398 هـ الموافق 25 يوليوز 1978 م

قدور بن علي بن البشير بن علي بن امحمد
الورطاسي الحسني : متعه الله برضاء آمين

«عين وادي ورطاس»



فتيات من بنات عمومتي يغسلن ثيابهن وثياب الأسرة

هنا كان للحيـاة في باكر الصبـا مجال لحفظ الوحي في منتهى النبل
سلوك على هـدى الحنيفة ـ رائع وخلف كريم لا يضل عـن السبل
ولهو بريء سائـغ متجـانفـا عن الاثم في الاسفار دوما وفي الحل
فلا عيـب الا ما تـرى من فضائل تضوع كضوع الزهر في الشعب والتل
فيالـك مـن عزريـج مـبـارك ويا لك من عيش سليـم من الذل
مضى مثل غفوة الى غير رجعة كأن لم يكن يوما يسير مع الظل !

الخـاتمـة :

أســـر الـوادي

● في كتابي « ذكريات الدراسة في فاس » الذي توجد أربع نسخ منه في الخزانة العامة بالرباط ازاء رقم : 7772 وتاريخ واحد وعشرين يونيه سنة 1977م

في الكتاب المذكور يجد القارىء في أول صفحاته اشارة الى أن والدي رضي الله عنه روي لي : أن سكان وادي ورطاس الحاليين خلفوا سكانا ارتحلوا عنه حيث لا يعلم ايـن استقر بهم المقام ولا الـى اي قبيلـة ينتسبون في شرق المغرب.

وكم تأسفت على انني لم أستطع ان أعرف عن حياتهم ونسبهم ومصيرهم شيئا

والان ـ وأنا أكتب عن عهود تعلمي للقرآن الكريم على قراء الوادي ،فلماذا لا أسجل الاسر والبيوتات التي وجدتها تعمر هذا الوادي الكريم ؟ سيما وقد تخلى سكانه عن استيطانه ولم يبق فيه الا بضع عائلات قليلة جدا وأخذ مواطنون من جوار الوادي القريبين والبعيدين يستوطنونه.

والبيوتات التي عايشتها تنتسب الى سيدي عبد المومن « صاحب الضريح المقبب قرب بحيرة » «ولوت» بفتح الواو وشد اللام وضمها مع سكون التاء وهي جنوب ابركان بقرابة ثلاثة كيلومترات ، والتي أقول فيها : أين ولاوت من مسارح طرفي ، وهي خرسي كم من معالم تخفى «أنظر القصيدة بتمامها في ديواني : «الحدائق» وبالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 7772 وتاريخ.. 21 يونيه سنة 1977م..

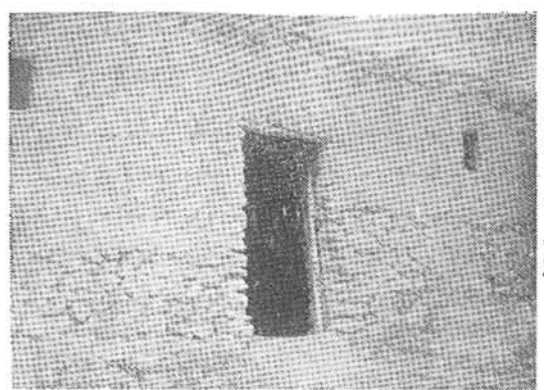
ومن يدري ان يتكاثر على الوادي سكان من غير أهله ـ وقد شرعوا في ذلك فعلا ـ وتزين لهم أهواؤهم الانتساب الى «سيدي المومن» وينتحلون لانفسهم انهم ورطاسيون ؟

فالحياة ماتزال في امتداد ، وتوالي القرون من شأنه تزييف الحقائق التاريخية اذا ما لم يقم التاريخ برسالته بامانة واخلاص.

واذا كانت مدينة فاس في هذا العهد : «1398هـ 1978م» أخذت تودع سكانها الاصلاء زرافات ووحدانا، وتستقبل مواطنين من أقاليم المملكة ، ولما يزل كثيرون من أهلها يستوطنوها ، فماذا يكون حال وادي ورطاس ولم تبق فيه الا أسر ربما لا تصل الى أكثر من خمسة

والذي يهم التاريخ فيما أرى هو تسجيل بيوتات مكان أو مدينة وصور من حياتهم لتتعرف الأجيال المقبلة على حلقات حياة الجماعات البشرية بما فيها من حضارة وثقافة وتقاليد للاقتباس من حسنات الجماعات البشرية البائدة وتجنب عثراتها ، أو مثالبها لتدعيم حاضرها ومستقبلها بعبر الغابرين، وهذه هي أهداف رسالة التاريخ بين الفصائل البشرية.

ولقد تحمل جيلنا اتعابا لا تدخل تحت الحصر أيام الاستعمار الفرنسي «1907 ـ 1956»م بسبب الامر الذي يسر على فقهاء الاستعمار ان يزعموا انه لا يوجد في المغرب الاقصى شعب ذو عناصر بني عليها كيانه، وانما هي قبائل لا يربطها أي عنصر ذاتي من العناصر الذاتية التي تتميز بها الشعوب



الكتاب القرآني الذي دخلته لحفظ القرآن الكريم حتى اجدته فيه ولله الحمد والشكر فهو ملاصق للمسجد الكبير بوادي ورطاس في وسط السكان.

هنا اشرق القرآن بين جوانحي يباركني القرآن في العل والمنهل
فأروي غليلا من معين مخلد دليل مدى الحياة في الحل والرحل
فلا عز الا أن أعيش محصنا بعروته الوثقى فأنجو من الهول
وقد كان لي حقا سلاحا مروعا اذود به الضلال في الوعر والسهل
فمن لم يكن من أهله ضل هديه وتاهت به الأهواء في الحر والظل

عن غيرها وانه بناء على ذلك ، فالمغاربة عبارة عن همل ، بدائيين متوحشين تقوم حياتهم على السلب والنهب وتدانق السلاح تعانقا مستمرا كأنهم فصائل حيوانية ضارية، وهم في حاجة ضرورية ملحة الى «رسول الانسانية» : الاستعمار ، للأخذ بيدهم وتمدينهم حتى يمكن لهم اللحاق بعالم الانسان المتمدن

وفيما يلي ترجمة أسر الوادي باختصار، ففي العدوة الغربية

1) الشيخ المرحوم سيدي قدور «امكزو» بفتح الاول والثاني وسكون الثالث « المثلث النقط وضم الاخير مع واو اللين وله ولدان : علي ، ومحمد وكلاهما كانا يحفظان القرآن الكريم نسبيا حسبما أذكر ، اما «علي» فأذكره جيدا وكان مرحا ذا نكتة ، خفيف الظل ، واما الثاني «محمد» فأذكر وفاته وشيئا ما من صفته اما الشيخ فقد عمر أكثر من قرن بكثير ، فهو قصير القامة حلو الحديث قنوع ومع تقدم سنه كان يمشي على رجليه الى حين وفاته وكفاه أن يتوجه الى ابركان راجلا وقد تجاوز القرن .

أذكر جيدا انه مر على باب منزلنـا ووالدي رضي الله عنـه يحلق شعر رأسي والدماء تسيل من حبوب كانت في رأسي ، فقال له : ياسيدي علي ، لم تعذب هذا الولد ؟ فان أطعمتني من طحين في حليب «أشرت عليك» بالدواء فاطعمه ذلـك حتى شبع ، وقال : « امـزج القطران باصفر البيض وادهن به رأسه مرتين او ثلاثا عقب الحلـق يشفيه الله تبارك وتعالـى فجرب والدي ووفق الله.

اذكر جيدا انني كنت في دكان والدي رضي الله عنه الواقع بزنقة زكزل ، وفي ملك اليهودي «ياهو» الصبان، وكان صباح يوم الثلاثاء فدخل علينا : أنـا... وابي، ومعنا المرحوم السيد الحاج أحمد اليعقوبي فقال هذا للشيخ كيف حالك يا سيدي قدور ؟ فقال هذا : انها حالة المساكين فقال له السيد الحاج أحمد « ليس المسكين هو الذي لا طاقة له، انما المسكين من له طاقة ولا يجور » ومقصد المرحوم السيد الحـاج أحمد واضح ، ليس في حاجة الى شرح أو تعليق فرحم الله الجميع.

ومن أولاد «الشيخ» «فاطنة» والدة شيخنا سيدي علي بـن محمد بن طالب الطاهري، ومن ذرية ولده «علي» حماد البناء

وكان منزل الشيخ ، هو آخر منازل العدوة الغربية جنوبا، وبعد ومنزله ، اطلال دار السيد قـادة ، وبعد هذه شعبـة حجرية تمتد من «امعروفا» 2 الى الوادي..

2(وعن شمال الشيخ : الفقيه المرحوم السيد أحمد بن مسعود الضرير المجيد لكتاب الله العزيز الذي يتلوه جهارا ءاناء الليل وأطراف النهار ، وزوجته رحمة بنت محمد بن الطيب العمراوي .

ورحمة تعد أسرتنا أخوالا لها ، وأولاده الفقيه الحاج محمد وأحمد والبشير وحلومة ويامنة .

3) وعن يساره السيد عمرو بن سالم الطويل ، لطيف المعشر كريم المائدة على فقره وزوجته رابحة بنت بورارش «الوالي » شريفة النسب وياما أطيبها وأكرمها وما ألطفها من امـرأة ، ومن أولادهـا : الحسن الاستقلالي الصميم الذي لايعرف للخطوب ظلا .

4) وعن يسار السيد عمر بن سالم البكاي ابن أخيه وزوجته الصافية بنت السيد عمرو بن سالم المذكور .

5) وأسفل المترجم الثاني الفقيه السيد محمد بن رابح ابن عم والدي وزوجه عائشة وأولاده محمد وأحمد والحسين وعبد السلام وغيرهم .

6) وأسفل السيد محمد بن رابح الفقيه السيد قدور بن محمد بن قدور ابن علي وزوجه فاطمة ابنت عمه .

7) ومعه في مراح واحد الفقيـه السيد التهامي شقيقه وزوجـه رحمة البـوبعلاويـة

8) وأسفلهما السيد محمد بـن علي مـن أبناء عمومتي وزوجـه فاطنة الفكيكية ومن اولاده مامة وفاطمة والطيب والميلود.

ومعه سكنى والدي وقد تقدمت ترجمته

وآخر هذه المنازل : منـزل جدتي لاب للا حليمة رحمها الله ثم حديقتنا ذات الاشجار التينية واللوز، والهندية أي الزعبول التي تصل بالوادي

9) وفي سفح منحدر المنازل المذكورة وعلى مقربة من «العين» العمومية المرحوم السيد لحسن المسعودي وقد ادركته وهو يقترب من القرن ، وقيل لي : انه احتفظ بأسنانه كأنها مـن عاج، أو فضة، وزوجه «فاطنة» العربية من عرب «تريفه»



ومن اولاده الفقيه السيد المصطفى وآمنة زوجة السيد البشير الطاهري والد المقاوم **السيد أحمد زوج أختي** الصغرى «الصافية» ثم ابنته «الزهراء» زوجة السيد الطيب بن عمرو بـن يوسف اليوسفي وكـان رحمه الله لطيفا طيب المعشر نظيف الثياب باستمرار.

10) الفقيه السيد البشير بن مسعود، كان من اهل الخير والصلاح ، يتلو كتاب الله باستمرار حـلا وترحالا وزوجه «فاطنـة» بنت عمرو الوكوتية ومن أبنائه : محمد واحمد ومنانة وكنا نطلق عليها «منانة الزمانية» فانها ـ برغم صغر سنها كانت تلبس كما يلبس النساء !

خريطة تقريبية لسكان عدوتي وادي ورطاس

قطعة جبل من سلسلة جبال الريف

البحر الابيض

السعيدية

وادي ملوية

مدينة ابركان

وادي بني وكلان

طريق ابركان

العدوة الغربية لوادي ورطاس

في هذه العدوة منزل
الوالد الذي بصرت
فيه نور الوجود

وادي ورطاس

المسجد الكبير
الكتاب القرآني

عين ورطاس

قرية تحلواتت
او ورطاس التحتاني

العدوة الشرقية لوادي ورطاس

11) وعن شمال السيد البشير المذكور، الفقيه التقي الصالح، سيدي المختار الحاجي من أولاد الحاج الساكنين بقرية ورطاس السفلى : «تحلوانب»، وجدته شيخا كبيرا واصيب بالشلل وتوفي قبل سنة 1930 بقليل ولعله بلغ المائة من عمره هكذا كان يبدو لي ومازلت كذلك، ومعه ولده الفقيه السيد بولنوار وقد توفي كهلا حوالي سنة 1945 أو 1946 في ظن لا باس به وولده عبد المومن الشهير «بعبد ربه»...

12) والى شماله السيد محمد بن مسعود المسعودي الذي تزوج بالايم السيدة آمنة والدة السيد أحمد بن البشير زوج شقيقتي الصافية.

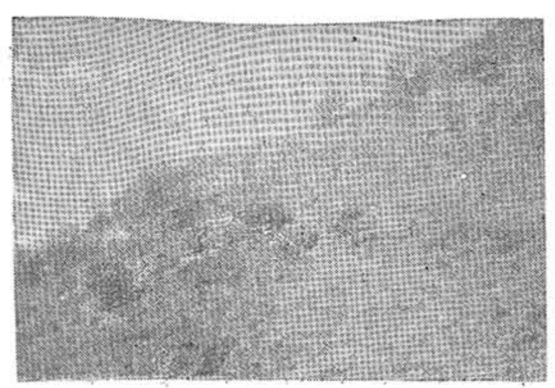
13) وبين سكن : 12 ، وسكن : 11، سكن السيد أحمد بن عبد المومن المسعودي رحمه الله



● بين وادي سكان ورطاس : العليا .. والسفلى 1) المصور عن اليمين برزال عبد القادر 2) في الوسط المؤلف 3) والى يمينه امجيدو

ازا ءهذا المكان كان هنالك «ما جل» لسقي حذائق آل ورطاس فلكم كنت أسبح فيه عهد طفولتي مع رفاق في الكتاب القرآني تجمعنا الاخلاق الفاضلة التي بذرها فينا القرآن الكريم بصفة تلقائية ، ولما كان يزودنا الآباء وشيوخنا من حسن الخلق والسلوك. فجزاهم الله خيرا....

هنا كان ـ يوما ـ للطفولة مسرح ... به عالم الفؤاد يزهو ويطرب
فأصغى الى لحن الطبيعة ساحرا ... الى موكب النسيم يحلو ، ويعذب
وسرب من الاطيار يشدو كانه ... سمفونية بين الأبيرا تطرب
وبين ضفاف النهر زهر مؤرج ... الى البسمات الغر والحر يطرب



● في الجانب الغربي لوادي ورداس العليا وفي تلك الدور التي تبدو بابها ولدت حوالي عام 1912م.

هنا أبصرت عيني الوجود وأشرقت حياة ، وبين الوالدين أنعم
تهدهدني الأم الحنون ووالدي يهذيب الحياة دائما ويكرم
فما شئت من فن الرأفة منهما وما شئت من خلق به انقوم
الى ان غدوا لله بين رضاهم وها انذا من بعدهم أتألم
الى الله أشكو عزلة مستعرة وأشكو جفاء لم يكن يتوهم
فكم كنت قبل اليوم أزهو بقربهم وها انذا من موتهم اتذهم!
فمن لي بوالدي اقبل كفه ومن لي بأمي في المرائر ترحم
مضوا فبدوا كالطيف في سنة الكرى كأن لم اكن يوما بهم أترنم !

14) والى شمال سكن 12، سكن المرحوم بالله السيد محمد بن محمد بن قدور بن «علي» من أبناء عمومتي وزوجه عائشة ابنت السيد أحمد بن قدور بن «علي» من أبناء عمومتي رضي الله عن الجميع
واولاده ، محمد ، وحماد ، وأحمد ، وقدور

وبرقم 14، ينتهي سكان نصف الشق الغربي للوادي

اما النصف الثاني شمالا فكان يطلق عليه الدشر» ويسكنه أولاد الطاهر

15) سكن المرحوم بالله السيد محمد بن طالب قيم أوقاف المسجد، أدركته في طفولتي شيخا كبيرا لا يفارق المسجد الا قليلا لين الجانب موطأ الاكناف : ذو دعابة بريئة مقبولة، توفي قبل سنة 1930 عن عمر يناهز التسعين قليلا فيما افترضه لصورته التي لم تغب عني الى الان.

وزوجته تدعى «تامگزوت» بالكاف المثلثة وفتح الميم ادركتها عجوزا قوية الحركة لا يستقر بها مكان ما. تتكلم أكثر من اللازم ، وخير بنيهما شيخي سيدي علي المتقدم الترجمة

16) فسكن المرحوم محمد البركان ، لطيف ذو مروءة، بعيد عن ميادين الجدال.

17) مجموعة منازل يسكنها شيخنا المرحوم بالله سيدي البكاي ، والمرحوم سيدي قدور بن الفقيه ، يحفظان كتاب الله العزيز ، المرحوم ابنه جلول والمرحوم محمد بن محمد ابن الطاهر ، هذا الاخير لم ادركه ، وحدثوني كثيرا عن كرمه وتقواه، فلقد كان في كل مساء يحمل جفنة من طعام الى المسجد للفقراء فجزاه الله خيرا.

18) وشمال المجموعة ، المرحوم السيد محمد بن بوعزة والد الشهيد محمد بن محمد بن بوعزة أتذكره جيدا : قوي البنية قليل الكلام قلما يبتسم ، متزوج بكريمة السيد عمرو بن يوسف اليوسفي الطاهري.

19) وشماله المرحوم سيدي محمد بن قدور الذيتيم ، توفي سنة 1976م

20) سكن السيد أحمد بن قدور عن بسن تقارب العشرين أو الخمسة والعشرين بعد المائة وكانت الاصابع تشير اليه بالخيارة والصلاح. وأظن ان الاشاقر في محلها. ومن ولده عبد الله والزهراء

21) ثم شمالا أيضا منزل المرحوم بالله السيد البشير الطاهري ادركته فيما يقارب المائة سنة من عمره، وتوفي قبل سنة 1930 بقليل ؛ بسنتين أو ثلاث ، ذو دعابة بريئة ، لطيف الحديث ، موطأ الاكناف ، لا تفارقه الابتسامة ، ولم يكن من القراء يساكنه أولاده : محمد ، وعبد الله ، والكل الى عفو الله وكرمه وبهذا المنزل ننختم سكان «للدشر» ،متجهين شمالا الى «الحمزاويين»...

22) الشيخ الكريم المجيد لحفظ كتاب الله العزيز ذو الكرم الطبيعي والنكتة المتواصلة المقبولة الذي لا يفتأ لسانه عن تلاوة القرآن الكريم ، سيدي عبد القادر بن حمزة رحمه الله ورضي عنه.

ولي معه حكايات «أعذبها هذه : 1) **استدعاني لمنزله** وأنا طالب بمعهد وجدة وأخذت بناته تحملن الينا الطعام واحدة تلو اخرى ، اعني مرة هذه ، ومرة أخرى ، ثم استدعاهن جميعا وكن ثلاثة فتصففن امامنا ونظر الي وقال اختر واحدة من «البقرات» الثلاث ، لأزوجك بها وقبل ان أجيب قال : موجها الخطاب اليهن – ستكونن محظوظات أن يتزوج «هذا العجل» منكن ، شاب قوي، ووالد غني، وأم كريمة ، طيبة، جيدة الطعام ، ثم قال لي مداعبا : خذهن جميعا !

هكذا كان يداعبنا جميعا وأنا وبناته نضحك ، ولا واحدة منهن خرجت دون اذن والدها لها الى ان قال لهن : اخرجن فلستن من ذوات الحظ السعيد

انه : يعنيني أنا ـ أمتنع من التزوج منكن، فماذا أعمل من أجلكن ؟ فخرجن ضاحكات ، اذ كن قد الفن من والدهن المبارك ان يداعبهن بمثل هذه الدعابات فيشيع المرح والسعادة في جو الاسرة الكريمة ، فرحمه الله رحمة واسعة .2) **وثانية لا أريد أن اتركها.**

زارني في المعهد بوجدة وقال لي : هل تريد ان اعلمك بعض «الحكم ؟ قلت : نعم قال هات سطلا فيه ماء واطفيء الشمعة فوضع فيه كأسا وأخذ يتظاهر بقراءة شيء ما فـاذا بالكاس قد قفزت الى اعلى وترجع الى السطل فراقتني هذه الحكمة ، فقلت : ماذا وراءها من الاسرار ؟ فقال لقد وضعت تحت الكأس «سوارا» من نحاس ، ولـه لسان وضعت حبة ملح فيه فركع ووضعت الكأس فوق السوار فطارت الكاس ورجعت الى مكانها، وهي عملية بهلوانية ينخدع بها الغوغاء والاوزاع، حينما يـراد الاحتيال على أموالهم ثم قال : هل تريد أخرى ؟ قلت : نعـم قال هات قطعـة من كاغد فكتب فيها جدولا ، وكلمات لا تفهم وكتب مثل ذلك في كفي يدي وقال خـذ هذه القطعة بين يديك، ووضع فيهـا ماء ، وقال ضعها فوق لهـب الشمعة أو لهب الغاز فصار الماء يغلي والقطعة لا تحترق ! فقلت ما السر في ذلك ؟ فقال : لا شيء ! والكتابة كلها تعمية فقط فالماء يغلي بدونهـا على هذه الصفة ويا ما ايسر مخادعة العامة !

وهكذا قضينا سهرة ممتعة في غرفتي بمدرسة المعهد وتوفي رحمه الله ما بين سنة 1952 وسنة 1956 ولـم أشهد جنازته لانني كنـت مبعدا الى الصحراء منذ 17 غشت 1952 الى 1956 باضافة شهور المنع من دخول وجدة بعد تحرري من الصحـراء فعليه رحمات الله ورضوانه ويبـدو لي انه من مواليد سنة 1880م

23) محمد حمزة يحفظ سورا من القرآن الكريم يشار اليه بالخير وجدته يقارب الستين سنة لعله توفي قبل سنة 1930 بقليل

24) حمزة أخوه فيما أذكر او ابن أخيه مشلول أحد يديه ولعلها اليسرى دمث الاخلاق ذو دعابة بريئة ، مسالم، كان يتجر في البيض.

● وجدته فيما يقارب الثلاثين ولعله قـد توفي ما بين 1930 و1940م وعمره لا يتجاوز الاربعين سنة فيما أذكر رحمه الله ورضي عنه.

25 أسرة الكانونيين لقبا : أحمد ومحمد، وعنـد هذا الحد، ينتهي عدد أسر سكان الفج الغربي من الوادي بالنسبة لورطاس العليا فلناخذ الآن في تعداد بيوتات الشق الشرقي من الوادي ونحن لما نزل في ورطاس العليا.

ومن اليمين الى الشمال :

26) أسرة السيد أحمد بن الحـاج الطاهر الشهير بالسيد احمد المسمع «اسم فاعل» ومن أولاده الفقيه الحافظ كتاب الله العزيز السيد المكي وشقيقه الهبري رحمه الله توفي عام 1979.1399م

ووالدتهما فاطنة الشهيرة بفاطنة تمحمدت» بكسر التاء وسكون الميم وفتح الحاء وشد الميم مع فتحها مـن بنات عمومتي فنحن اخوال للشقيقين المكي والهبري رحمه الله واطال عمر السيد المكي...

ورئيس هـذه الاسرة اشتهر بالامـداح والصـوت العـذب بين الطائفة الدرقاوية، كثير التجوال قليل الكلام في انطوائية داخل الوادي حبيبي مستور الاخلاق لا أذكر ان احد ناله بسوء، محترم اينما حل وارتحل بعيد عن الفضول بعيد عن الجدل ما رأيته زاد علـى الابتسامة ولو دققت التعبير لقلت انه يبتسم نصف ابتسامة ولعله من طبقة الذين كلما انتقض وضوؤهم جددوه وكم كان له من أمثال في هذا العهد الوقـور المحتشم طويل القامة يتلألأ وجهه نورا يمشي مطرقا غير مصاب بالالتفات يمنة ويسرة، فهو يسير قدما يحيي الناس ويرد التحية في اقتضاب.

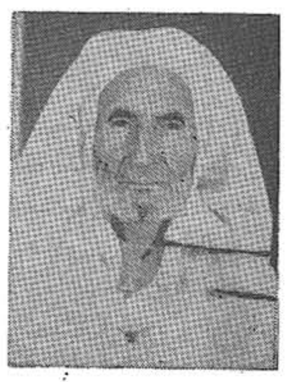
يبدو لي الآن انه من مواليـد سنة 1870 وتوفي حوالي سنـة 1927م تنقص او تزيد قليلا

27) شمال منزله أخوه السيد محمد بن الحاج ادركته قليلا، وكان تاجرا حوالي سنة 1921 ولعله توفي ما بين هذه السنة وسنة 1926 وسنه قريبة من الستين عاما ولـه ولد فقيه هـو السيد بلحاج. ثم السيد عبـد القادر والسيد الطاهر.

28) أرامل السيد محمد بن أحمد بن «علي» من أبناء عمومتي وهم أولاده : محمد زوج كبرى شقيقاتي آمنـة واحمد ، وميمـون رحمه الله، وحليمة اليعقوبية والدة أحمد وميمون.

ان زوج كبرانا السيد الحاج محمد يعد من طبقتي وجيلي وان كان أكبر مني سنا لانه محمد بن محمد بـن احمد ابن علي وانـا : قـدور بن علي بن البشير بن «علي» نجتمع في «علي» فتعرفت عليه في طفولتي وهو في ريعان الشباب وتنسك حوالي سنة 1933م تقريبـا ومعنى التنسك هنا المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها الا ما ندر والقيام بالنوافل النهارية وقيام الليل بركعات معدودة والتعفف عـن الشبهات بقدر مـا تصل اليه معرفته

والابتعاد عن محارم الناس أرواحا واعراضا واموالا في شيء كثير من الانطوائية حيي كثيرا الصمت بعيد عن مواقف التهم صدوق في تجارته، موف بعهوده، وما فيه من نقص في الاخلاق ناتج عن ضعف معرفته وكلما ارشده عارف الى الخير الا وبادر بكامل الاخلاص والسرور ، رافقني عام 1394 = 1974 الى أداء فريضة الحج وسنة العمرة ، حياه الله لطاعته الى نهاية حياته، وبعد مماته..



رقم 28 من أسر وادي ورطاس ابن عمي الحاج محمد بن محمد بن أحمد بن علي «وهنا يجتمع نسبي بنسبه وهو زوج أختي الكبرى» آمنة وقد أدى معي فريضة الحج والعمرة عام 1394 ـ 1974م...

وقد عهدته منذ خمسين عاما صواما قواما ، مشتغلا بما يعنيه مقتاتا بالكسب الحلال. قانعا بما رزقه الله من الطيبات غير مبال بما يتمتع به غيره من ملذات الحياة ختم الله له بالحسنى والله ذو فضل عظيم.

ومن صدق طاعته لله ان تنسكت معه زوجه شقيقتي فصارت لا يفوتها من العبادة ما يقوم به، « والمرأة على دين زوجها » تتجسم في حياة هذين الزوجين الكريمين بالنسبة لجهاد النفس في العبادة

وأخوه أحمد المذكور قريب من خلقه وقد أدى فريضة حجه وسنة عمرته عام 1395 = 1975م وقد صار أخوهما «ميمون» الى عفو الله في حادثة سيارة اسأل له العفو والسماح

(29) أسرة ابن عمنا المرحوم الفقيه السيد محمد بن امحمد بوثقلمونت : أبو القب كان حافظا كتاب الله العزيز في شبه انطوائية يشتغل «بالاسماء» وعالم الرقية والجنون حلو الحديث عذب النكتة مؤنس المجالس أدركته في عهد طفولتي ويبدو لي الآن أبيض اللون ؟ اصلع ، نحيف الجسم في سن ما بين الخمسين والستين توفي حوالي سنة 1926 أو قبلها أو بعدها بقليل وسنه لا تتجاوز الستين الا قليلا فيما يبدو لي مما هو أقرب الى اليقين وبذلك يكون من مواليد حوالي سنة 1865م وأظن ان عقبه قد انقرض نهائيا

30) أسرة ابن عمنا السيد أحمد بن قدور بن «علي» من طبقة والدي رضي الله عنه ادركته وقد بلغ من الكبر عتيا وعمي بصره مستور الحال في دينه اقتعد منزله ولعله توفي قريبا من تاريخ وفاة من تبله الفقيه السيد محمد بن امحمد عن سن ما بين الثمانين والتسعين فيما يقرب من اليقين وأبرز ذريته شيخي سيدي امحمد المتقدم الترجمة وبنته «يامنة» المتوفاة ـ دون زواج ـ حوالي سنة 1931م عن سن تناهز الخمسين، عابدة ، ذات مزوءة عجيبة، ما سمعت كتاب الله العزيز الا وخشع لـه قلبها عفيفية تجلس على كرسي من القناعة عجيب متجملة لا تشكو البؤس وقد عاشت كل حياتها متحملة لألآم الحياة في صبر عجيب كانت تخصني بمحبة أمومية عجيبة كما تخص شقيقي سيدي الحسين بذلك ، ومن عجيب أمرها انني كلما أخذت في تلاوة كتاب الله العزيز بصوت مرتفع فوق سطح منزلنا في فصلي الصيف والخريف الا وتخرج من منزلها التي بابه لتنصت الي. وتارة تنهض من مكانها بدون شعور ولاتزال تمشي وهي تنصت الي حتى تصل منزلنا وتحييني وتدعو معي بدعاء الخير وقد تقضي بقية ليلتها بمنزلنا وبين منزلنا ومنزلها ما يقرب من كيلم يفصل بيننا الوادي وهي لا تعرف للخوف معنى ذات تقدير واحترام لدى سكان الوادي باجمعهم طويلة.. نحيفة.. مجدورة الوجه وسمعتها ـ مرارا ـ تدعو بهذا الدعاء اللهم احضر لي في وفاتي قدور والحسين..

وحدث في صيف 1931 وكنت من طلبه معهد وجدة ضيفا أنا وشقيقي على زوج كبرانا ان سمعنا البكاء في منزل والدها وهو قريب من منزل كبرانا فنهضنا اليها وهي تعالج سكرات الموت وازاءها ابن عمنا المرحوم الفقيه السيد محمد بن قدور بن «علي» «بوليقشا» بسكون اللام وفتح الياء وسكون القاف ومعنى الكنية «أبو الرقية» لانه كان يمتهنها.

فلما دخلنا عليها قلت لها : «يا عمتي يامنة» ها أنا معك في ساعتك الاخيرة في الدنيا فتنهدت والحشرجة تضغط على صدرها وقالت : سي قدور هنا ؟ الله وانفجرت شفتاها عن شبه ابتسامة وتنهدت والحشرجة في أشد ضغطها على صدرها الذي كان في صعود وهبوط باستمرار فقلت لها : ها هو شقيقي هنا فقالت «سي الحسين هنا معي ! الله، فشهقت شهقة واحدة كانت معها جميع أنفاسها رضوان الله عليها.

وغدا صلينا عليها وودعناها الى مرقد جسدها في مقبرة قرب منزلها تعرف بمقبرة سيدي أحمد الحبيب من عمومتي رضي الله عنها وقرب ضريحه العادي دفن جدي لأب سيدي البشير رضي الله عنه.

قلت فيما سبق : ان للا رابحة التجينية صالحة لترشيحها للمرأة الصالحة التي لا يخلو منها الوادي ولللا يامنة صالحة لتكون خلفا لها اذا صحت الرواية : بأن الوادي لا يخلو من سبعة رجال صالحين وامرأة ثامنة انني أحتفظ جدا بصور اخلاقها الطيبة الى الآن وسواء صحت الرواية أم لم تصح فقد كانت للا يامنة من المومنات الصالحات نور الله ضريحها الى يوم الدين.

يا الهي لودونا تاريخ الطيبين والطيبات ولقناه أجيالنا لقل الخبيثون والخبيثات ، وتلك هي رسالة التاريخ الى الانسانية يا ويح وزارة وزارة التعليم والتربية.

لقد عشت عهدا كان المنحرفون والمنحرفات يهربون من مواجهة الطيبين والطيبات خجلا مما هم فيه من الخزي والعار.

31) أسرة ابن عمنا الفقيه السيد محمد قدور بن «علي» «أبي الرقية» المتقدم الذكر ادركته شيخا أتصوره فيما يشبه الظن القوي انه ولد سنة 1955م وتوفي فيما يشبه اليقين حوالي سنة 1934م زوجته السيدة آمنة المختارية العمراوية وولد لهما ابن واحد السيد المصطفى ولما يزل حيا الى الآن (1) كان الفقيه المذكور طويل القامة كث اللحية والعارضين افوه قليل الابتسامة كأنه في شرود مستمر في انطائية ظاهرة يقصده الناس للرقية حتى كني بها فقيل لـه : السيد محمد بن قدور بوليقشة ومعناها : «أبو الرقية» يقع منزله جنوب مقبرة الوادي العروفة بمقبرة سيدي أحمد الحبيب وهو من أسرتنا الخاصة ، أي المترجم ، واما سيدي أحمد الحبيب ، فهو من أولاد الحاج كما روي لي والدي رضي الله عن الجميع..

32) أسرة السيد بوزيان العمراوي والد الوطني المجاهد السيد الحاج سعيد الساكن بابركان طويل القامة غليظ الاطراف قوي العضلات تتجلى عليه مظاهر البأس والقوة، عبوس، الا قليلا ولابتسامة خاطفة لعله توفي حوالي 1950م عن سن تناهز القرن ومن اولاده أيضا : الفقيه الحافظ كتاب الله العزيز السيد محمد الشهير باليعلاوي لقبا، ولما يزل حيا الى كتابة هذه السطور ذو قوة وبأس كابيه

33) أخوه السيد محمد بن بوزيان توفي سنة 1957م فيما يشبه اليقين ولعله ولد حوالي 1890م

---

1) توفي منذ قرابة ثلاث سنوات

34) السيد محمد الملقب «جقوق» بفتح الجيم كان يحفظ القرآن الكريم فيما يشبه الظن اذ ادركته وأنا مازلت في الكتاب ومات ولم أفارق الكتاب بعد فاقدر وفاته قريبا من سنة 1927م وولادته حوالي سنة 1850م وكان مصابا بالطيرة فاذا كان في طريقه الى جهة ما، وسمع مثل جملة «مات رحمه الله» يرجع من مكانه. وعبث الطفولة كان يحملنا على زرع مثل هذه الجمل في طريقه فيلاقي منا تعبا كثيرا رحمة الله عليه ورضوانه.

وله ولدان محمد رحمه الله يحفظ القرآن الكريم حفظا غير جيد فضلا عن رسمه وأحمد أو الحاج أحمد الان يجيده حفظا ورسما وقد أكرمه الله بخصال الكرم منذ شبابه مع اقلاله، والحياء، والوجه المشرق، ولين الجانب، والكنف الموطأ والاناقة مع فقره فلله ما أكرمه واطيبه ؟ !

35) المرحوم السيد محمد بن يوسف اليوسفي الطاهري والد السيد أحمد بن يوسف زوج شقيقتي «خضراء وشقيقه الحاج محمد والد الشاب يوسفي محمد صاحب تأمين السعادة بشارع محمد الخامس بابركان، وأعني بالشقيق زوج أختي «خضراء» توفي المرحوم المذكور فيما بين 1922م ولعله من مواليد 1880م فقد مات كهلا، كان لطيفا مرحا، فكاهيا، لا تمل أحاديثه فعليه رحمة الله ورضوانه

36) اسرة المرحوم الفقيه السيد العربي وكان مجاورا للفقيه السيد جقوق المذكور وأذكر ملامحه قليلا وتخيل قصر ذاته وميل دمه الى الحمرة صبيح الوجه لطيفا فيما اذكر وزوجته «حدوده» كان في طبعها خلل اذكر جيدا انه في سنة 1920م كانت مجاعة كبرى ومن مرة لاخرى يهجم السراق على بعض المنازل وقد يروقها أن تضع رأسي اصبعيها في اذنيها وتصيح : الغوث.. الغوث.. دون ان يطرقها أي سارق ! وفي بعض الاحيان تختفي وراء حجرة كبيرة او شجرة وتقذف المارة بالحجارة ! ولله في خلقه شؤون ولها من الفقيه المذكور «مامة تاعربيت» وشقيقة اسمها فاطمة، وولد ابكم يطلق عليه أحمد «بابا».

37) أسرة السيد قدور بن يوسف يحفظ كتاب الله العزيز قصير القامة، مرح فكاهي كان يبدو لي حوالي سنة 1923 في الستين من عمره تقريبا توفي قريبا من سنة 1930م

ومما اذكر له رحمه الله انه دخل منزله فقدمت له زوجه : «يامنة ابنت علي» اقراصا من خبز البر فتعجب قائلا : «من أين لك هذا ولا قمح عندنا ؟ فقالت : أخذت كمية من علف البهيمة ونقيته فصنعت منها خبزة فخرج من

منزله وهو يصيح : باز للا يامنة نعلي» بفتح النون وسكـون العين وكسر اللام، أي يامنة ابنت علي «الكرفة» بفتـح وسكون الـراء وفتح الفاء، ارجعتها قمحا !

و«الكرفة» عبارة عن حبات القمح لما تزل في اغشيتهـا، وعادة تكون من علف البهائم فحولتها زوجه الى طعام خبـز ! فضربت الجملـة عندنا هنالك مثلا :لمن يصنع الشيء من لا شيء كدليل على مهارته وقوة شعوره وذكائه

38) السيد محمد بن علي بن يوسف الكبير كان يبدو لي في السبعين سنة 1930 وتوفي بعد سنة أو سنتين ومـن اولاده أحمد زوج «يامنة» بنت الفقيه السيد احمد بن مسعود رحمـه الله والبعدود واعرف لـه اربع بنات : زوجة المرحوم الفقيه السيد أحمـد «شقرون» الداودي مـن ال البيت بفرقة اولاد داود من قبيلة بني وريمش فرقة بني «نوكة» ولعلهـا كبراهن وثانية زوجة شيخي سيدي علي بن محمد بن طالب الورطاسي الطاهري وثالثة زوجة ميمون ابن شيخي : السيد عيد المومـن الطاهري الورطاسي السابـق الذكر ورابعتهم زوجه السيد أحمد بن محمد بن رابح مـن أبناء عمومتي واحداهن تسمى رحمة والاخرى تسمى الشريفة الاولى منهما زوجة شيخي سيدي علي وأخرى للسيد أحمد المذكور.

● كان السيد محمد بـن علي المذكور طويلا قـوي العضلات حاد الطبع الى حد بعيد جديا الى حد الافراط ومما أذكر لـه انه حينما خطب منه السيد ميمون المذكور ووافق مبدئيا وجاء يوم العقد وتوجه العدلان الى منزله مع افراد أسرة الزوج، فر من وجوههم الـى جبل ذي غابة كثيفـة وبقي هنالك يومين او ثلاثة والعرس قائم امتناعا من الموافقة أمام العدلين ولماذا ؟ كانت هنالك «عادة» تتضمن تظاهر ولي الزوجة بعدم الموافقة على الاشهاد لسبب تافه حتى يتألف «وفد» مـن ذوي الوجاهة لاسترضائه ! ولمـاذا ! ؟ ليشعر الزوج بانه ان اساء عشرة زوجه فوليها لـه بالمرصاد أعني العقـاب المادي فالعادة انه ليس من حق الوضاعييـن « نسبة الـى الوضاعة » ان يتزوجوا من بنات «الرجال» فعلى كل ان يلبس بلغة على قياس رجليه، والسيد ميمون لم يكن وضيعا ولكن صهره فعل بـه ذلك ليؤكد له الخطورة التي سيتعرض لها ان اساء الى زوجه، هذا من جهة ومن جهة أخرى فان ولي الخطيبة يشترط بعض الهدايا، وكلما اختـل شرط ولو تافها كيفـا وكمـا اعتبر الولي ذلك استخفافا بحقه ولا أحد يكرم غيـره على حسب كرامته، فالولي لا يحتفظ بالهدايا ولكن توزعها زوجه على اقارب الخطيبة وأقرب الزوج ويزيد الولي

على ذلــك بالشورة وقد ــتكون بقــرة او غيرهــا علاوة على كمية من الثياب والفضة لحلي العروس، ولتجــاوز السيد محمد بن علي المذكور كل حدود الغاية من العادة اجمع أهل الوادي على استنكار فعلته التي فعلها ، وفعلا كانت آخر عملياته من هذا النوع فقد تصاهر مع شيخنا سيدي «علي» بن محمد بن طالب ثم مع الفقيه السيد أحمد بــن رابح من أبناء عمومتي فلم يمثل معهما تلك المأساة رحمه الله وغفر له...

39) السيد محمد بن علي شقيق المتصل به كان حافظا كتاب الله العزيز اليفا لا تفارقه الابتسامة قوي العضلات تزوج من احد أبناء عمومتي وله اولاد منها مباركون لعله حــج في عام 1395هــ وتوفي حوالي 1397 واقدر انه من مواليد 1327هــ فرحمة الله عليه ورضوانه

40) محمد بن محمد بن يوسف والد المجاهد الشهيد الطالب السيد حماد رحمه الله ورضي عنه لما يزل حيا الآن ويسكن بمدينة ابركان وتزوج بالسيدة حليمة شقيقة سيدي «علي بن محمد بــن طالب» تنسكت في اوساط شبابها وكانت من الاستقلاليات العاملات ليل نهار، ولا تفتر عن الدعاية الوطنية وكانت محترمة ، أصيبت بالشلل ولعل ذلك كــان بعد استشهاد ولدها الاثير لديها السيد حماد المذكور وتوفيت بــه رحمة الله عليهــا ورضوانه في أوائل الاستقلال عن سن تناهز الستين عامــا ولها ولد آخر لما يزل حيا كــان طفلا في عهد الكفاح الوطني لم تساعده طفولته على المغامرة الوطنية ولكنه كان من الاطفال المتحمسين الذين كان لهم الدور الفعال في الوطنية أثناء حياتهم العائليــة والخارجية في مدينــة ابركان حيث كانــوا يضغطون على أسرهم بالالتحاق بركب الاستقلالية ويتغنــون بالاناشيد الوطنية جهــارا في الازقة والشوارع ولا سيما في حفلات عيد العرش المجيد.

ونظرا الى ان «الزوايا» تحتل مركــزا خطيرا في المجتمع الاسلامي على العموم وفي طبقات العامة على الخصــوص وان مسيرتها اما من طبقة العوام واما من الخواص ذوي الاطماع الدنيوية، وقلة منها كانت على الخط المعتدل او قريبا منه وليس لها مثل وزن غيرها في المجتمع الاسلامي.

نظرا لكل ذلك، فان فقهاء الاستعمــار قرروا التقرب من الزوايا لتدعيم نفوذهم بكل الوسائل المغريــة ومن العجيــب ــ ولا عجــب ــ انهم نصبوا أنفسهم كوعاظ للمسلمين اعني فقهــاء الاستعمار. وأنشأوا لذلــك «ادارة الشؤون الاسلامية» أو «الاهلية».

ومن أجل ذلك اتجهت الوطنية لاصلاح مـا يمكن استصلاحه من الزوايا بمختلف الاساليب.

وبالرغم من مغريات وتهديدات «ادارة الشؤون الاهلية» للوطنية والزوايا فان عدا من هذه استيقظت من غفلتها فانضمت الى الوطنية بمختلف المظاهر تعمية للاستعمار.

وكان من اللازم الذي لا محيد عنه أن تتعمق الوطنية في دراسة التصوف للتسلح بها أمام المعاندين والغافلين والمتآمرين.

41) المرحوم السيد عمرو بن يوسف ادركتـه حوالي سنة 1922م فيما بين الستين والسبعين من عمره ولعلـه توفي قبل سنة 1930 بقليل طويل القامة غائـر العينين أفـوه يبدو لـي كأنه افدم ان يكـن ذلك فناشيء اسنانه يكتفي بالابتسام في الغالب محافظـا على صلاة الجماعـة ، كثير النافلة، لا يفتر لسانه عن ترديد الاوراد يحتـرف الجـزارة وله على والدي وعلى أولاده جميعا نعمة لا ننساها أبدا، فهو أول انسان وجه والدي للتجارة وقدم له رأس المال قراضا في منتهى السماحة والنبل فاللهم انر له بها قبره وانقذه من كل ما يمكن أن يكون قد سلف منـه من عثرات كما انقذ والدي من الفاقة التي كان يتخبط فيها أول عهده بالزواج.

وللمرحوم السيد عمرو المذكور أولاد كلهم يتحلون بأخلاق فاضلة وسرت هذه الفضائل حتـى في احفادهم . فعلاوة على نبله فهـو زوج للارابحة التجينية التي اشتهـرت بعبادة الله وقيام الليل فـوق صخور الوادي وفي ليالي البرد القارس واشتهرت بالمروءة التي لا أستطيع ان اصفها واشتهرت بالتماس الدعوات الصالحة من كل من صادفتـه في طريقها، فلله ما أكرمها واطيبها واتقاها فاللهم اغمرها بالنعـم التي لا تدخل تحت عدولا حصر ، وأفسح لها آفاق الجنان اللامنتهية.

يـا رب.. انت تعلم اني اكتب عنهـا هذه الكلمـات ودموعي تتحدر باستمرار. فلكم كانت تحبني في عهد الطفولة وتدعـو لي بخير وكلما علوت سطح منزلنا لتلاوة القرآن الكريـم الا وخرجت مـن بيتها لتستمع الى الذكر الحكيم ولا ترجع لفراشها حتى انقطع عن التلاوة فاللهم ضاعف اكرامها وبارك في ذريتها الى يوم الدين.

42) الفقيه السيد البشير بـن قدور من ابناء عمومتي كـان يسكن أولا جوار صهري السيد الحـاج محمد ابن أحمـد زوج كبرى شقيقاتي رعاهن الله جميعا، ثم ارتحل الى اصهاره اليوسفيين المذكورين اتصالا حيث انه كان

متزوجا ـ ولما يزل ـ بالسيدة «ميمونــة» وهي ميمونــة الطلعة والاخلاق كاسمها ومضرب المثل في الطاعة الزوجية، ومـا قيل انها اغضبته حسبما اعلم وقد زرته في صيف 1977م فشعرت بانها لما تزل على أخلاقها الفاضلة لينة الجانب مسالمة للجميع، أصيب زوجها بالشلل منذ ما يقرب من خمس سنوات فما تنكرت له ولا غيرت من اكرامها وتقديـم الخدمات المتواصلة له. ولقد أعجبت ايما اعجاب بوفائها لاخلاقهـم الكريمة بصفة عامــة ، وبوفائها لزوجها بصفة خاصة : فلله مـا اكرمها من زوجة صالحــة ! فاللهم وف لها الجزاء بقدر وفائها لاخلاقها وزوجها واجعل ذريتها على منوالها آمين

● الفقيه السيد البشيــر المذكور من اعلام حفاظ كتــاب الله العزيز ويتوفر على معرفة ما تدين به عقيدة وفقها وله شغف بالمطالعة، وبالرغم من عدم معرفته للقواعد العربية ولمواصلــة المطالعة أستطـاع ان يكون لنفسه بعض المعارف الصوفية بالخصوص ويحفظ كثيرا من الادعية الماثورة معتزا بنفسه مشرق الوجه تخلل الابتسامة كل أحاديثه وقورا مهابا يبتسم بشيء كثير من الانطوائية وله معرفة « بأسرار الأسماء، » وعلى الأقـل فقد اشتهر بذلك ، يمارس «الرقية» في دائــرة احترام نفسه أعني انه لا يرقى الا متى طلب منه ذلــك ، يقبل ما يهدي اليه في غير اشتراط ولا مشاحــة وله أوراد متنوعة.

في فرصة معه تناول اطعام الغذاء فــي منزل والدي ذات مرة وأخرى ، فأردت ان ادخل عليه السرور فتناولــت الحديث عــن «الصوفية» ونشاتها ورسالتنا التربوية وصرت أذكر له طائفة مــن أسماء أصحابها الاولين التي تضمنتهم «الرسالة القشيرية» وأذكر لــه طائفة من اورادهــم وسبحاتهم وكراماتهم فلاحظت وجهه كان يتلألأ نــورا وبشرا والابتسامة لا تفارقه ومن حين لآخر يقول لي : بارك الله فيك ما كنت أعتقد ان لك معلومات صوفية ! وانك تحفظ اورادا نبوية واورادا للسلف الصالح ! ، ثــم سألني : وكيف اتصلت بهذا العالم الصوفي ؟ فاجبته : لعلك ـ يا ابن العم ـ لا تعرف ان أصل الوطنية المغربية هــو السلفية وما تحورت الــى «وطنية» الا في سنة 1930م بكارثة الظهير البربري فالوطنية الحديثة سلفية في أسلوب معاصر وهي تعني اصلاح المجتمع المغربي بالعودة الى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح وتاريخنا السلفي يحدثنا بأن أسلافنا اصلحوا أنفسهم أولا ثم صيانة المجتمع الاسلامي مــن التيارات المعاكسة ماديا ومعنويا، فالمشكاة المحترقة لا تنير، وفاقد الشيء لا يعطيه ولذلك كانت الوطنية تعـد مجتمعنا المغربي للمغامـرة في سبيل تحريره من

سلطة الغزاة الغربين، ولا سبيل الى ذلك ما دمنا نئن حتى وطأة الخلط بين ما هو اسلام ، وما هو تقاليد جاهلية وخرافات.

فالزوايا في جملتها ـ قد تخلت عن رسالتها الاسلامية التي كانت تتخلص في شيئين اثنين :

1) نشر المعارف الاسلامية ليعبد الله بعلم من صميم القرآن والسنة وآثار السلف. فالله لا يقبل عبادته بجهالة.

2) معالجة طغيان الحيوانية في الانسان المسلم بتوجيهه الوجهة الاسلامية لتضعه على الخط المعتدل بين البشرية والملائكية.

اما العلوم الدنيوية فلها مناهجها الخاصة وعلماؤها الخاصون العارفون بها وبذلك تكاملت المجتمعات الاسلامية فكانت قوية دينا ودنيا ولها النفوذ الذى لا يقهر في معظم شعوب العالم.

وكشأن كل كائن حي، طفولة، وشباب ، وكهولة، وشيخوخة وهرم أخذت المجتمعات لاسلامية في تراجع عن خطها المعتدل بين البشرية والملائكية فاختلت المقاييس والموازين وقليلا قليلا اخذت اطماع الغرب تستأسد، حتى كان ما كان من ابتلاع العالم الاسلامي شعبا فشعبا مع كل أسف.

43) أسرة المرحوم السيد الشعيبي أخي السيد عمرو بن يوسف.

وكلاهما كانا في بناية واحدة، ادركته متقدما في السن قصير القامة ، كثير الوجوم ، قليل الكلام نادر الابتسام محوجب، اقرن ، كث اللحية والعارضين امي كتابة وقراءة ، محافظ على فرائضه قلما يفتقده المسجد بعيد عن الفضول في شبه انطوائية توفي قبل 1930 بقليل او بعدها بقليل ، وكان يحترف الجزارة وزوجه للا يامنة القدورية، وممن اشتهرن بالفضل والمروءة والعبادة لا تفتر عن ذكر الله وهي كزوجها في الانطوائية والابتعاد عن الفضول لا تبتسم الا قليلا زاهدة في الجدل، قنوع بما كتب الله لها. مع اناقة ووقار السن والقوى. ادركتها وقد انقطعت عن الولادة ، ويقارب سنها ووفاتها سن ووفاة زوجها ولها منه المرحوم عبد المومن ، ومحمد الدخيسي وادريس، والميلود وبنت نسيت اسمها الآن وكانت زوجة ثانية للمرحوم جلول بن الفقيه السيد قدور بن الفقيه الطاهري، ولعل اسمها فاطنة... ولها ولد من غيره هو رفيقي في خطة العدالة، السيد حماد السغروشني ولذلك كان يناديني بخالي أيام كنا جميعا نمارس خطة العدالة في تاوغالت.

والمنزل جوار المسجد وجنوبه وقرب الحديقة الوقفية على المسجد المتصلة به وضريحي سيدي بوزيان، وسيدي يعقوب ، وقريب من مقبرة الوادي التي نطلق عليها مقبرة سيدي بوزيان

44) الفقيه التقي الورع سيدي الحاج علي وهو من فرقة اولاد الحاج ادركته شيخا كبيرا وعمر طويلا وتوفي قبل الاستقلال بقليل او بعده بقليل وقد جاوز المائة بكثير حافظ كتاب الله العزيز ذو وقار وهيبة لا أحد يتجاسر على جداله ، له دراسة اسلامية أولية يتبرك الناس به لطيف حلو الحديث معظم أحاديثه تذكير ووعظ متى وجد جماعة من الناس الا وأخذ في تعليمهم مبادىء الاسلام من الفروض والسنن والمستحبات الخ... ومنزله شمال المقبرة ومتصل بها سوى طريق ضيقة فاصلة بينه وبينها يتعيش من عرق جبينه ويكتفي بضروريات الامساك على الرمق مع نظافة وادمان على المطالعة لا أذكر اني شاهدته في حفلات الوادي، الا في حلقات الذكر وصلاة العيدين في حين انه يهبط من حين لآخر الى المسجد وفي وقتي الظهر والعصر ليس الا فسيدي الحاج علي ريحانة من رياحين الجنة وأعرف له ولدين حافظين لكتاب الله العزيز محيي الدين الرجل الوحيد الذي كان يستطيع ان يساجل والده في المسائل الفقهية حتى يحتد الجدال في ذلك الى مستوى غير محمود، وأعتقد ان السيد محيي الدين رحمه الله كان متاثرا بزواج والده للمرة الثانية بعد تقدم سني زوجته الاولى التي لم تكن تعيش معه لأسباب لا أعرفها ولم أسمع شيئا عنها، والحق أقول ان السيد الحاج علي كان افقه من ولده المرحوم السيد محيي الدين واعقل منه واضبط لمعلوماته على ضآلتها واعرف للسيد الحاج علي أيضا ابنه السيد البكاي اللطيف اللبيب الشغوف باحترام والده، واخيرا ابنته الحاجة مامة ، وتدعى فاطنة زوجة المرحوم السيد محمد تجا الوكوتي ووالدة السيد الحاج بنعبد الله زوج شقيقتي رحمة حفظ الله الجميع. والسيدة الحاجة مامة أو الحاجة فاطنة هذه قد تكون ولدت في منتهى القرن الثالث عشر الهجري أو قبله بقليل ، وحج بها ولدها البار بها الصهر الكريم عام 1383هـ ولد لها اربعة أولاد ، لم يعيشوا طويلا وتعيش الان في ظلال برور ولدها الذي لا حد له

وترجع معرفتي لها أيام الطفولة ، في أواخر العقد الاول منها أي منذ ما يناهز نصف القرن وكنا نحن الاطفال نتبرك بها ونحترمها الى حد بعيد لما وهبها الله من الأخلاق الفاضلة واشتهرت به من التقوى والوقار والهيبة وحسن الخلق، خصوصا منها لين الكنف والمسالمة والابتعاد عن الفضول وما يلاحظ عليها من مواصلة الطاعة لله ولرسوله وتعطير لسانها بالاذكار والاوراد.

امتحنها الله بشتى الامتحانات فما اشتكت ولا شعرت بمركب نقص، فهي راضية بقضاء الله وقدره لا تبالي بما اصابها الله به من شلل في يسري يديها ولا اهتمت كثيرا بفقدان عينها اليمنى أثنــاء عملية جراحية عام 1394 وعلى كثرة مقابلتها في منزل ولدها البار السيد الحاج بنعبد الله زوج شقيقتي رحمة حفظ الله الجميع، على كثرة ذلك فما سمعــت منها شكاية مما بها ولا بغير ذلك، فهي دائما من الحامدات الشاكرات وحدثتني شقيقتي رحمة رعاها الله بعينيه التي لا تنام انها ما أظهرت أبدا ولا ظهر عليها اي شعور بالالم ولا اشتكت عقب العملية الى الآن !

والذي ينظر الى محياها يشعر ـ لاول وهلة ـ انه يلمع بانوار الله ، وكلما زرتها الا وتسبقني لطلب الدعاء مني مع تزويدها لي بالدعوات الصالحة

وعلى الرغم مما بها من تقــدم في السن، ومــا امتحنت به من عاهات وأمراض ، فانها تامة العقل تتحدث وكأنها في سن الشباب !

وأعجب من ذلك انني ما سمعت منها شكاية ضد شقيقتي ولست بذلك ازكى شيقتي ولكن هــذا النبل الذي تتحدث به «عجوزهــا» قلما توفر في العجائز ! فمن عادتهن ان ينتهزن كــل فرصة او معظــم الفرص للتشكي من زوجات اولادهن، وفي بعض الاحيان يشتكين حتى من أولادهن

اما حاجتنا الصالحة هذه، فــلا تسمع منها الا خيــراً في جانب ولدها وزوجه شقيقتي رحمة، بارك الله في الجميع دنيا، ودنيا...

ولو لم يكن لحاجتنا الا هذه الخصلة بعــد الايمان بالله وبرسوله وأداء الفرائض لكفتها في وجــوب وصفها بالولية الصالحة فاللهــم واصل نعمك عليها حتى تلقاك وأنت راض عنها ووفق ولدها البار السيد الحاج بنعبد الله وزوجه شقيقتي لخدمتها واكرامها لينالا بذلك ما عندك من اجر عظيم (1)

كما ارجوك يا الهي ان تديم المروءة والتقوى للآنسة رابحة التي صارت بفضل مروءتها وتقواها ـ كانها من صميم هذه الأسرة الكريمة منذ التحاقها بها حتى انها زهدت في خطبات دون مستوى فضلها وءاثرت العزوبة النقية الطاهرة على الاقتران الذى يمس بمروءتها وتقواها

وفي مثل هذه الخصال فليتنافس المتنافسون.

---

1) توفيت رحمها الله منذ ثلاث سنوات تقريبا

● وبالترجمة لاسرة المرحوم بالله السيد الحـاج علي اختتم تراجم سكان وادي ورطاس الأعلى الذين يطلـق عليهم «الورطسيـون الفوقانيون» منتقلا الى تعداد سكان «ورطاس التحاته»

45) المرحوم المقدم السيد عبد المومن بـن الحـاج عبد المومن منزله اسفـل المسجد بورطاس التحاتـه الذي يطلق علـى مكان مجموعتهم السكنية «تاحلوانت» كان طويل القامة طيب الاخلاق حلو المعاشرة مشهورا بالتقوى والمروءة توفي قبل سنة 1930 قليـلا فيما اظن ونسبته الى اولاد عمرو واقدر انه مات وعمره في الستين أو السبعين

46) الفقيه المهذب الانيق السيد محمد بـن عبد المومن الكبير الشهير بلقب «التايـه» طويل القامة نحيـف وضيء وقور محترم لدى الجميع توفي وعمره في مستوى الثمانين قبل سنة 1930 بقليل وله ولدان : أحمد وتوفي اثر الاستقلال بسنة أو سنتين عـن سـن تقارب الستين ، ومحمد المتوفي قبل سنة 1950م بقليل فيما يشبه اليقين عن سن تقارب الستين،

وكانت لـه محبة عجيبة لـي بالخصوص ولشقيقي سيدي الحسين ، اطال الله حياته مشمولة بكامل العافية ورعى الله أسرته آمين

ومما أذكر للسيد محمد المذكور انه كان في مجلـس من مجالس جماعة ورطاس فاخذ شخص ما ، في الخوض في كرامة والدي فعلق السيد المذكور على ذلك بقوله : «حقا ان لنـا سوء تفاهم مع السيد علي بـن البشير منذ سنوات ويجب ان نجعل حدا للحديث الذي يسيء الى كرامته من الآن فقد رزقه الله ولدين : قدور والحسيـن نرجو ان يكـون منهما خير لآل ورطاس » وزاد قائلا : اذا أبيتـم الا ان تمسوا كرامة السيد علي بـن البشير، فاني سأقوم حالا من مجلسكم فاتركوه بالله عليكم اكراما لولديه المذكورين وفعلا غيروا موضوع الحديث »اذ كان قوي الشخصية قـوى الحجة مهابا في آل ورطاس بالخصوص. **هذه واحدة**

ثم انه بمجرد ما التحقت بمعهد وجـدة أخذ يزورني من فينة لاخرى ولكرمه ، وهندامه الأنيـق ، ووضاءته ، ولطافته، كـان الطلبة يتسابقون لاستدعائه الى غرفاتهم لشـرب الشاي والتمتع بأحاديثـه الفكاهية الحلوة ولكنه يقول لهم هكذا : لا.. لا.. بارك الله فيكم فتعالوا معي الى غرفة الشريف سي قدور ولا يدخل الا غرفتي لتناول الشـاي حتى اذا عـزم على توديعنا يترك ـ تحت الفراش ـ ريالا واحدا اكرامـا لي وياما أكثر فوائد الريال في ذلك العهد فيمكن لي أن أعيش به يومين أو ثلاثة ، **وهذه ثانية...**

● وحينما التحقت بكلية القرويين كان يزورني في غرفتي 21 بالمدرسة العنانية وعادته معي أن يتناول كأسا مـن الشاي ثم يطلب مني ان اصحبه الى جولة عبر «دار الدبيغ» ويترك تحت الفراش ثلاث ريالات : نفقة أسبوع فأكثر ، ونتوجه الى «دار الدبيغ» اما في عربة أجرة أو في سيارة أجرة خاصة بنا ونجلس في مقهى شارع النهضة ! ومن ذا الذي كان يغامربالجلوس فيها ليؤدي ثمن أقل مشروب فيفوت على نفسه ثمن وجبـة غذاء أو عشاء ؟ علاوة على ان صاحب المقهى يرفض كـل من لم تبـدو عليه آيات البورجوازية من المواطنين وأغلبية زبنائه مـن الغربيين الا قليلا، ثـم نتناول طعام العشاء ويصحبني حتى ادخل المدرسة. وهذه ثالثة

وكان أول من أدخلني الى قاعة السينما وكانـت سينما أبي الجنود ، والدخول اليها بريال واحد لكل زبون وكان أول شريط شاهدته في حياتي شريطا مصريا بطلته «نادرة» أميرة الطرب «ومن ذلك العهد وهو سنة 1933م 1352هـ شغفت بالافـلام وطربت لاول مـرة بالأغاني الشرقية وخصوصا أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب ونادرة وغيرهم وهذه رابعة.

وفي سنة 1940 أو 1941م بينما كنـت أشتغل بممارسة خطة العدالة في المحكمة وفي يوم الثلاثاء والقاضـي هو المرحوم العلامـة شيخي الذي أتشرف باجازته لي السيد عبد المجيد الفاسي الفهري والشهر ، شهر رمضان يقينا.. قلت : بينما كنت أشتغـل في المحكمة اذ صاح بي المرحوم السيد محمد بن عبد المومن المذكور بقوله ـ كعادته ـ «الشريف ابغيت نشوفك باش تبحث لي على رسم هنا لأخذ نسخة منه ؟ ؟ فلما دنوت منه وضع يده في يدي وأخرجني من المحكمة قائلا لـي في همس وسرعة : اذا كـان عندك في المنزل ما تخاف منه ازاء الفرنسيين فنظـف منزلك، ففي القريـب سيفتش منزلك » ثم ودعني...

وعملا بنصيحته ، أبعدت مسدس والدي وكثيرا من الجرائد والمجلات والكتب الممنوعة اذ ذاك « فغده الاربعاء فتش منزلي ومنزل والدي فلم يعثر على اي شيء فسلمـت أسرتي كلها مـن المحاكمة العسكرية والحرب العالمية الثانية قائمة وهي في أوجها، وكان من المحقق ان تحكم المحكمة على الجميع باحكام قاسية بعـد ان نذوق جميعا ألوانا مـن العذاب أثناء الاستنطاق ما الله وحده به عليم. وهذه خامسة

فاللهم كما أكرمني أثناء دراستي ودافع عن والدي في وسط الجماعة وانقذنا جميعا من مصير قاس محقـق فتجاوز عن سيئاته وقابلـه بعفوك وكرمك ورحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين ».

46) أسرة أولاد المقدم الحاجبيين وهما الاخوان : أحمد الذي خلف والده على مهمته ازاء الفقراء الدرقاويين من أهالي ورطاس التابعين لزاوية الشيخ المرحوم محمد الهبري العزاوي ويلقب والدهما بالقصير على وزن كبير وكان قصيرا فعلا لبيبا موطأ الاكناف مجاملا لين الجانب لا تفارقه الابتسامة اما أخوه محمد فهو ممن أخذت عنهم القرآن الكريم حوالي سنة 1925م وقد ترجمت له سابقا ومن اولاده : محمد المجاهد ، ويكفيه انه حكم عليه بعشرين سنة سجنا منفذا في حوادث غشت سنة 1953م وتوفي رحمه الله لسنوات قلائل عقب الاستقلال ، وعمرو كان استقلاليا معتدلا، توفي كذلك عقب الاستقلال بعد سنة 1960 بقليل...

47) المرحوم السيد محمد الدرويش قصير القامة، ما رأيته الا واجما في هدوء توفي رحمه الله ربما كان ذلك ما بين سنتين 1930 و1940م واعرف له بنتين : «وردة» زوجة محمد بن محمد بن قدور من أبناء عمومتي وأخرى تزوج منها سيدي أمحمد بن أحمد بن قدور وقد تقدمت ترجمته بين تراجم شيوخي القرآنيين وله غيرهما

48) محمد بن أحمد الشهير بلقب : النفناف قصير القامة انطوائي ، طيب الاخلاق وله ولد طيب يسمى محمد يعمل بعربات النوم في القطار ولعل المترجم توفي في تاريخ من قبله أي في العقد الاربعين بعد التسعمائة والألف.

49) أولاد جليل كبير السادة الفقهاء القرآنيين : أحمد ، ومحمد وعبد السلام رحم الله الجميع وآخرهم وفاة السيد عبد السلام في سنة 1976م أو بعدها بسنة وقد كانوا من أهل الفضل والمروءة فما أشارت اليهم الأصابع بسوء

50) السيد عمرو الملقب «ازكاغ» بالشلحة ومعناه الاحمر ولكنه اشقر في الحقيقة لما يزل حيا وهو مقعدا واقدر انه بلغ 125 سنة من عمره تنقص أو تزيد قليلا ولا يوجد أحد من اهالي ورطاس اليوم أكبر منه سنا وفي الدرجة بعده : والدي رضي الله عنه والفقيه السيد البشير الذي ترجمت له سابقا فهؤلاء الثلاثة هم أكبر سنا في آل ورطاس اليوم : 1398هـ 1978م «توفي السيد عمر وازكاغ» في آخر 1398 ، أوائل 1399هـ »

(51) اولاد الخلوفية لا أذكر اسم والدهم وقد غلبت عليهم نسبتهم الى أمهم

(52) المرحوم السيد محمد بن أحمد الاعرج ومن اولاده السيد التهامي توفي المرحوم قبل سنة 1930م فيما يشبه الظن القوي

(53) المرحوم السيد محمد بـن عبد المومـن الصدوق **بالقـاف المثلثة** لعله توفي حوالي تاريخ من قبله

(55) السيد محمد بن الحاج الحاجي فقيه قرآني عرف بالتقوى والمروءة ومنزله مجاور لمنازل المقدم رقم 46 **ولـه اولاد منهم الفقيـه القرآني السيد** محمد : مضرب المثل في اجادة كتاب الله العزيـز حفظا ورسما مع خط جميل جدا اذكر انه كتب لي : ان الذيـن سبقت لهم منا الحسنـى أولئك عنها مبعدون الى آخر الثمن في بضعة سطـور ! ولما يزل حيا الآن وكان يعمل بالمحكمة الشرعية كناسخ للرسوم لجمال خطه ووضوحه وتوفي محمد بـن الحاج فيما قبل سنة 1930م على أقوى الظن ومن اولاده أيضا الفقيه القرآني السيد العربي وهو زميلي في الكتاب ولعله قـد توفي ويغفر اللـه لي ان كنت قد أخطأت في وفاته والى هنا أعتقد انني اتيت على رؤساء الاسر بالخصوص التي تسكن بورطاس التحتاني بالمكان الذي يسمى «تاحلوانت»

56) وحول مقبرة «جامـع الغرفات وسيـدي مبارك : المـرحوم السيد السيد محمد بن الطيب العمراوي ومن اولاده السيد عبد السلام المتقاعد من التعليم، والطيب، «المجـدوب» **وعبد القادر «المصروع» وهـي أسرة طيبة** رحم الله ووالدهم ووالدتهم العروسية الطيبة الاخلاق وبارك الله في الذرية ، توفي قبل سنة 1960 بقليل

(58 أسرة «المومنة» **محمد وله ولدان قرآنيان : محمد ، وعبد الله ثم أحمد** وله اولاد نسيت اسماءهم فرحمة الله عليهم

(59 وفي مجموعة الورطاسيين بالمكان المدعو بـ «غيـران بني موسى» المرحوم السيد عبد المومن الطاهري وهو أحد شيوخي القرآنيين وقد تقدمت ترجمته واعرف له ولدين : ميمون «ومحمد فتحا»

60) محمد بن قدور الملقب باقجيع بفتح القاف وكسر الجيم مع شدها وله عدة اولاد محمد واحمد وقدور وغيرهم ، **فرحمة الله عليه ورضوانه.**

61) الفقيه القرآني السيد أحمد بن البشير **رحمه الله ولست أدري متى** توفي ولعله أثناء الحرب العالمية الثانيـة قوي العضلات مرح حلو الفكاهات ، بارك الله له في ذريته ، مجاهدة استقلالية ثابتة العقيدة فرحم الله المترجم واسعد ذريته دينا ودنيا.

62) أخوه المقدم طويل القامة متوسط الاعضاء ما بين النحافة والجسامة هادي الطبع لين الكلام يتخلله الابتسام لم يكن يحفظ أكثر من بعض السور القصار توفي قبل الاستقلال أو بعـده بقليل ولا أذكر ان لـه ذرية من نوع ذرية أخيه الا طالبا يحفظ كتاب الله العزيز ولكنه خامل الذكر

63) محمد بن عبد النبي وله اولاد نسيت اسماءهم ولعله كان أميا وفي منتهى الانطوائية وقد توفي قبل سنة 1950م فرحمة الله عليه ورضوانه.

64) السيد أحمد بن بوزيان العمراوي المتزوج بالسيدة «مامـة» ابنت أحمد بن قدور والد شيخنـا الفقيه السيد امحمد، ويسكن قـرب حديقته البرتقالية قريبا من مقبرة سيدي امبارك، وبيني وبين لقائه زمن... ولست أدري ما اذا كان حيا أم لا

65) المقدم السيد بلحاج العمـراوي ومن أولاده محمـد، وحماد والمكي حافظ كتاب الله وغيرهم وغيرهم ومنزله قرب منزل رقم 56.

هذه هي أسر الوادي أو رؤساء أسر الوادي على الاصح.

والى جانبهم الورطاسيون ! اولاد سي عبد الله بالمكان المسمى «تاغروت» بسكون العين المعجمة ومنهم السيد الميلود بـن المقدم والد الآنسة رشيدة «الطالبة بكلية التاريخ والجغرافية بفـاس ورفيقتها في الكلية الآنسة ثريا» وهي بنت شقيقتي الصافيـة ووالدها السيد أحمـد بن البشيـر الطاهري الورطاسي الذي ابلى البلاء الحسن أيام الاستعمار متمنيا للآنستين : «رشيدة وثريا كامل التوفيق في دراستهما ومستقبلا زاهرا مليئا دنيا ودينا آمين.



رسـم لمدينـة السعيدية 24 كلم شمال ابركـان عروس البحـر الابيض بدون منازع.

= ملحق =

في كتابي «ذكريات الدراسة في فاس «تحدثت عن عدد من شيوخي أثناء طلبي بالقرويين وبقي عدد منهم رأيت أن أتحدث عنهم في هذا الملحق حسب ما تيسر لي من معلومات عنهم وما احتفظت به ذاكرتي عن شخصيتهم العلمية بصفة عامة وما يتميز أحدهم به عن الآخر بصفة خاصة اكتفي باثنين منهما فحسب ، لضرورة ظاهرة

شيخنا الراحل سيدي محمد بن عبد الرحمن العراقي الحسيني

● شيخنا رحمه الله ورضي عنه يستحق ترجمة طويلة للتعريف به كعالم من كبار علماء القرويين وكشيخ لطائفة من شيوخي ومجاهد في عهد الاستعمار حيث وقف مواقف خالدة لنصرة دين الله والوطن والعرش وابلى البلاء الحسن برغم شيوخته فلقد نفى الى الصحراء في حوادث 1944 ما يقرب من سنتين ونصف ، ثم امتحن في عهد ازمة العرش سنة 1953

وامتاز رضي الله عنه بتخصصه في علم القواعد العربية وما إليها من آلات «على ما كانت له من مشاركة عميقة في مختلف العلوم التي كانت تدرس في عهده بالقرويين

كان ـ رضي الله عنه ـ اشقر طويل القامة مهابا على ما به من دعابة ونكت يمشي في عزة وهو يمد بصره نحو الآفاق يزور الطلبة في حجراتهم وفي اقاليمهم ويزورونه لا يمل جليسه من احاديثه الممتعة : علما وادبا وفكاهات ونوادر فشيخنا تحفة رائعة رضي الله عنه وله ذرية عالمة طيبة الاخلاق

اكتفي هنا بما نشرته لي «العلم» عنه بعددها 25/10/108 ربيع الاول عام 1398هـ موافق 5 مارس سنة 1978م ف يذكراه الاربعينية ونصف

فضيلة العلامة سيدي محمد بن عبد الرحمن العراقي الحسيني في ذكراه الأربعينية

● في صباح الاحد على الساعة التاسعة والنصف 18/ربيع الاول الابرك 1398 الموافق 1978/2/26م أقيم حفل تأبيني بمعرض فاس بمناسبة مرور الاربعين يوما على وفاة شيخنا المبارك سيدي محمد بن عبد الرحمن

العراقي الحسيني المولود بفاس عام 1306 هـ والمتوفي بها في 7 صفر الخير 1398 تحت الرئاسة الفعلية لشيخنا البار بالله ورسوله العلامة سيدي محمد بن عبد السلام الطاهري أمد الله في حياته ومتعنا بكامل صحته وعافيته ، والرياسة الشرفية لسيادة العامل النبيل مولاي المهدي الامراني حفظه الله.

وعقب استقرار الهيئة التحضيرية بمنصتها اسند سيخنا المذكور مهمة التسيير الى صديقنا رفيق الكفاح الوطني العلامة السيد الحاج أحمد بن شقرون بعد ان نشر علينا زهراته العطرة المقتضبة التي لن يجدى التمنى ان تمنينا على الله ان نستمع اليها ـ متواصلة ـ طول حياتنا، ثم تقدم الى المنصة ـ تعاقبا ـ مرتلان لآيات من الكريم لاحظت شيخنا بالخصوص تتابع عبراته في هدوء يجففها ، في هدوء ووقار طورا يطرق وطورا يخلى بين فكره وسبحاته في آفاق الهية وشعوره بين انفعالات ربانية والتهابات نارية كأنه بين يدي الله في الموقف العظيم ، وتوالت الكلمات التحليلية لشخصية الفقيد ومقوماته الشخصية والعلمية والمواقف الوطنية الاسلامية ما بين نثر وشعر وما كان للقرويين من أدوار خالدة حيال الاسلام والمسلمين؛ وشيخنا حفظه الله في سبحاته وعبراته وانفعالاته الملتهبة في هدوء وسكينة ولم أستطع ـ وايم الله ـ ان أحول بصري عن وجهه المتلألأ نورا ، ولا استطاع فكري ان يبارحه الا ليعود من فينة لأخرى لذكريات الاخذ عنه في تاريخ 1351 هـ و1932م و1932م وقد تمتع بسبعة وثلاثين ربيعا من حياته 1334هـ 1894م يوم كانت تمتزج دروسه العقائدية «الخريدة» بأفكارنا ومشاعرنا فتضيء كل أرجاء اجسادنا بانوار الله. والا حينما ينتقل بصري الى وجه السيد العامل الذي كان يوزع نظراته. المشتركة بين المتعاقبين على المنصة وبين وجه شيخنا الخالد الاعمال، وابت انفعالاته الا ان ترتسم على وجهه في صورة واضحة الآيات.

ولفت نظري أيضا ما كان يبدو من آيات الانفعال على وجه صديقنا الاستاذ السيد الحاج أحمد بن شقرون حتى انه تلا قصيدته الرابعة بسرعة ما عهدتها فيه وطالما استمعت اليه نثرا وشعرا وهو يخبرهما تحبيرا.

اما العلامة السيد عبد الكريم الداودي الاستاذ بكلية الشريعة فقد آسره وجوم مطبق وحاصره انفعال ملتهب وتجلت على محياه آيات الحزن العميق وانتابه حال مزعج فما كان يستطيع الاستقرار في مكانه ومن حين لآخر أشاهده يحرك شفتيه في امتعاض وألم ، بينما انجال الفقيد لا يكادون يستقرون لحظات في امكنتهم وخصوصا سيدي محمد الذي قد تظاهر بالتجلد

العجيب حتى انه كان يأذن لشفتيه أن تنفجرا عن ابتسامات لحظات الاستقبالات ، وهكذا لاحظت يقينا كانت عقيلته كريمة قاضي حاضرة وجدة سابقا العلامة المرحوم السيد محمد بن قدور العبادي وحينما تجانست أمام عيني مواقف الزوجية الكريمين صحت في داخل نفسي الله... وافق شن طبقة

وفي الثانية عشرة والنصف انتهى الحفل بالدعاء الطيب للفقيد ، وبطول العمر والنصر لامير المومنين جلالة الحسن الثاني حفظه الله.

والى القراء الكرام قصيدتي المتواضعة في الحفل التأبيني :

في الذكرى الاربعينية لوفاته

الهي لاسلام توارت كواكبه — وليل الجحود طوقتنا مذاهبه
فما الموت في دنيا البرية بدعة — ولا انه خطب تذاد مصائبه
ولكنه الخطب الجسيم متى غدا — شعاع الهدى تخبو ـ تباعا ـ ثواقبه

* * * * * * *

فكنا اذا نجم من الهدى قد هوى — هوى الخلود خالفته مواكبه
فنمسي وفي دنيا المعارف انجم — وكل ـ ورب البيت ـ تسمو محاربه
ونبكي ، وقد نبكي قليلا ، لأننا — نرى الخلف الموهوب شعت مواهبه
فعدنا متى هدى الان زمامه — الى عالم الرضوان هالت مضاربه

* * * * * * *

فأين «الجواد الحر» ؟ أين عديله ؟ — بفكر خصيب لا تحد رحائبه ؟
غضوب لرب الكون ما طاف طائف — وحصن لدين الله، شم مراقبه
ومنبع أخلاق يضوع اريجها — فيغمرنا عطر نكاد نجاذبه

* * * * * * *

وأين «العباس الفذ ؟ أين علومه — وأين رحاب عطرتها عجائبه ؟
وأين لطاف ؟ ما الذ لطافه — واشراق وجه كللته مناقبه ؟
وأين بيان كالزلال عذوبة ؟ — فمن ذا الذي ـ بالله بعد ـ يقاربه ؟

* * * * * * *

وأين الذي نرثيه بالنثر تارة — وبالشعر أخرى ، والدموع تواكبه ؟
فأين العراقي الأصيل محمد — سلوكا وعرفانا ، ولله جانبه ؟
لكم كان اشعاعا طوال حياته — وفي الله صلبا لا تفل قواضبه

ففي حله ان شئت أو رحلاته ... عجيب من العرفان كثت سحائبه
ابي اذا ما الامر قد جد جده ... منيع الحمى ، والظلم جنت مراهبه
فما هاب في الدنيا مواقف عزة ... ولا ارهبته في الجهاد متاعبه
ولا هاله زحف الدخيل بجيشه ... ولا راعه ما تدعيه ربائبه
غداة التقي الجمعان والموت زاحف ... وفي كل رقعة ظلوم ونائبه
فما كان الا ان تدرع بالتقى ... وبالعلم حتى بايعتهو رغائبه
وقد ساءه ان لا يهاجر هجرة ... كما جده الرسول كان وصاحبه
فاوغر اجنح الغزاة بحقنا ... كشعب أصيل لن يفوز مغالبه
فصاحت به «الطاووس» يا خير عالم ... تهيأ لحضن رائعات ماربه
تعال انتشاء بالجهاد ونصره ... فصدري رحيب لا تمل جواذبه
على أجنحي بالله كن خير راحل ... الينا فما في الامر سوء تجانبه
فما فيه الا ان تعود مظفرا ... وجيش الضلال شائلات حقائبه
فما المرء الا أن يذود عن الحمى ... وكأس المنايا دون ذل يناصبه
وما المرء الا ان يعيش مسودا ... كريما ، وان اشقاه بؤس يحاربه
جميل بأن يرى السلامة متعة ... وأجمل منها ان تعز جوانبه
تهيأ ، لطاووس، لمجد مخلد ... ففي منزل الطاووس فخر يناسبه
فما كان من شيخي وشيخكموا عدا ... هتاف ـ وان أردته منه مواجبه
فلبيك يا «طاووس» اني منيم ... بموت كريم لا تعد مآدبه
أو النصر في ساح الجهاد تنفلا ... بروح ، فلا جبن تروق «اطايبه»
ولبى النداء الحر ، والخصم حارد ... عليه شديد ، والجيوش تصاحبه
كذا سنة الاسلام في كل مومن ... وفي كل موطن تداس مكاسبه
فلا سلم في دنيا المهانة راحة ... ولا عيش الا ان تسود ذوائبه
كذا شيخنا ـ بالله ـ كان مجاهدا ... كما جاهد الابطال ، والموت طالبه
وكم شاءه الدخيل متنا مذللا ... فما لان ـ يوما ـ والعيون تراقبه
الى ان تهاوت بالدخيل قلاعه ... فصارت هباء بددته الاعبه
مضى فاختفت أخلاقه وعلومه ... فمن لي به والدهر تقسو غرائبه

* * * * * * *

فيا ساكنا في الخلد نم نومة الرضا ... وعش في نعيم لا تغور مشاربه
وخل الاسى يبرى لحاء صدورنا ... ودمع القلوب لا تجف مناضبه
وفي سائر الاشياخ كل عزائنا ... الى ان ترد «للكتاب» أساليبه
وفي الحسن الثاني عظيم رجائنا ... وما خاب من يرجوه أمرا يداعبه
فللحسن الثاني خوالد غرة ... متى شاء هبت طيعات مطالبه

ويا فاس صبرا ، فالمصاب مصابنا جميعــا فللتصبــر الجميل عواقبه
ويــا فلذات الشيخ ، كــل شعورنــا واحساسنا لكم ، وأنتم نجائبــه

الرباط : الاحد 18 ربيع الاول 1398
26 فبراير 1978

شيخنا الراحل سيدي عبد الرحمن بن الصديق الغريسـي..

● وشيخنا هذا أيضا في حاجة الى دراسة واسعة عميقة بعيدة الآفاق ولضرورة قاهرة اكتفى بما نشرته لــي «العلم» عقب وفاته فــي ثلاث حلقات ومع الأسف ، ضاعت مني اعداد «العلــم» نشرت عليها هذه الحلقات ، واكتفى هنا بالمسودة... نعم علاوة علــى ذلك اذيل ترجمته بما وجدتــه بخط يده الذي سلمته الي ابنته الأستاذة زينب ، بقليل قبل ذكراه الاربعينية

نعى هاتفي خاشع :

فرغنا.. وفرغ المومنون بالله من أداء الصلاة الوسطى مساء يوم الاثنين المتصل ثم عدت لاستعبر من منظــر الأسطول الفرنسي وهو يغادر «طولون» لغزو الجزائر الشقيقة ، وعلى رأسه الاميــرال «ديبيري» ومعه من الجنرالات الجنرال بورمون والملك شــارل العاشر يتقد حماسا لخــروج هذا الاسطول الذي سيزيل الراية الاسلاميه من الجزائر ويعوضها بالرايه الفرنسية وعقرب التاريخ يشير الى يوم 21 حجة 1245 ـ 19 يونيه 1830م

هكذا كنت انتتبع قصة هذا الغزو للعظة والاستعبار فاذا انسان من وراء الهاتف يقول : اريد سي قــدور الورطاسي فأجيبــه : تفضــل... هو الذي يسمعك لقد توفي اليوم على الساعة الثانية بعــد الزوال 26 حجة 1398 27 نونبر 1978 الفقيه السيد عبد الرحمن الغريسي عليه رحمة الله.

شعرت أثناء هــذه المكالمة ان صوت الناعي تحــرق جوانحه الزفرات الملتهبة وتحرق جفونه لتقطع عنها الطريق لاطفاء اللهيب الطاغي

جمدت في مكاني جمود الجثة الهامدة فارتج على لحظات الاستماع الى النعي الهاتفي فتأكد لدي ان النــاعي الباكي الملتهب الزفرات لن يكون الا من قطع كبد الشيخ رحمه الله فتمثل لي قولي في احدى قصائدي الرثائية

قد بكتك العيون طبعا ، ولكن
ما بكاء العيون كالاكباد

فسألت الناعي : ومتى يودع شيخنا رحمه الله ؟ فقال : غدا الثلاثاء سيصلي عليه بجامع القرويين عقب صلاة الظهر فشكرت له اهتمامه ، وأنا ارجع : «انا لله وانا اليه راجعون» مات شيخنا سيدي عبد الرحمن الغريسي رحمه الله ، فاللهم اجعل قبره روضة من رياض الجنة

قمت من على مقعدي وأنا أدور حول نفسي، وجسمي يكاد يتداعى من هول الصدمة كلنا متأكدون بأن الموت ينتظرنا لاجل استأثر به الله.

ولكن الله جلت حكمه، يسلط علينا ضبابا من النسيان لنتعمر هذا الارض وما تحتها، وما فوقها للتعرف على عظمته بواسطة روائع خلقه لنزداد به ايمانا فنزداد طاعة وتقوى ولنتمتع بهداياه الكونية لنا الى حين، وبين ضباب النسيان تجد النفس الامارة بالسوء ويجد «القرين» ثغرات لالها بنا حبا للحياة وطول الامل لذلك تتداعى أجسامنا وتنهار من اثر صدمة الموت في غيرنا لانها تجدنا غاطين في الغفوة التيهية.

ادرت «معصم» الهاتف على اجد وسيلة سريعة لادراك لحظات وداع الشيخ فكانت اولا دون جدوى فقلت في نفسي ان استعمال أي وسيلة عمومية ستلهب قلبي أثناء الطريق بين الرباط وفاس اذ كلما نقصت سرعة المركب التهب شعوري وقفز قلبي الى حلقي خوفا من حدوث عطب في المركب يؤدي الى حرماني من وداع شيخي رحمه الله.

وفجأة خطر لي ان اتصل بصهري الاستاذ السيد احمد بن سليمان في الموضوع فوافاني حوالي الثامنة صباحا من يوم الثلاثاء المتصل كما كنت متأكدا من ذلك : جزاه الله خيرا فما دعى لمكرمة ألا وأجاب لبيك

في فاس

ارث أهل الدنيا : المال.. والعروض

وارث أهل الله ، الخير العام للناس

● في ليلة الثلاثاء زارتنا تباشير الغيث ونحن ننتظره مستغفرين تائبين هلوعين فكانت تلك التباشير اشبه بما خلف لنا الشيخ رحمه الله من ارث نافع عام

فلمــا دخلنا دار الشيخ فــي بطحاء فاس القينا عليــه نظرة وهو بين حفاظ كتاب الله وجسمه ملفوف في كفنه عليه قطيفــة صفراء كأنه طفل نائم بين ذراعي والدة حنون وفي غير هذه الحجرة قبة مكتظة بذوي الخير والبركة يتوسطهم شيخنا الطويــل العمر سيدي محمد بن عبد الســلام الطاهري رضي الله عنه.

حتى اذا دنت لحظات فراقه للمنــزل دخل الى حيث جسده الكريــم تلميذاه الوفيان صاحبا الفضيلة السيدان عبد الكريم الداودي والحاج أحمد بنشقرون اطال الله عمرهما في سلامة وعافية

وعند اختتام التلاوة ، قدم لنا الاستاذ الحــاج أحمد بنشقرون الاستاذ السيد عبد الكريم الداودي لالقاء كلمة رثائية، فكانــت عبرات دامية خشعت لها القلوب، وذرفت لها العيون برغم قلة حروفها لعامل الاسراع بالشيخ أولا الى القرويين للصلاة عليه حيث اذاب شبابه تعلما وتعليما.

فما حمل جسمه على الأكتاف حتــى انفجرت محاجر السمــاء بعبرات خاشعة وقورة فابى الله الا ان يرش جثمانــه مباشرة بعطر عبــرات السماء الى تطهير قبره بها قبل أن يأوى اليها.

فلقد قطعنا المسافة بين منزله.. والقرويين، والسماء تذرف دموعها في صمت وخشوع.. حتى اذا كان جثمانه بين اساطين القرويين على مقربة من محرابها كفكفت السماء دموعها وكأنها شعرت بأن الشيخ ـ وروحه في عالم الخلود ـ يتمتع بين حديقة شبابه تعلما وتعليما، فلا داعي لذرف الدموع والشيخ في بحبوحة سعادته وروحه ترفرف فوق جثته التي طالما كانت تحلق حوله المئات من الطلبة من مختلف اقاليم البلاد لا سيما وطائفة ممن تحلقوا حوله ـ وهو على كرسي الجامعة ـ جاثمون حول جثمانه للترحم والعظة والاستعبار فلا داعي اذن للدمــوع، والشيخ ممدد بين ظــلال حديقته ، وباقة من ازهار طلابة يتحلقون حوله الى عطر من بقية طبقته يتضوع حواليه.

● ومن العجيب ـ ولا عجب مــن فيوض رحمه الله اننا مــا كدنا أن نتخطى عتبة باب الجامعة ، حتى عادت محاجر السمــاء الى ذرف عبراتها الهادئة الخاشعة ! ولم تكفكف دموعها الــى ان تجاوزنــا «باب الفتوح» وكأنها تقول لنا : تابعوا سيركم الى مرقده في أمان، فلقد سقيته بدموعي مرارا وهو في حاجة الى جفاف ما ليساعده على الراحة والاطمئنان، استعدادا لينطلق لسانه فصاحة وبلاغة بالعقيدة الالهية الصادقة بين ملكي السؤال.

وهكذا تابعنا سيرنا الى مرقده الاخير مارين بضريح المرحوم العلامة المحدث الشيخ «الدراس» بن اسماعيل رحمه الله، وعلى ضرائح «مطرح الاجلة»

فما كدت أتجاوز هذه الضرائح حتى وجدت الى جنبي فضيلة العلامة سيدي مولاي علي العلوي الناظر وهو يقول لي انظر ضريح الشيخ الدراس بن اسماعيل ومطرح الاجلة، ووالدي معهم

فسرعان ما تذكرت : ما رواه الشيخ الدراس بن اسماعيل رحمه الله بسنده المتصل من ان مغربيين اتجها الى المدينة المنورة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ووجداه في جمع من الصحابة وتساءلا بالبربرية «ما يتكان.. ارقاص انربي : من فيكم يقول انه رسول الله ؟.. وأجابهما عليه الصلاة والسلام بقوله :

«نكين.. ايتكان» : أنا الذي أقول « فشهدا شهادة الحق »

فشكرت للأخ مولاي «علي» هذه المعلومات القيمة وسألت الله ان يفيض نعمة الجنة على الشيخ الدراس وأهل « مطرح الاجلة، » ثم تابعت موكب المشيعين

وعند الانتهاء من مواراة جثمان الشيخ تحلقنا حول بقية السلف الصالح فضيلة العلامة سيدي محمد بن عثمان الشامي اطال الله عمره الذي افتتح لنا تلاوة الفاتحة ورفعنا معه أكف الضراعة والابتهال الى الله ان يتقبل شيخنا سيدي عبد الرحمن الغريسي قبولا حسنا ويفيض عليه من فيوض رحمته ما هو اهل له آمين..

وقد لاحظت من بين المشيعين لجثمان الشيخ فضيلة العلامة السيد مولاي المصطفى العلوي مدير ديوان وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والاخ الاستاذ محمد البكري وفضيلة القاضي بمجلس الاستيناف بفاس : الاستاذ محمد الشاوي ، وكثيرا من ذوي الخير والتقوى فعزاء لفلذتي كبده وزوجيهما وللأسرة العلمية خصوصا وللاسلام عموما «انا لله.. وانا اليه راجعون» وبعد.. فمن هو فضيلة الشيخ سيدي عبد الرحمان الغريسي ؟ وما هو ؟

في قرية «أبو تنفيت» بملحقة كلميمة : اقليم الراشدية على «وادي غريس» وتحت سماء تافيلات ذات المآثر الوطنية والاسلامية الخالدة

وفي تاريخ 1319هـ 1901م ابصر مترجمنا المرحوم بالله نور الوجود وبذلك يكون قد سبق الراحل الكريم سيدي علال الفاسي الى ساحة الدنيا

بتسع سنوات وكان والده المرحوم : الصديق « في عداد تجار تلك الناحية

ونحن اذا مازلنا الستار عن البيئة التي قضى فيها مترجمنا طفولته واوائل شبابه نبصر بيئة تهتم ـ أول ما تهتم ـ بتلقين الاطفال كتاب الله العزيز وتكوينهم على خلق القرآن الكريم جهد المستطاع ليكون ذلك لهم درعا يقيهم التيارات الجارفة من الاهواء والاباطيل وان شطت ما شاء الله لها من الشطط

فالقرآن الكريم ، حصن من حصون الله تنهزم أمام قواعده كل التيارات الاهوائية والاغوائية الى جانب هذا الحصن الالهي الخالد، كانت مساجد «مدغرة» كلها عبارة عن مراكز اسلامية يجد فيها الشباب القرآني بغيته من مختلف المعارف الاسلامية لدى شيوخ انقطعوا لتبليغ رسالة الله الى الاجيال العقبة، يبلغونها بألسنتهم وأزيائهم البسيطة بساطة الاسلام وبوقارهم الذي يفرض التجلة والاحترام وبسلوكهم الذي يفرض الاسوة الحسنة على مر الشهور والاعوام.ـ

مع العلم ان المرحوم سيدي العربي العلوي والد شيخ الاسلام المرحوم سيدي محمد بن العربي العلوي كان «مشارطا» في تلك الناحية يلقن كتاب الله العزيز ويؤدي رسالة الاسلام بما كان له من اطلاع على شريعته يضاف الى ذلك : ان قرية مترجمنا كانت بين «زاوية العياشي» بالريش وبين الزاوية الناصرية بتا مكروت ومن ذا الذي لا يعرف تاريخ ما كانت تمثل هذه للزوايا من تدعيم للعقيدة الاسلامية ونشر شريعة الله المطهرة

فلم تكن هذه الزوايا جاثمة في مكانها جثوم المقعد لا يقتطف ثمارها الا من حج اليها بل أنها كانت تنظم جولات بين القبائل النائية والدانية لاداء رسالة الله بينها الامر الذي كان يحيى موات القلوب ويسقي ذوابلها ويتعهد مزهرها ومثمرها

وقد نال قرية «كلميمة» من ذلك الخير الكثير حدثني اخواني الذين سجنوا في هذه القرية وعذبوا فيها عذابا شديدا حتى استشهد بذلك العلامة المرحوم محمد القري.. وذلك سنة 1937 وفي عهد المقيم نجيس حدثني بأنه كان للمرأة الكلميمية من ضروب العطف عليهم ما سجله لها التاريخ بمداد الفخر.

فلقد كانت المرأة الكلميمية تبذل كل ما في طاقتها لدى زوجها «الكومي» تشعره بواجبه ازاء هؤلاء المجاهدين المعذبين في سبيل الله بواسطة

اسواط «الكمندار عيـــار» رئيس مقاطعة مكناس في هـذا الجو التوتغيتي الكلميمي ترعرع مترجمنا رحمه الله وهو يتلقى كتاب الله العزيز. من شيوخه الكرام داخل الكتاتيب القرآنية الملتصقة ببيوت الله.

الى القرويين

كانت جامعة «القرويين ملتقى طلاب الآفاق من حفظة كتاب الله العزيز ينحدر اليها الطلاب البـــدو بعقائدهم الاسلاميــــة المتغلغلة في دمائهم ونور القرآن الكريم يقيها من كل رجس وشيطان ليجدوا بين رحابها ما يقيمون به اود دينهم ودنياهم وأفكارهم

وما كانت «القرويين» وحدها التي تضمهم الى صدرها بكامل ذراعيها بل كانـــت هنالك أيضا «الحضارة العربية الاندلسيـــة الاسرة، وقد تجمعت عصارتها في فاس.

فالطالب هنالك يتفيأ ظلال الحضارة العربية الى جانب جني ثمرات الفكر والسلوك الاسلاميين وانني أفترض فقط انه التحق بالقرويين «حوالي سنة 1340هـ 1921م فواحد وعشرون سنة ليست كلها لاجادة كتاب الله العزيز بل لانتظار صلابة العود وتوفر ضروريـــة اليقظة لمغـــادرة حضن الاسرة في رشد وقوة جسدية حتى تطمئن أسرتـــه على سلامته فـــي غربته العلمية والافاني افترض في شبه اليقين انه اجاد حفظ كتـــاب الله الكريم عند نهاية نصف العقد الثاني من عمره

وآية ذلك انه حصل على العالمية المرموقـــة حوالي سنـــة 1350 هـ 1931م اي في ظرف عشر سنوات فقط

وآية تبرزه في عالميته وسلوكـــه ان شيوخه كانوا يعاملونـــه معاملة الند للند كأنه من طبقتهم وهو من طبقتهم فعلا

اللقاء مع مترجمنا :

التحقت بجامعة القرويين يوم الخميس على الساعة 8 صباحا 14 شوال 1351 23 فبرايـــر 1932م وبذلـــك وجدت شيخنـــا قد تمتـــع باثنين وثلاثين ربيعا.

● لقد كانت عطلة الصيف فرصة ثمينـــة لمن يسابق الزمان للحصول على أكبر قدر ممكن من الثقافة الاسلامية على يد خريجي كلية القرويين.

فكان كثيرون من الطلبة ينتظـرون هذا الفرصة للأخـذ عن العلماء الذين كانوا يتطوعون بدروس مجانيـة في هذه العطلة غيـر مبالين « بالويكاند » متنزهين عن اي عوض فكنت مـن هؤلاء الطلبة في نفـس سنة التحاقي بالقرويين عام 1351هـ . 1932م

فما راعني الا ان أرى الشيخ المترجم فوق كرسيه وحوله مئات الطلبة وهو يدرس لهم «توضيح ابن مالك» رحمه الله.

لا أستطيع ان اصف ذلك الاسلوب العجيب الذي كـان يملي به درسه وهو يستشهد بمنوعات النقول النحوية والصرفية.

وأعجب من ذلك انـه كان يجيب السائل ويستأنف أمـلاءه بكيفية طبيعية ، فكأن السائل ما سأل والشيخ ما أجاب !!

شخصيتـــه :

● كان مترجمنا ـ حينما تعرفت عليه في التاريخ السابق ـ يبدو كأنه كهل في وقاره ومهابته يتزيا بزي العلماء الكبار في أثواب نقية بسيطة كما بقي الى وفاته رحمه الله.

ولقوة حافظته وذاكرته ولزومه جادة السلوك لـم يكن اي طالب يقترب من شخصيته بأي نقاش فارغ أو فيه رائحة مـن الدعابة فالشيخ عنيف اذا ما أحس شيئا من ذلك على ان محياه المستقر في وقاره وهيبته ، كان كافيا لرد أي محاولة من هذا القبيل.

ولقد كنت القاه من حين لآخـر وامر بحلقات درسه فمـا رايته ضاحكآ او مداعبا الى ان فارقت القرويين فابتسامته كانت شبه ابتسامة ليس الا ! على أن هذه الجدية الايجابية لم تكن لتحول دون القاء الاسئلة الهادفة عليه ولا دون اجابته عنها في ليـن وموضوعية ولو انه كـان يقف عند الضروري من الاجوبة ، فلا فضول ولا اعتراضيات

وبرغم انه كان في العقد المتصل برحلة الكهولة ، فكان يمشي الهوينا في وقار لا يلتفت وراءه لا يمنـة ولا يسرة اسوة بخلـق النبي عليه الصلاة والســـلام.

وتأسره الحضارة العربية في فاس

كان شأن الحضارة عجيبا، فقلما احست بعبقرية من بين اوساط الطلبة

البدو الا تسارعت الى تسليط سحرها الاسر عليه، فكأنها أخذت السحر عن هاروت وما روت !

وكان سحرها يتجلى في رقة الشعور ورهافة الاحساس ، ونبل المواجهة، الى مرح يخيل الى الانسان انه خارج عن منطقة الاخلاق فاذا هي في الحقيقة دعابات بريئة تستهدف الترويح عن النفوس، الى جانب ذلك ترتدي اطارا شفافا يأخذ بنواصي العقول بله اعنة المشاعر !

فشيخنا ما كان يستطيع مغادرة فاس المتفيئة بظلال العلوم الاسلامية والمتهادية في الحضارة العربية الاندلسية الى أجواء «كلميمة».

وهل كان ذلك في استطاعة شيوخنا المرحومين للسادة : الحسن الزرهوني، وبوشتى الصنهاجي ومحمد اخيه وغيرهم ممن كانوا زينة القرويين وبهجة الحضارة الاسلامية.

واذا ما اثقل «بليد» على تلك الحضارة فجثا الى اقدامها، غمرته بالخمول المطبق فلا يكاد يعرف أنه كان من طلبة القرويين بل تحرمه من كل معطياتها، وتجيله في عداد البؤساء.

فما كان من مترجمنا وقد الفه الفكر الاسلامي وخطبته الحضارة بكلتا ذراعيها فضلا عن لسانها الا ان أسس له أسرة منها فاستقر فيها وكأنه درة من عقدها وكان قد تحلل من زواجه الاول بخنيفرة من فلذات أحد أبناء عمومته

الى القضاء

● اشتهر مترجمنا باطلاعه الواسع على المعارف الاسلامية، وسلوكه المستقيم والحملات متواصلة من لدن الوطنية الهادفة ضد انحراف القضاء الشرعي، فاختير مترجمنا لهذه الخطة ليعيد لها كرامتها فعين على قضاء «الحياينة» ثم الى مجلس الاستيناف، أو المجلس الأعلى للقضاء نسيت وارجح الاول

الى المعركة الوطنية :

عين «جلبير كرانفال» مقيما عاما بالمغرب أوائل يوليوز سنة 1955م الموافق 1375هـ والتاريخ العجمي مضبوط بكل دقة ولعله كان في 6 يوليوز المذكور ففتح المقيم بابه ـ ظاهريا للحوار فتقدم علماء القرويين بعريضة يطالبون فيها باعادة بطل التحرير جلالة محمد الخامس الى عرشه فما كان من

الشرطة الا ان اعتقلته وشيخنا سيدي محمد بن محمد بن عبد السلام الطاهري فاجتح العلماء على ذلك فلجأوا الى الضريح الادريسي ولكن الشرطة اقتحمت الضريح ونقلتهم الى مدرسة للا عائشة بالرباط ولم يتحرروا حتى تحرر المعتقلان الكريمان

الى دار الحديث الحسنية :

ولما أنشئت : «دار الحديث الحسنية» كان من طلائع اساتذتها الكبار وبقي فيها الى ان وافاه أجله رحمه الله.

وكان يأتي الى القاء الدروس الاسلامية فيها من فاس : حيث منزله ويستأجر حجرة في النزل ، حتى ينهي حصة دروسه الاسبوعية ثم يرجع الى منزله.

وذلك كما كان يصنع فقيد العروبة والاسلام زعيم التحرير علال الفاسي رحمه الله حينما كان ينتقل من الرباط الى فاس لالقاء حصة دروسه في كلية الشريعة، والمفارقة الوحيدة : ان هذا كان يقيم هنالك عند أصدقائه المجاهدين مثل المجاهد الكبير الشيد أحمد مكوار رحمه الله

ومنشأ المفارقة بينهما شبه انطوائية ذلك وتفتح هذا

والانسان ابن بيئته أولا، وتكوينه الشخصي ثانيا

فمترجمنا لم يتخلص من بيئته الاولى عهد طفولته

ولم يتخلص من غربته الدراسية

ولم يتخلص من شعوره الطارىء على فاس

وربما كانت له انطوائية في طبعه

على ان تطرفه في سلوكه الخلقي الاسلامي يحول دون استعداده للتفاعل مع العوامل «المتفتحة»

خاتمة :

في عهد دراستي بالقرويين لم يكن في استطاعة مثلي ان يتواجد مع جميع الشيوخ ولا سيما مثل مترجمنا فلقد لازمت حلقات دروسه زمنا لا بأس به

دون ان أكون قادرا على عقد أي صلة معه

ولما عزم على أداء حجة الاسلام على نفقـة جلالة الحسن الثاني نصره الله ولعله كان ذلك سنة 1967م كنت بوزارة الشؤون الاسلاميـة وكانت شؤون الوزارة قـد انتقلت الى «منزل الدرعـي» الملاصق لنزل منارة حسان وحدث ان خرجت من مكتبي فوجدته في مكان الاستقبال في انتظار تسليمه تذكرة الركوب ومنحة النفقة، فتقدمت إليه ليجلس في مكتبي ريثما يحصل على ما ذكر فسألني عن اسمي فقلت له : انني من تلامذتك ولما ذكرت له اسمي ابتسم رحمه الله وقال : لا أذكرك وأنـت في حلقـات دروسي ولكن سمعت بهذا الاسم كثيرا أيـام النضال وبواسطة الاذاعـة والتلفزة واثنى علي كثيرا جزاه الله خيرا ثم قلت له : أثناء مدة اقامتي الدراسية في فاس كانت لي أمنية ان اراك مبتسما وها قد حقق الله أمنيتي اليوم فلله الشكر والمنة فابتسم مرة ثانية رحمه الله ورضي عنه.

وكان الشيخ شعر بأني أميـل الى التمتع بتفتحاتـه فأخذ يحدثني عن غرائب المتداعين الى ان قال : بينما كنت فـي مجلس الحكم بالحياينة اذ دخلـت علي عجوز مـن غير القبيلة طالبة مني أن أودع ولدا لها في السجن وحينما استغربت الطلب : قالت : «ان ولدي يتيم، أعرج ونحن فقراء وفي غير قبيلتنا ومع ذلك، فانه يترامى على الناس فيخاصمهم باستمرار ! فقال لها - رحمه الله - واي شيء في ذلك ؟ فهكذا شأن الأطفال والشباب وكل الناس يتخاصمون قال : فأجابتني بقولها : «يـا سيدي القاضي ، المثـل يقول : «كن كصكاص ولا تراس ، والا اخرج من بلاد الناس».

وهي تعني : اما ان تكون صاحب كصكاص أي صاحب طعام، أو ان تكون رجلا.. رجـلا ذا شخصية علميـة أو شجاعـة ، والا فلتفارق بـلاد الناس ! فالغربة تجرد الانسان من قيمته في مسقط رأسه.

قال رحمه الله : فهدأت من روعها وارشدت ولدها الى الاستقامة وملازمة السير على هذا المثل الذي سمعته من والدته من مطلق الطاعة لوادته

ثم انني حملته في سيارتي الـى «الداخلية» ثم الى السفارة السعودية ثم الى مكتب الخطوط الجوية الملكية حتى انهيت له جميع الاجراءات فدعوته الى منزلي فاعتذر بانتظار فلذة كبده له. ودعا لي بخير ولـم اره بعد ذلك حتى قيل لي انه مريض فـي الدار البيضاء عنـد فلذة كبده فاستعلمت عن صحته ودعوت له بالشفاء الى ان نعي لي كما سبق رحمه الله

والآن أقول للتاريخ مرة ثانية :

ان شيخنا سيدي عبد الرحمن بن الصديق الغريسي : ولد بقرية «أبو تونفيت» على مقربة من «وادي اغريس» ملحقة كلميمة اقليم الراشدية عام 1319 هـ 1901م وتـوفي يوم الاثنين على الساعة الثانية بعد الزوال 26 حجة 1398 ـ 27 نونبر 1978م وكانت وفاته بمنزله رحمه الله بالبطحاء : فاس وأول من ابنه العلامة سيدي عبد الكريم الداودي الأستاذ بكلية الشريعة بفاس وصلى عليه بعد الظهر في القرويين

ودفن بمقبرة «باب الفتوح» «في روضة خصوصية» لها باب خاصة قريبة من ضريح المرحوم العلامة المحدث سيدي الدراس بن اسماعيل ومن «مقبرة مطرح الاجلة» هنالك عن شمال ضريح الدراس وعلمت ان له بنتين احداهما في القضاء وهي التي نعته الي وليس له غيرهما ، فرحمه الله ورضي عنه وعزاء لفلذتي كبده أولا ولتلامذته والعلماء ثانياً وللاسلام والمسلمين بصفة عامة و«انا لله، وانا اليه راجعون».

الخلاصة :

يقول شيخنا رحمه الله عن نفسه وبخط يده : انه في سنة 1320هـ استوطن والده المنعم «خنيفرة» وكان يتجر في البز والثياب وغيرها،هنالك.

وفي سنة 1328 هـ توفي والده رحمه الله وهو ابن ثماني سنوات وكفلته أم والده : أم كلثوم رحمها الله مع شقيق والده : العربي وحفظ القرآن وهو ابن 14 سنة فتوفيت كفيلته في تلك السنة

وفي سنة 1333هـ من ربيع الاول : قدم الى فاس، وكفله ابن خالة والده السيد عبد المعطي

وفي شوال من السنة المذكورة اشتغل بأخذ العلم من كلية القرويين وتخرج منها في ربيع الاول سنة 1343هـ وزاد يقول : فالمدة التي مكثها بالقرويين تسع سنوات وستة اشهر، وفي اثنائها كان مدرسا ثم صار يدرس العلوم على اختلاف أنواعها بأحد مداشر البادية 6 سنوات.

وفي سنة 1349 رجع الى مدينة فاس، وصار مدرساً بالقرويين في الدروس النظامية وغيرها.

وفي سنة 1351هـ تزوج بنت كفيله ابن خالة والده المذكور، وافترقا في صيف سنة 1352 هـ .

وفي ربيع الاول المتصل تـزوج بزوجه الثانية والاخيرة فكان له معها من نسأل الله لهما العافية والتوفيق.

وفي سنة 1359هـ عين قاضيا بأحواز فاس : قبيلة الاحياينة.

وفي سنة 1366هـ عين في لجنة الامتحان للقسم السادس الثانوي بجامعة القرويين، وعزل عنها حين الحوادث المغربية.

وفي سنة 1373 هـ انفصل عن وظيفة القضاء، وعين بوزارة العدل، ثم ألقي عليه القبض وسجن بعين قادوس من فاس ، ويقول رحمه الله : احتفاظا على ديني ووطني

وفي سنة 1375هـ وفي شعبان منها عين قاضيا شرعيا بفاس، ثم عد شيوخه الذين أخذ عنهم ، وعلى رأس اللائحة شيخ الاسلام المغفور له أبو شعيب الدكالي، وقاضي الجماعة سيدي عبد الرحمن القرشي ومولاي الشريف التكناوتي ، والسيد محمد اقصبي ، وغيرهم من اعلام القرويين.

هذا الشريط مختصر من حياته المليئة بالعطاءات الثقافية ايرادا واصدارا

وكان ما تقلب فيه من المراتب ، كافيا لان يغريه بالرفاهية ، ويلهيه عن عالم اخلاقه الفاضلة ولكنه رحمه الله آثر ما صار لـه طبعا من الزهادة في الدنيا والرغبة فيما عند الله من خير لا حدود له.

● فهنيئا له بعزته الاسلامية واخلاقه الكريمة وجازاه الله خير الجزاء ، وبارك لنا في فلذتي كبده ولهما فيما خلفه من علم واخلاق ينتفع بهما ، خير عـزاء، وبارك لنا في بقية شيوخنا الاعلام ، وفي سائر حملة الشريعة الاسلامية الكرام انه سميع مجيب..

وانتهيت من مراجعته النهائية يوم الخميس على الساعة السادسة مساء تاريخ رابع وعشري شعبان عام تسعة تسعين وثلاثمائة والف هجرية الموافق تاسع عشر يوليوز سنة تسع وسبعين وتسعمائة والف ميلادية.

والله ـ وحده ـ اسأل العفو والمغفرة والرضوان ، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد ان محمدا رسول الله. والحمد لله رب العالمين. هـ

مـلـحـق

في التعريف بالعلامة الولي الصالح أبي عبد الله محمد فتحا بن الحسن بن مخلوف الراشدي الشهير بابركان .

الذي اطلق اسمه على هذه المدينة من اقليم شرق المغرب

● بمناسبة احياء أول ذكرى لوفاة المغفور له : محمد الشهير بابركان بين أنشطة أسبوع المسيرة الخضراء بعمالة وجدة. استدعيت للتعريف به في محاضرة ألقيتها في ابركان مساء ثالــث نفامبر 1988م/22 ربيع الاول عـــام 1409م/

وعقب ذلك رغب الى بعض من لهم شغف بالاطلاع على تراث اعلام سلفنا الصالح ان أحرر كلمة ـ ولو عابـرة ـ للتعريف بهـذه العلامة الذي اطلق اسمه على هذه المدينة مـن شرق المغرب تعميمـا للفائدة حسب نيته الطيبة التي دلتني آيات بينات على انه كان صادقا فيها.

ونزولا عند هذه الرغبة الطيبـة أقدم للقراء الكـرام الفصـول الآتية لهم باختصار في ملحق بهذا الكتاب (1)

1) نسبـــة

● هو أبو عبد الله. محمد «فتحا» ابن أبي الحسن : الحسن بن مخلوف الراشـدي الشهير بابركان ولقب «ابركان» كان لوالده، وانتقل اليه، ومعناه ـ ظاهريا ـ الاسود . و«عرفيا» الشديد السمرة المائلة الى السواد . وذلك ما يطابق الحقيقة ، كما يطلق على الاسود حقيقة أيظا .

ذلك ان «ابركان» ليس معناه «العبد» في اللجهة المحلية. فالعبد ـ فيها هو : «اسمغ» أو «اسمج» بكسر فسكون ففتح فسكون»

2) قرابته في بني يزناسن

ان قرابته في بني يزناسن هي في بني منقوش بالموضع الذي يدعى بـ « اغزر ، واشريك » جنوب «الركادة» بحوالي ست كلم ، وضريحه في تربة بني عتيق

ولقد عايشت قرابته المذكورة وكانـت دراستي العلمية الاولـى بقرية متصلة بها سنة 1929م. وأعرف أحد فقهائها : السيد محمـد «فتحـا» أحد عدول المحكمة الشرعية بابركان والـذي أعفي من تلك الخطة عام 1349هـ 1930م. وهو نفس التاريخ الذي التحقت فيه بـ «معهد وجدة

وعلاوة على ذلك فان الفقيه العـدل كان متزوجا بالسيدة «مامـة» بنت الفقيه السيد «رابح» شقيق البشير : جدي المباشر لوالدي رحم الله الجميع

والى ذلك تعرفت أثناء اقامتي بالرباط على بعض السادة الراشدين، في الطليعة المغفور له : أحـد الاصدقاء السيد «عـلال» الراشدي ثم على بعض قرابته الذين يوجد بعضهم في الدار البيضاء

وهؤلاء كأولئك في ابركان ينتسبون الى آل البيت الادريسي بالتواتر. على انني قد عثرت على ترجمة مختصرة لاحد أجدادهم أو أقاربهم في كتاب «العشماوي الصغير وهو الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف دفين «مليانة» بالمغرب الاوسط. وجعله «العشماوي من آل البيت ومن أهل التقوى والصلاح

3) دراستـه

يقول عن نفسه في أحد كتبه انه أخذ معارفه أولا عن والده.

ثم اشترك مع والده في الاخذ عن ابن «رزوق الحفيد بتلمسان

وابن مـرزوق هو أبو عبد الله : محمد بـن أحمد بـن محمد بن مرزوق العجيسي المتوفى عام 840هـ

4) تحليتـه

حلاه من ترجموا له . أي لسيدي محمد فتحا ابركان ـ بأنه الفقيه ، العالم المحدث ، الحافظ ، الولي الصالح أ

توفي والده عام 857هـ وتوفي هو عام 868هـ حوالي 1452م

فبين وفـاة ابن مـرزوق عام 840هـ ووفاة والـد المترجم سبعة عشر عاما. وبين وفاة والد المترجم ووفاة المترجم أحد عشر عاما

وبنفس تحلية المترجم، حلى المؤرخون والـده بالفقه والعلم والحديث والحفظ والولاية والصلاح. علاوة على أن الوالد هـو أحد شيـوخ الامام السنوسي الشهير فـي افريقيا كلها بنشـر الاسلام بين ادغالهـا كما عرف بالتأليف. وخصوصا في أصول الديـن والتربية الخلقية العملية الاسلامية بعيدة عن ضفاف اودية الخرافات والاساطير

5) مـؤلفاتـه

(أ) مجلد يشتمل على ثلاثة كتب : 1) المشرع المهنأ في ضبط مشكل رجال الموطـأ.

2) المبهم في ضبط مشكل رجال مسلم

3) الزند الواري في ضبط مشكل رجال البخاري

4) تعاليق على رجال ابن الحاجب وغيرها

وقد رأيت هذا المجلد بكتبه الثلاثة بقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم «97» حرف «كـاف»

ومن الطريف أني أخذت نسخة مصورة « من الزند الوارى » وأخذت في نسخها ، وأثناء ذلك أخبرت المغفور له عـلال الفاسي بما فعلت. فقال لي انسخه، ونشترك في تحقيقه وطبعه. وفعلا أخذت في نسخه الى ان بلغت قرابة ثلاثين صفحة.

ولما انتقل علال الفاسي الى ما عند الله من خير ورضوان ان شاء الله ضعفت عزيمتي وتراكمت احداث أخرى فأوقفت عملية النسخ.

وفي سنة 1986م كنت أصدرت عشرة كتـب فضممته معها الى تراجم أخرى لبعض رواد الوطنية بشرق المغرب وسلمـت الجميع الى مكتبة كلية الآداب والعلوم الانسانية بوجدة حتى اقرب هذه الكتب المتعلقة في أغلبها بشرق المغرب، بطلبة الكلية المذكورة

(ب) الغنيـــة

وألف أيضا كتـاب الغنية في ثلاثة أجزاء فـــي شرح الشفـاء للامام عياض رحمه الله ولم أتشرف برؤيتها

وهذه الغنية وضعها الشريف محمد بن علي التلمساني في طالعة مصادره لشرح الشفاء أيضا.

6) رتبته بين علماء الحديث

رتب علماء الحديث خمسة

● المسند «اسم فاعل» : مـن يروي الحديث بسنده سـواء أكان عنده علم به، أم ليس له الا مجرد الرواية.

● المحدث : من يشتغل بعلم الحديث رواية ودراية، ويطلع على كثير من الروايات وأحوال رجالها، أو رواتها.

● **الحـافـظ**

قيل انه مرادف للمحدث، وقيل هو ارفع درجة منه

● **الحـاكـم**

هو من أحاط علما بجميع الاحاديث حـتـى لا يفوته منهـا الا اليسير كالحاكم النيسابوري

● **امارة المومنين في الحديث** ، كالامام البخاري ولم أصادف له تعريفا خاصا به.

7) عصر المعرف به

عاش هذا العالم الولي الصالح في عهد بني «مرين» بالمغرب الاقصى وعاصمتهم بين «فاس» الجديد التي كانت من انشائهم ازاء المدينة العتيقة، وأطلقوا عليها البيضاء أو المدينة البيضاء. وفيها كانت قصورهم وقصور الحاشية

وفي عهد ملوك بني مرين أو الزيانيين، أو بني عبد الوادي المرينيين بتلمسان

ومن الطريف أن دولة بني امرين بفاس انتهت بعد سنة على وفاة مترجمنا

وقد توفي آخرهم عام 869م. وهو عبد الحق بن أبي سعيد المريني.

ومن الطريف أيضا أن دولة بني مرين ابتدأت برئيسها الاكبر أبي محمد : عبد الحق بن محيو المريني .

وانتهت أيضا بـ «عبد الحق بن أبي سعيد المريني !!

8) اخص مميزات العهد المريني

كان من أبرز خصائص هذه الدولة :

1) الاشتغال بعلم الحديث علاوة على الاشتغال بالفقه .

وحسبنا من ذلك. ان «أبا عنان» كان يعقد مجالس لاملاء الحديث بالطريقة السلفية. وان ممن كان يحضر هذه المجالس : شيخ المؤرخين : عبد الرحمان ابن خلدون ، في انتشار الرباطات الصوفية في جميع أجزاء المملكة المغربية

وحسبنا ـ حجة على ذلك ـ كتاب التشوف لرجال التصوف « لابن الزيات التادلي وكتاب » المقصد الشريف ، والمنزع اللطيف ، في التعريف بصلحاء الريف « لـ » « عبد الحق بن اسماعيل البادسي » نسبة الى جزيرة بادس بالريف. وان كان هذان المؤلفان في عهد الموحدين . ولكن بني مرين ورثوا هاتين الخصيصتين، فكانتا من أبرز خصائص دولتهم والناس على دين ملوكهم».

اذن، لا عجب أن يتكون مترجمنا بخصائص هذا العصر، فيحليه المترجمون له بانه الفقيه، العالم، المحدث الحافظ، الولي الصالح

فشيخاه : والده، وابن مرزوق من هذه البيئة، وهو منهما ومنها، واذا اراد الله أمرا هيأ له أسبابه.

9) خاطـرة عابـرة

عندما دعيت لالقاء حديـث للتعريف بـه في أول ذكرى أو موسم له ، تساءلت : لماذا مرت خمسة قرون، وواحد وأربعون عاما على وفاة هذا الولي الصالح وهو مجهول منزو بين رفـوف النسيان ؟ ولماذا أيضا لم يهتم أحد بتحقيق مؤلفاته ثم بطبعها ، أو على الاقل بأن تكون موضوع أطروحة أو اطروحـات ؟؟ !!

فما مالت نفسي الا لعامل واحد . وهو أنه لم يوفق الى الاستقرار باحدى عواصم المغرب التي تعج بالعلماء والباحثين ، فماذا كان يكون حال مثل عياض ، والسهيلي مثلا لو استقرا ببادية ما . ؟

وازاء ذلك تذكرت وصية الامـام مالك للشافعي : «لا تسكـن بالبادية. فانها مضيعة للعلم . واربط نفسك بذوي النفوذ حتى لا يتجاسر الناس عليـك».

ثم **قلت :** ألم يكن في مواهب المترجم ما يرشده الى ذلك ؟

فأجابت الذاكرة :

ان أولياء الله وأحباءه على ثلاثة أنواع : نوع يمارس الحياة بأسلوب عادي . ونوع بين الانقطاع مرة . وممارسة الحياة بصفة عادية أخرى ونوع ينقطع فيه نهائيا الى الله ، فاختار مترجمنا هذا النوع الثالث .

ومع ذلك ، فقد أبى الله سبحانه وتعالى الا أن تقام له ذكرى أو موسم في هذه السنة على رغم تراكم القرون على وفاته ومؤلفاته ، وتلك آيات المخلصين لله الذابين عن دين الله .

10) المصـــادر :

1) الابتهاج في تكملة الديباج : لاحمد بابا السوداني

2) الاعلام فيمن حل بمراكش من الاعلام : عباس بن ابراهيم المراكشي

3) وفيات الونشريشي. صاحب المعيار

4) البستان في تاريخ علماء تلمسان. للشريف محمد بن علي التلمساني

5) المجلد المسجل بالخزابة بالرباط تحت رقم 97 حرف كاف للمترجم نفســـه

6) البستـان...... للمؤرخ ابن مريم

الرباط قدور الورطاسي

الفهـــــرس



كتبـه المطبـوعـة

1 ـ بنو يزناسن عبر الكفاح الوطني
2 ـ معالم من تاريخ وجدة
3 ـ فگيگ المجاهدة
4 ـ اربع سنوات مع جبهة التحرير الجزائرية
5 ـ الحدائق «ديوان»
6 ـ روائع الخالدين محمد المدور رحمه الله
7 ـ ذكريات الدراسة في فاس
8 ـ غروب الاستعمار
9 ـ فقه المناسك على مذهب مالك
10 ـ المطرب في تاريخ شرق المغرب في جزئين سنة 1984 بمطبعة الرسالة الرباط

الجاهزة للطبع : ـ

1 ـ مشاهدات وارتسامات عن حضارة فاس بيد مطبعة المعارف الرباط
2 ـ طرائف النضال الاستقلالي
3 ـ جولة بين ربوع شرق المغرب دراسة اجتماعية
4 ـ الجزء الثاني من الحدائق بعنوان : زهرات الحدائق
5) رهن التحرير : عقود الجمان من روائع امحمد ابركان

من سلسلة روائع الخالدين : (كلها بقسم الوثائق بالخزانة العامة في الرباط)

1 ـ محمد الدرفوفي رحمه الله
2 ـ محمد بناصر رحمه الله
3 ـ احمد بندالي رحمه الله
4 ـ المصطفى المشرفي رحمه الله
5 ـ محمد بنمنصور رحمه الله
6 ـ الدرر اللميعة في الرد على رفيقة الطبيعة
7 ـ في موكب ابطال الوطنية

الثمن : 25 د